

محمد المرزوقي

قباس

جنة الدنيا

غابتها - خليجها - مدينتها
سكانها - تاريخها - رجالها

يوم بـ (منايس جنة الدنيا) وفي
قلبي لوشك البين حرفة يسعر

ابراهيم الصالح

التأشير
مكتبة المتاحف
ومكتبة الميثاق ببغداد

الإهداء

إلى أستاذي الجليل حسن حسن عبد الوهاب
هذا الكتيب نتيجة دروسكم وتعليقاتكم ، وثمره هديكم
وتوجيهاتكم ، وقبس من فيض نوركم اللامع ، وعلمكم
الواسع ، فن معلوماتكم جمعته ، وعلى ضوء توجيهاتكم
وضعته ، فاسمحوا لي - إذن - أن أهديه إليكم كباكورة
ثمرة غرستم شجرتها ، وانتظرتم إيناعها وبركتها ، والله
المسؤول ، أن يكون جديراً لديكم بالقبول .

ابنكم المخلص

محمد المرزوقى

فهرس الموضوعات

صفحة

ج	الإهداء	...
ز	مقدمة	...
١	الباب الأول - غابة قابس	
٥	الفصل الأول : الغابة	...
١٠	الفصل الثاني : منتجات الغابة	...
١٩	الفصل الثالث : وادى قابس	...
٢٦	الفصل الرابع : المنتزهات	...
٣٣	الفصل الخامس : القرى داخل الغابة	...
٤٠	الفصل السادس : أحداث تاريخية	...
٤٧	الباب الثاني - خليج قاس	
٤٩	الفصل الأول : الشاطئ	...
٥٢	الفصل الثاني : المرفأ البحرى	...
٥٥	الفصل الثالث : مشروع بحر الصحراء	...
٥٩	الباب الثالث مدينة قابس	
٦١	الفصل الأول : المدينة القديمة	...
٧٥	الفصل الثاني : معالم المدينة	...
٨٧	الفصل الثالث : اقتصاديات المدينة	...
٩١	الفصل الرابع : المدينة الحديثة	...
٩٥	الفصل الخامس : أحواز قابس	...

صفحة

١١١	الباب الرابع - سكان قابس
١١٣	الفصل الأول : القداى
١١٩	الفصل الثانى : العرب
١٢٦	الفصل الثالث : بعد التعريب
١٣٣	الباب الخامس - ولاة وملوك
١٣٥	الفصل الأول : قبل الفتح الإسلامى
١٤٢	الفصل الثانى : ولاة وثورات
١٤٥	الفصل الثالث : فى ظل دولة إفريقية
١٦٧	الفصل الرابع : عهد الاستقلال
٢٠٩	الفصل الخامس : عهد التبعية
٢٣١	الباب السادس - أعلام قابس
٢٣٣	الفصل الأول : أعلام محليون
٢٦٥	الفصل الثانى : أعلام غابرون
	المصادر والمراجع

الفهارس

٢٨٣	فهرس الأعلام
٢٩٥	فهرس القبائل والفرق
٢٩٩	فهرس البلدان والأماكن
٣٠٦	فهرس الكتب
٣٠٩	فهرس الصور والخرائط

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

واحة خضراء تمتد مستطيلة من شاطئ البحر حتى تقرب من الروابي الجرداء المطلّة على قرية (شنفي) من الغرب ، يتسم لها الخليج من الشرق وتطل عليها الروابي الجبلية من الغرب وقيم جبل (خنقة عيشة) من الشمال وراء سهل ترقطه بعض الواحات الصغيرة والربى المتناثرة ومجاري السيول الموسمية بينما يحرسها ضريح الصحابي (سيدى أبى لبابة الأنصارى) من الجنوب ، وتمتد المدينة بين الواحة وبين الضريح مشرقة حتى البحر .

هذه هي (قابس) التي نخصصها بهذا البحث ، والتي تعتبر اليوم عاصمة الجنوب الشرقي للجمهورية التونسية ، ونقطة الوصل بين الجنوب والشمال . ومركز الحركة التجارية والصناعية والزراعية لتلك الجهة والتي كانت في يوم من الأيام العاصمة الثانية لإفريقية بعد القيروان .

وقد عرف الأقدمون أهمية موقعها فهي مطلة على الصحراء الكبرى من جهة . تنطلق القوافل المحملة منها إلى عرض الصحراء لقمير الواحات المتناثرة في طريقها حتى تنتهي إلى بلاد السودان ، وهي قرية من طرابلس من جهة ثانية يربط بينهما طريق لا يخلو من الحركة ليل نهار ، وهي على رأس الخليج المسمى باسمها من جهة ثالثة حيث ترسو السفن الصغرى وتلغح بما في بطونها إلى المدينة لتتلقى منها ما تحمله إلى المراسى الأخرى من خيراتها ، وهي مفتاح للمدن الإفريقية في الشمال من جهة رابعة حيث

(ح)

العمران ، والحضارة ، والحيرات ، وحيث السلطة ، والجيوش .
ولهذه الاعتبارات أصبحت (قابس) نقطة الوصل بين المشرق
والمغرب الإسلاميين وبين العمران والصحراء ، ومركز شبكة الطرقات
الهامة ، والنقطة الاستراتيجية الحساسة بالنسبة للسلطة التي تحكم هذه
الرقعة من الأرض .

نعم ، عرف الأقدمون لها هذه الأهمية فأطلقوا عليها اسم (باب
إفريقية) ووصفوها بأنها (جنة الدنيا) وبأنها (دمشق الصغرى)^(١)
وبأنها (في إفريقية كدمشق الشام)^(٢) .

* * *

دخلت (قابس) في سبتمبر سنة ١٩٢٦ وأنا غلام ، بعد ما قطعت
لها طريقاً صحراوياً طويلاً قضيت فيه نحو ثلاثة أيام على ظهور الإبل فكانت
أول مدينة متحضرة رأيتها عيني ، أسواق عامرة تموج بالآلاف الخلائق ،
وبناعات عصرية تطل على المدينة القديمة من الشرق والجنوب ، وطرقات
واسعة معبدة لم أر مثلها في قريتي ، وغابة ذات نخيل باسق ، وأشجار
خضراء ، تحمي المدينة من الشمال والغرب ، وسيارات تندفع هادرة صاحبة
يتحكم فيها شخص بواسطة مقود من الحديد فتطيعه كما يطيع الحمل
واكيه بواسطة الرسن ، وعربات تتلحرج على الأرض تجرها خيول مطهمة
غماظتي أن أراها في هذه المهنة الذليلة وقد خلقها الله للسروج المذمبة
والمفضضة ، ومحطة للقطر الحديدية قبعت على جانب البناءات سمعت
منها — لأول مرة في حياتي — صغيراً حاداً ينطلق من قاطرة فأدهشني

(١) التيجاني ص ٨٦ .

(٢) بسط الأرض لابن سعيد ص ٧٨ .

(ط)

وتعجبت من تلك الآلة المتحركة الدواليب التي تصبح ، تماما كما يصبح حيوان ذو نفس .

هذه الصورة التي أخذتها عن قابس وأنا طفل بقيت محفورة في ذهني لم تمحها الصور التي رأيتها بعدها في تونس العاصمة وفي غيرها ، ولو أنها أجل وأروع منها .

وتتابعت الأيام وكثرت زياراتي لهذه المدينة فاتخذت فيها الأصدقاء والأحباب ، ثم تطورت علاقتي بها على الأيام فإذا بها تصبح لي مركزا لتسيير الحركة الوطنية بأرض الجنوب بعد الحرب العالمية الثانية ، ففيها عقدت المؤتمرات الوطنية بالمسؤولين في الأرض المحكومة من طرف السلط العسكرية التي حرمت علينا بصيص الحرية الذي كنا نلقاه في قابس ، ومن هناك كنت أعطى الأوامر والتعليمات الحزبية لإعداد وسائل تحرير البلاد، وكنا نلقى من أهل قابس الإكرام والتشجيع .

وكنت أعتنم كل فرصة أثناء هذه الزيارات للتمتع بمناظر غابة قابس ومنزهاتها الرائعة وكانت هذه المناظر تأخذ بلي وتفتح لها نفسى بالرغم من أني ابن واحة وليست مناظرها غريبة عني ، إلا أن واحة قرينتي التي عرفتها كانت حديثة التكوين صغيرة المساحة أفسدتها يد الإنسان بما أدخلت عليها من التنظيم والتشذيب والبهرجة وهو أمر لا أحبه في هذه الغابات الخضراء التي يعجبنى منها بقاؤها على الحالة الطبيعية ، أشجار مختلطة متشابكة الأعصان وطرقات ومجاري مياه ملتوية متداخلة ، ومنازل للسكنى بسيطة المظهر متناثرة هنا وهناك مخفية عن الأنظار تحت ظلال النخيل والأشجار وهذا ما حققته لي واحة قابس ولم أجده في قرينتي حيث تنزل المنازل عن الغابة انعزالا تاما ،

كل ما في قابس لفت نظري وجلب انتباهي وأثار كوامن حبي لها ،

(٥) .

إلا شيئا واحداً كان يقلقني وأتبرم به ذلك هو ماؤها ، فكنت ألقى العناء من هذا الماء فهو بالنسبة لمثلي ممن اعتاد شرب المياه العذبة سواء في القرية أو في تونس العاصمة أمر مقلق ومؤسف فماء قابس شروب ، كما يقول الأقدمون ، ولكنه ليس بعذب ، وهو ثقيل ولا يطعم الإنسان الأجنبي أن يتعود به إلا بعد قضاء مدة فيها .

سنوات متطاولة وأنا ملازم لزيارة قابس سنويا تقريبا بعدما أصبحت مقرا لجزء من عائلتي ولم أفكر في التأليف عنها ولكن حين اتصلت بـ (المعهد القومي للآثار والفنون) وكان من عملي الاطلاع على ما كتبه الرحالون والمؤرخون عن بلادنا واكتشفت اهتمامهم بقابس وقابلت ما كتبه بما أعرفه عنها إذ ذاك خطرت لي فكرة هذا التأليف ، فجمعت ما وجدته في مدحها وذمها ، في الواحة والمدينة والعالم ، وعن علمائها وأدبائها وأمرائها وولاتها وأحداثها السياسية ، ورجعت في المجهول من هذا كله إلى مؤرخ إفريقية أستاذنا حسن حسن عبد الوهاب - متعنا الله بجزائه - فوجدت من علمه الواسع ما سد الثغرات ومن توجيهاته القيمة ما سهل العقبات ، ثم أضفت إلى ذلك ما أعرفه شخصيا عن هذه الواحة ، وما جمعته أثناء زيارتي لها من معلومات أمدني بها بعض الأصدقاء من السكان والموظفين بالمصالح الحكومية ، جزاهم الله عني بالخير وأجزل لهم عن إعانتهم الأجر ، ثم نظمت جميع ذلك في أبواب وفصول تكون منها هذا الكتاب الذي سميته (قابس ، جنة الدنيا) مقلدا في ذلك (أبا الفضل محمد بن علي التجاني) الذي يقول :

يوم بـ (قابس جنة الدنيا) وفي قلبي لوشك البين حرقة مسعر

وخصصت الباب الأول منه بالحديث عن واحة قابس وموقعها ومنزهاتها ومنتجاتها والأحداث التاريخية التي برت عليها .

والباب الثاني للحديث عن خليج قابس ومرساه البحري ، ومشروع بحر الصحراء .

(ك)



غابة من النخل لم تهدمها يد الإنسان

(ل)

والباب الثالث للحديث عن المدينة وموقعها القديم والحديث ومعالمة
كقصر العروسين التاريخي وغيره ،

والباب الرابع للحديث عن السكان وأصولهم وطبائعهم .

والباب الخامس للحديث عن التطورات السياسية والأمراء والولاة
الذين تعاقبوا على قابس وعن فترات استقلالها وتبعيتها ،

والباب السادس للحديث عن أعلام رجالها من القرن الأول إلى القرن
الرابع عشر للهجرة ٥

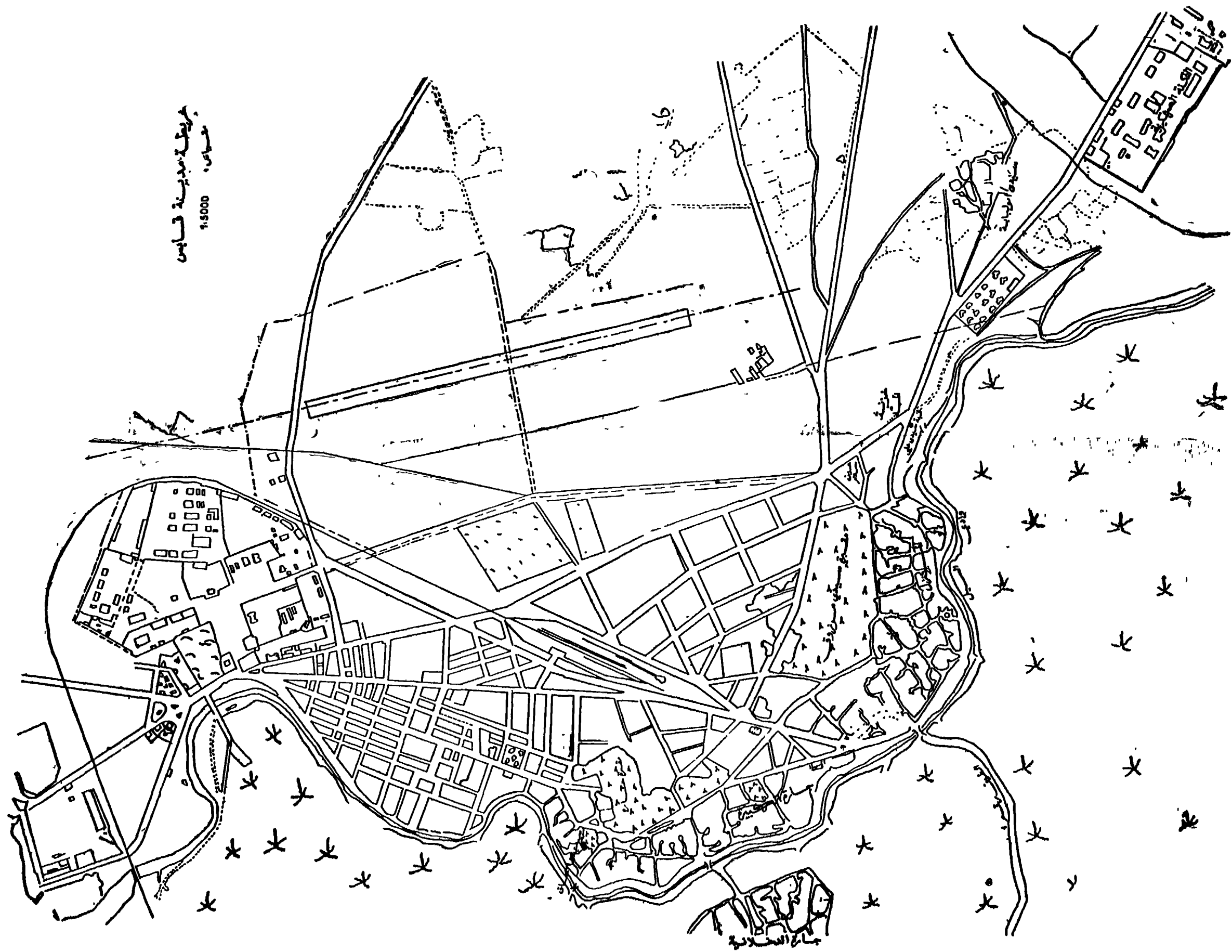
ومن هذه المجموعة من المعلومات عن قابس يتعرف القارئ إلى مكانة
هذه الواحة في التاريخ وإلى الأحداث التي تلتى ضوعا عن فترات من
تاريخنا القومي يستغنى بها عن الرجوع إلى المجلدات العديدة من كتب
التاريخ والرحلات .

وانتهيت من إعداد الكتاب للطبع في خريف ١٩٥٩ ووضعته على
الرف - كما يقولون - وقد تغيرت بعد كتابته أشياء وأشياء ، ولكني
لم أستطع تغيير ما كتبت للشواغل اليومية التي حالت بيني وبين إعادة النظر
فيه وتكلفت البحث عن التغييرات الحديثة ، واكتفيت ببعض التغييرات
الطفيفة التي ليس منها بد ، ورأيت أن أقدمه للطبع ما دامت هذه التغييرات
لا تنال من جوهر الكتاب ٥

وأمل أن يكون في هذا العمل المتواضع نفع للجيل الطالع ، وممتعة
للدارس والمطالع ، والله الموفق للصواب .

محمد المرزوقي

تونس في جانفي ١٩٦٢

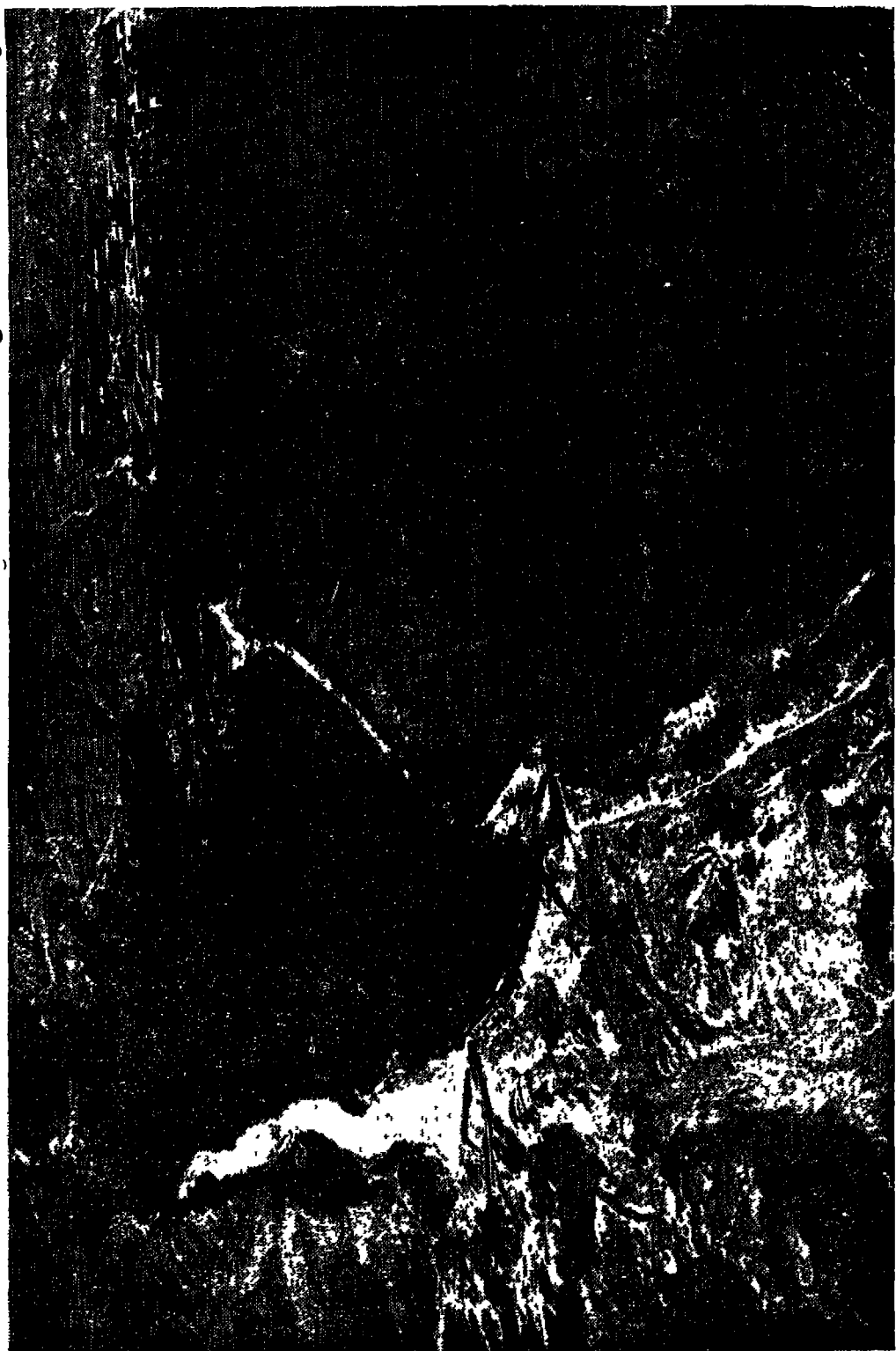


مدينة قسايا
1:5000

مخطط رقم (1)

جامعة القديسة كاترين

البَابُ الْأَوَّلُ
غَايَةُ قَابَسٍ



(شكل رقم ٣) واحة قاس تشقها السواقي المائية - الصورة أُعدت من الجو

الفصل الأول

الغابة

موقعها - أشجارها - مساحتها - كيف وصفها الرحالون

لسنا ندرى في أى قرن غرست هذه الغابة من قرون التاريخ ، ولكننا نستطيع أن نتكهن أنها كانت موجودة في العصر البربرى قبل الفينيقيين وأنها غرست مند عرف البربر الأول النازلون بتلك الجهة غرسة الأشجار ، فنابع المياه الطبيعية الغزيرة بقابس أغرت السكان الأول بالاستقرار والغرسة وإنتاج الثمار والغلل .

وموقع هذه المنابع المائية قرب البحر حيث يتمكن السكان من صيد الأسماك من جهة ، ومجاورتها للأراضى الصالحة لزراعة الحبوب والزيتون وتربية الحيوان من جهة ثانية ، وللصحراء بسهولها وجبالها حيث تكثر الحيوانات البرية التي يستغل الإنسان لحومها وجلودها من جهة ثالثة . كل هذه الأشياء دفعت البربر الأول للاستقرار وتكوين واحة قابس .

وبالتأمل من تربة الغابة ومن مجارى مياهها يتبين للباحث أن وجود الغابة كان ماثلا منذ قرون متطاولة ، ولعل في اسم قابس القديم (تاكاب Tacape) ما يدل على توغلها في القدم^(١) ، إلا أن هذا التكهن لا يصل بنا إلى التصور أن الغابة كانت في عصرها الأول تماثل أو تقارب الغابة في العهد الرومانى ، وفيما بعد الفتح الإسلامى إذ نعتقد أنها كانت غابة صغيرة تناسب مساحتها عدد سكانها ووسائلهم الزراعية البسيطة ، بل نكاد نميل إلى التكهن بأن أشجارها القديمة كانت في الغالب نخلا وزيتونا ، وأن مكانها كان مقتصرًا

(١) انظر الفصل الأول من الباب الثالث .

على جوانب الوادى ممتدا معه من الغرب إلى الشرق في مساحة ضيقة .
 وجاء الفنيقيون وأدركوا أهميتها البحرية والتجارية فجعلوا منها مركزا
 تجاريا هاما من جملة المراكز الممتدة على ساحل الخليج الرابطة بين قرطاجنة
 من الشمال وطرابلس من الجنوب الشرق وصارت سفنهم تتردد على
 مرساها الصغير ، ولا نشك أن خصب أرضها ووفرة مياهها أغرامهم
 بإنشاء الضيعات الزراعية التي استخدموا فيها سواعد البربر والعبيد
 فازدهرت الغابة واتسعت مساحتها

ثم جاء الرومان والبيزنطيون بعدهم فتوسعوا في إنشاء الضيعات على
 جنبات الوادى حتى شملت الغابة ما يقارب مساحتها اليوم^(١) إذا لم تكن
 أوسع ازدهارا في العهد الروماني كما يستنتج ذلك من وصف بلين Pline
 الذى يقول^(٢) :

« وفي خليج (سيرته) توجد مدينة اسمها تاكاب أرضها خصبة ومناخها
 جميل ، وعلى بعد ثلاثين ميلا منها تقريبا عين فوارة متسعة ماؤها مقسم
 تقسيما محكما بين البساتين بالساعات ، وفي بساتينها نرى الزيتون يصعد
 في ظلال النخيل وفي ظل الزيتون ينبت التين ، وفي ظلال هذا نجد
 أشجار الرمان وتحت هذه يعرش العنب وتحت العنب يزدهر القمح وأنواع
 الخضرة . كل هذا يثمر في سنة واحدة وكله في ظلال وبساتين ممتدة ،
 ولهذا الخصب يبلغ ثمن المتر المربع الواحد من تلك الأرض دينارين
 فضة^(٣) .

وفي جهات متعددة من أطراف الغابة يعثر المزارعون على آثار

(١) يحملها (الأطلس الأثرى للبلاد التونسية) في العصر الروماني ممتدة من شلى إلى
 سيلى عبد السلام .

(٢) Pline. Hist. naturelle, v, 8 p. 194-195.

(٣) عملة رومانية يساوى الدينار الواحد منها فرلكا ذهبيا من عملة ١٩١٤ الفرنسية .

بنايات قديمة يرجع عهدها إلى هذه العصور لانثك أنها آثار ضياع متفرقة أنشئت في تلك الأزمنة :

ولم تكد أقدام المسلمين تستقر في هذه البلاد حتى تبحر عمران الغابة وعظمت مساحتها وتطورت زراعتها ودخلت إليها أنواع جديدة من الأشجار فأصبحت تمتد من قرب البحر شرقا إلى ما بعد شنتي غربا ثم ينعطف طرفاها الشرق والغربي نحو الجنوب فتصبح المدينة محصنة بالغابة من الشرق والشمال والغرب وتصبح الغابة تغطي مساحة نحو ٧ كم طولاً وما بين ١ - ٣ كم عرضاً . ويحدثنا الرحالون في القرون الإسلامية الأولى أن هذه الغابة كانت تعج بأشجار النخيل والزيتون ، والتوت ، والتفاح ، والرمان ، والتين ، والموز ، والعنب ، وقصب السكر ، والحناء ، الخ : فقال اليعقوبي وهو من أهل القرن الثالث^(١) : « كثيرة الأشجار والثمار والعيون الجارية » .

وفي القرن الرابع وصفها ابن حوقل^(٢) بأنها « ذات مياه جارية وأشجار متهدلة ، وفواكه رخيصة ، ولها من التمر والزروع والضياع ما ليس لما جاورها من زيتون وزيت وغللات » .

ووصف المقدسي^(٣) وادبها بأنه « كثير النخيل والأعناب والتفاح » . وقال عنها البكري^(٤) في القرن الخامس « وفيها جميع الثمار والموز بها كثير وهي تميز القيروان بأصناف الفواكه وبها شجر التوت الكثير : : : واتصال بساتين ثمارها مقدار أربعة أميال ومياهها سابحة مطردة تسقى بها جميع أشجارها ... وبها قصب السكر كثير » :

(١) البلدان ص ١٠٥ .

(٢) المسالك ص ٤٧ .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .

(٤) المسالك ص ١٧ .

وقال الإدريسي^(١) عنها في القرن السادس : « جنات ملتفة وحدائق مصطفة وفواكه هامة رخيصة » .

ثم يقول الإدريسي : « ويتصل بآخر غابة أشجارها إلى البحر رملة متصلة بمقدار ميل^(٢) وهذه الغابة أشجار وجنات وكروم وزيتون كثير . . . وبها أيضا نخل ملتف به من الرطب الذي لا يعدله شيء في نهاية الطيب » .
ووصفها التجاني^(٣) في أول القرن الثامن فقال : « بلد قد استوفى المحاسن واستغرقتها ، واذكر بمنظره الأنضر وورقها الأخضر جنة الخلد وإستبرقتها ، وقد أحلقت غابته من جميع جهاته ، وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق ما يستوقف الطرف ، ويستوفى الحسن والظرف ، ويحقق ما قيل : إن قابس جنة الدنيا ، وإنها دمشق الصغرى . . . وأكثر جناتها فيما بين المدينة والبحر » .

ووصفها أبو المطرف بن عميرة^(٤) بقوله : « بلد غوطى البساتين ، طورى الزيتون والتين ، فأما النخل فجمع عظيم ، وطلح هضيم ، وسكك مابورة ، ونواعم في الخلدور مقصورة ، وإن بقعته لوارفة الظل ، آمنة الحرم والحل ، جنة لو نزع ما في صدور أهلها من الغل ، وبالجملة فهو تام الغرابة مدهام الغابة ، مستأثر بسيد من سادات الصحابة » الخ^(٥) .

وقال الورتلاني^(٦) ودخلها في القرن الثاني عشر : « فيها مياه كثيرة وبساتين من نخل ورومان وعنب وتين وفواكه جمّة . . . كثيرة المزارع ، كثيرة الحناء بحيث لا تساويها في ذلك بلدة » .

(١) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

(٢) لم يبق من هذه الرملة اليوم إلا القليل حيث وصلت البساتين إلى قرب البحر .

(٣) رحلة الصحافي ص ٨٦ - ٨٨ .

(٤) انظر ترجمته في الباب السادس .

(٥) رحلة التجاني ص ٩٠ والحلل السندسية ص ١٥٠ .

(٦) نزهة الأنظار ص ٦٥٢ .

ويستنتج من أقوال هؤلاء الرحالين ما كانت عليه غابة قابس من ازدهار واتساع ، بيد أن هذا الازدهار قد تعطل زمنا ليس بالقصير بسبب الفتن والثورات - كما سيأتى - ولكنها رجعت إلى ازدهارها في العهود الأخيرة فازداد اتساعها حتى اقتربت شرقا من البحر وامتدت غربا إلى قرب رأس الوادى ، وشمالا إلى (بوشمة) وغطت مساحة ٨ كم - طولاً - وامتد عرضها بين ١ - و٤ كم حتى لتكاد تتصل بغابة - (غنوش) شمالاً . ورغم اتساع مساحة الغابة فأشجارها اقتصرت إلى الآن على الأنواع القديمة كالنخل والموز والرمان والخوخ والمشمش والعنب والحناء الخ ، بل إن بعض الأنواع القديمة كالتوت المعد لتربية دودة الحرير وقصب السكر قد اختفت تماما من الجهة .

وهذه المساحة التي تغطيها الغابة لا تشتمل مساحات أخرى تعطيها أشجار الزيتون والتين والتوت قديما حسبما نبينه في الفصل الآتى .

الفصل الثاني

منتجات الغابات

الحرير - التمر - الريح - الموز - الخناء - السكر - الرمان . الخ

لم تكن غابة قابس كما نعرفها اليوم لا تنتج غير بسر (اللمسية) والموز وشيء من الخناء وبعض الغلال والخضر ، ولكنها كانت في العصور القديمة مصدر ثروة لأهلها بما تنتجه من خيرات وما تصدره من حرير وزيت وعلات إلى أطراف العالم الإسلامي ، وكانت القوافل البرية والبحرية تصدر عنها محملة إلى الشرق والغرب ، وكانت عاصمة إفريقية (القيروان) تستورد نتاج غابة قابس إلى أسواقها . قال البكري : « وهي - أي قابس - تدير القيروان بأصناف الفواكه »

الحرير :

فن أعظم خيراتها الحرير الذي طبقت شهرة جودته أسواق العالم الإسلامي ولهج بذكره غالب الرحالين القدماء ، فقد نبه إلى وجوده ابن حوقل^(١) في القرن الرابع بقوله : « ويعمل بها الحرير » أي بقابس . وقال البكري^(٢) في القرن الخامس : « وبها شجر التوت الكثير ويقوم من الشجرة الواحدة منها من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات من غيرها ، وحريرها أطيب الحرير وأرقه ، وليس في عمل إفريقية حرير إلا في قابس » . وقال الإدريسي^(٣) في القرن السادس : « يعمل بها الحرير الحسن ... وبها من ناحية البحر سوق وباعة وحريريون كثيرون » .

(١) المسالك ص ٤٧ .

(٢) المسالك ص ١٧ .

(٣) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

فهذا الحرير الكثير الذى أنشئت من أجله معامل وأسواق وصدرت بمسوجاته القوافل إلى الشرق وتباهت به المخدرات فى الأعياد والأعراس حسبما يرويه شيوخ قابس عن أجدادهم ، هذا الحرير كان نتاج دودة القز التى عرست من أجلها غابة كثيفة من أشجار التوت تمتد - كما يزعم أهل قابس - مسافة أميال وتغطى عشرات الهكتارات من السهل المنبسط بين ضريح أبى لباية رضى الله عنه إلى الروابى الغربية التى يمترقها الطريق الغربى الصحراوى المار بزاوية (سيدى قناو) .

ولا ندرى متى عرفت قابس تربية دودة القز وغراسة أشجار التوت ولكننا نعرف أن غابة التوت هذه قد اختفى أثرها ما بين القرن السادس والقرن السابع تقريبا واضمحلت باضمحلالها صناعة الحرير وتجارته بقابس فلا نجد له ذكرا فى رحلة العبدرى^(١) الذى دخل قابس فى أواخر القرن السابع ولا عند الرحالين بعده كالتجافى الذى دخل قابس أوائل القرن الثامن وعرفنا حرصه على ذكر منتجات كل بلد مرَّ به . والظاهر أن الفتن التى اندلعت فى أوائل العصر الموحدى وعلى الأخص فتنة ابن غانية الميورقى التى سيأتى تفصيلها فى الباب الخامس والتى تسببت فى قطع جميع أشجار غابة قابس^(٢) هى التى قضت على غابة التوت وإنتاج الحرير ، وإذا استطاع أهل قابس تعمير غاباتهم من جديد ، فالظاهر أن العمران اقتصر على سكان الغابة اليوم لقربه من البلد وحال الخوف وكثرة الفتن من إعادة تعمير مراع التوت فى الغرب ومزاع التين والزيتون فى الجنوب .

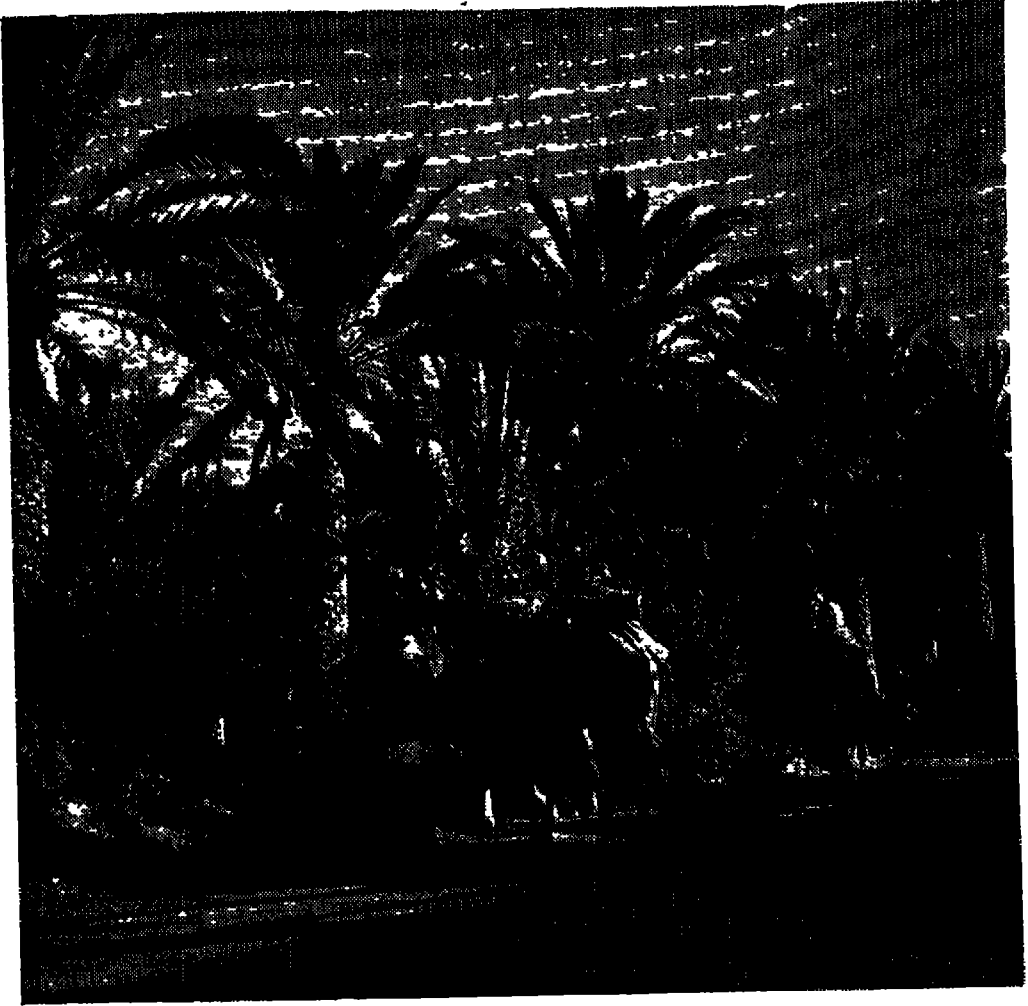
التمر :

أما السخل فالظاهر أن السكان الأول هم الذين عرسوه فى مكانه اليوم أى قرب مجارى المياه ، وهى الأمكنة التى تنمو فيها النخلة بكثرة ونستطيع

(١) رحلة العبدرى - مخطوط مكتبة ح ح عبد الوهاب .

(٢) سنة ٥٩١ هـ .

من معرفتنا لطبيعة النخلة أن نحدد مكان هذه الشجرة من قديم ، وأن نقول
لأنها كانت ولا تزال في مكانها اليوم على جوانب المجارى المائية المتفرعة عن
(وادى السيل) و (وادى ابن يحمده) ثم تستمر مع المجارى إلى قرب البحر .



(شكل رقم ٤) نخيل قابس تشقه طرقات القوافل

وقد غرس السكان أنواعا من التمر منها ما يباع أو يؤكل بسرا ، أى قبل
طيبه ، كالنوع المعروف بـ (اللمسى) وهو الأكثر ، ومنه ما يؤكل ويدخر

تمرا كـ (العقيوة) بتشديد القاف المفخمة وكسرها ، ومنها ما يؤكل بسرا ويدخر تمرا كالنوع المعروف بـ (بوحطم) بفتح الحاء وتشديد الطاء مع فتحها أيضا - ومنها أنواع من الرطب وصفه ابن سعيد^(١) بأنه كثير طيب . وقد حاول المزارعون تربية أنواع أخرى من النخيل فلم تفلح التجربة ، فقد غرسوا النوع المعروف بـ (الدقلة) ففشلت التجربة ، حيث أنتجت النخلة نتاجا بعيدا عن (الدقلة) بالرغم من جودة نوعها في (الجريد) و (نفزاوة) والسبب يرجع إلى تربة الأرض إذ من خصائص الدقلة أنها لا تنتج إلا في الأماكن الصحراوية الجافة البعيدة عن البحر .

وقد ترك لنا الرحالون القدماء وصفا لبعض أنواع التمر بقابس نستطيع أن ندرك نوعه من ذلك الوصف ، قال الإدريسي^(٢) : « وبها أيضا نخل ملتف به من الرطب الذي لا يعادله شيء في نهاية الطيب ، وذلك أن أهل قابس يجنونها طرية ثم يودعونها في دنانات ، فإذا كان بعد مدة من ذلك خرجت لها عسيلة تعلو وجهها بكثير ، ولا يقدر على تناول منها إلا بعد زوال العسل عنها من أعلاها ، وليس في جميع البلاد المشهورة بالتمر شيء من التمر يشبهه ، ولا يحاكيه ، ولا يطابقه في علوكته وطيب مذاقته » .

وهذا النوع الذي يدخر على هذا الشكل (ولا يطابقه في علوكته وطيب مذاقته) شيء ، لانشك أنه نوع (العقيوة) فيها علوكة وطيب مذاق ، ولا يبعد أيضا أن يكون نوع (بوحطم) فهو أيضا طيب ويدخر على هذا النمط الذي ذكره الإدريسي .

ويذكر لنا التجاني^(٣) أن موائد أهل قابس كانت عامرة بـ (أصناف التمر) ولم يذكر لنا أسماء هذه الأصناف .

(١) بسط الأرض ص ٧٨ .

(٢) نزعة المشتاق ص ١٠٦ .

(٣) رحلة التجاني ص ٨٧ .

وعلى الجملة فالنخيل بغابة قابس أنواع كثيرة أشهرها ما ذكرناه إلا أننا نلاحظ - مع الأسف - أن نوع (العقيوة) قد قل جدا اليوم وهو في طريق الأضمحلال ، وأنصب اعتناء المزارعين على نوع (اللمسية) لكثرة طلبها في الأسواق ولسهولة جنبها وتبكير طيها وعدم تعرضها للآفات والجوائح إذ تجذ وتباع وتوكل بسرا قبل الطيب .

ويبلغ عدد النخل الموجود اليوم بغابة قابس ما يزيد عن مائة ألف (١) .

الزيت :

لا تنتج منه قابس اليوم قدر كفايتها وإنما تعتمد على جلبه من البلدان المجاورة . أما في القديم فقد كان الزيت الناتج من غابة زيتونها يفضل عن حاجتها فتصدره للخارج ، ذكر الإدريسي أنه يوجد بغابة قابس « زيتون كثير ، ويستعمل منه زيت كثير يتجهز به إلى سائر النواحي » (٢) ويحدد شيوخ قابس الأحياء مكان غابة الزيتون القديمة بالروابي والأودية الواقعة قبل المدينة والتي تمتد مساحتها من ضواحي تبلبو نحو الجنوب الغربي والجنوب إلى شرقى كتانة ثم تستمر الغابة جنوباً إلى مسافة غير قليلة ، أى أنها كانت تغطي الأراضى ما بين قابس وجبال مطماطة وما بين هذه الجبال والبحر شرقاً .

وقد يؤيد هذا ما ذكره التحافى عن منزل (تبلبو) حيث قال (٣) : « وعليه غابة زيتون متسعة » وعن (كتانة) حيث قال (٤) : « وعامة شجرها الزيتون » هذه الغابة المتسعة كانت تنتج الزيت الكثير الذى تصنعه قابس فى (معاصرها) ثم تصدره للأسواق الخارجية ، ولكن هذه الغابة قد لحقها ما لحق غابة التوت

(١) هذه الإحصائية المروفة اليوم وتعمل دائرة المعارف الإسلامية عدد أصوله (١٣٠٠٠٠) انظر مادة قابس .

(٢) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

(٣) رحلة التجافى ص ١٧٩

(٤) نفس المصدر ص ١١٩ .

أيام الفتن والمحن أواخر الدولة الحفصية بدليل أننا لا نرى أثراً للزيتون القديم اليوم في هذه الجهة والموجود منه في أماكن محدودة حديث الغراسة حسب الظاهر من أخشابه ، ولم يبق من معاصر الزيت إلا ما بقي بحاجة الزيتون الموجود .



(شكل رقم ٥) شجر الموز بقابس

الموز :

هذا النوع من منتجات الغابة لا يزال موجوداً ومكانه في نفس غابة النخيل حيث يغرس إلى جانب النحل والأشجار المثمرة وتصدر منه قابس

كميات وافرة إلى أسواق العواصم التونسية ، وثمرته صغيرة الحجم تشبه موز مصر ، أى أقل حجماً من ثمرة موز إسبانيا ، وهو أقل حلاوة منهما ، ويجنى قبل الطيب بقطع عرجونه كاملاً ثم يضعه التجار في أماكن دافئة نظيفة حتى يصفر وحينئذ يعرض على الحرفاء .

ومن خصائص هذه الشجرة أن الواحدة منها لا تنتج إلا مرة واحدة ثم تموت بعد جند ثمرتها ولكنها تترك في مكانها من واحدة إلى أربع شجرات ، وتتطلب اتساع المكان وكثرة الماء .

الحناء :

والحناء من أشجار الغابة الموجودة وتزرع إلى جانب الأشجار الأخرى ونتاجها هو أوراقها ، تقطع خضراء ثم تجفف وتباع أوراقاً أو مطحونة دقيقتاً ليستعملها النساء كمادة من مواد الزينة ، يعجنها بالماء ثم يضمن عجنتها في يواطن أكفهن وأرجلهن وتلف فوق الأكف والأرجل بحرق تمنع سقوطها من مكانها حيث تمكث ساعات ثم يزعنها فيبقى مكانها أحمر اللون :

وكانت الأسواق التونسية عامرة بحناء قابس وتخصص تجار أسواق (العطارين) بالعواصم التونسية ببيعها حيث لا تزال معروضة إلى الآن أوراقاً جافة ودقيقتاً إلا أن دخول مواد الزينة التيسائية الجديدة من أوروبا إلى الأسواق قد قلل الإقبال على الحناء وأثر في زراعتها فقل الاعتناء بها في قابس .

السكر :

كل ما نعرف عن هذا التاج مستمد من قول البكري^(١) : « وبها قصب السكر كثير » ووصف هذه الشجرة بالكثرة يدل على أنها كانت أكثر من

بحاجيات البلد ، وإذا سلمنا هذا فيمكن أن نتكهن أيضاً بوجود معامل لصنع السكر من قصب السكر الكثير .

وعلى كل فالذى يجب ملاحظته هنا أن هذه الشجرة التي كانت موجودة بكثرة في زمن البكري (القرن الخامس) قد اختفت تماماً من قابس ولم يبق لها أثر ، ولا نستطيع التكهن بالعصر الذي فقدت فيه ولا الأسباب التي فقدت من أجلها مع أن أرض قابس بوفرة مياهاها صالحة لزراعة هذا النوع واستغلاله .

منتجات أخرى :

وإذا كان ما ذكرناه من منتجات غابة قابس هو أهم ما فيها قديماً فلا يجب أن ننسى أنواعاً أخرى من الثمار والغلال التي كانت في القديم والتي لا تزال إلى اليوم مصدرراً من مصادر ثروة قابس وازدهارها .

فن أهم منتجات غابة قابس قديماً (التين) وقد كانت مزارعه هي مزارع الزيتون حيث يخلط المزارعون بينهما حتى هذا العصر في الجنوب ، وقد اختفى التين مع الزيتون القديم ولم يبق منه إلا نزر قليل لا يفضل عن حاجة السكان ، والموجود منه اليوم يوكل طرياً ولا يدخر إلا في مندوبية مطماطة وضواحيها ومنها (الرمان) الذي اشتهرت به قابس في العهود الأخيرة ، وهو من أجود وألذ الأنواع المعروفة في الجمهورية التونسية ، ويباع في الأسواق بأعلى الأثمان . ولرمان قابس خاصية بديعة تتمثل في رقة قشرته ، وحمرة جوبه مع حلاوة مذاقه وغازارة مائه ، فلا تكاد الحبة تمضغ حتى تذوب ماء لذيذ الطعم كأنه السكر المداب .

ومن الغريب أن الاعتناء به قد قل في السنوات الأخيرة ، والبقية الباقية منه يسرع الفلاحون ببيعها قبل إبان طيها طمعاً في السبق إلى السوق وهو

أمر حط من قيمة رمان قابس كثيراً^(١) ، ومنها (الخوخ - والتفاح - والعنب)
وهي أنواع كريمة يصدر منها أهل قابس كميات لا بأس بها وتدر عليهم
مبالغ مناسبة .

* * *

وتنتج غابة قابس كثيراً من أنواع الفناء والخضر كالبطيخ ، وأنواع
(القرع) ، والطماطم ، والثوم والبصل ، والبقول الخ . تزرع كلها في
أحواض منظمة تحت الأشجار ، ونظراً لوفرة دخول هذه الأنواع يتغافل
الفلاحون هناك عن ضررها بنمو الشجرة .

(١) في سنة ١٩٥٩ ، منعت السلطة الفلاحين من جني هذه الفلة قبل يوم غرة أكتوبر
فكان ذلك أحسن عمل سلّمت به هذه الفلة من الفساد .

الفصل الثالث

وادی قابس

منابمه - فروعه - مصبه - تقسيمه

هذه الغابة الكبرى التي مرَّ وصفها في الفصل الثاني تسقى كلها من مياه (وادی قابس) ذى المنابع الطبيعية ، الغزيرة .

وقد تحدث الرّجالون القدماء عن هذا الوادى وعزارته بمجديث فيه عموض يدل على عدم خرتهم به وقلة اعتنائهم بجمع المعلومات عنه ، مما اضطرنا إلى عقد هذا الفصل الخاص به .

اكتفى اليعقوبى وابن حوقل بوصف قابس بأنها ذات عيون - أو - مياه جارية ، ووصفه اليعقوبى بأنه (واد جرار)^(١) .

وقال البكرى عن منبعه ومصه : « ومياهها سابحة مطردة يسقى بها جميع أشجارها وأصل هذا الماء من عين خرازة فى جبل بين القبلة والغرب منها يصب فى بحرها » .

وقال الإدريسى عن منبعه : « ولها واد يأتها من غدير كبير ، وعلى هذا الغدير (قصر سجة)^(٢) وبينه وبين قابس ثلاثة أميال » .

وقال التجانى : « ولها واد يسقى بساينها ومزارعها ، ويخترق فى كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها^(٣) » .

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .

(٢) انظر الحديث منه فى الباب الثالث .

(٣) رحلة التجانى ص ٨٧ والمقصود . . دور وشوارح القرى المنتشرة بداخل الغابة وهذا يشاهد اليوم فى قرية شنى حيث يمر الوادى تحت دورها وشوارعها بشكل رائع جذاب .

هذا غالب ما تحدث به القدماء عن (الوادى) ، ونحن نذكر فيما يلي تفصيلات عن منابعه وفروعه ومصبه ، وتقسيمه حسب المعلومات التى أمدنا بها العارفون من السكان .



(شكل رقم ٦) الأجراف يخترقها الوادى

ليس لوادى قابس منبع واحد ، بل له منابع كثيرة متتابعة ، بتدئ الوادى من أبعدها ثم يمر بالقية واحدا تلو الآخر فتتجمع مياهها وتنحدر كلها نحو الغابة . وقد سمى بعض هذه المابع باسم خاص وأهم البعض الآخر ، ولكنها كلها تسير الوادى المعروف باسم

(وادى السيل) الذى يبتدىء بهاته التسمية من (العين البيضاء)^(١) ، أما جزؤه الأعلى المتصل بالجبل المعروف بـ (زملة الطواهرية) فيسمى (وادى الخروبة) وابتداء من العين البيضاء اثنى هي أول المنابع الكبرى تتتالى المنابع وتتوالى من الأجراف^(٢) الكبرى المشكلة لحنايا تشبه حنايا الجبل ، وذلك سر تسميتها بالجبل فى الكتب إذ يجبل للناظر عندما يشاهدها من مجرى الوادى أنه أمام جبل كما يسميه الأوائل ، وبقي بهذا الاسم إلى الآن .

وهاته السلسة من المنابع هي التى تتكون منها مياه الوادى والمسمى منها الآن :

- ١ - العين البيضاء
- ٢ - عين زائد
- ٣ - عين سيدى هريش
- ٤ - عين الترابكة
- ٥ - عين حامد
- ٦ - عين المهشومة
- ٧ - عين سعد

والمنابع المشار إليها متباعدة تنبع من مساحات شاسعة تشمل أراضي كثيرة لا تحمل أسماء خاصة . وإنما هناك اسمان يجمعان غالب هذه المنابع هما (رؤوس العيون) و (هنشير سيدى هريش) .

(١) لعلها هي المكان الذى وصفه البكرى بأنه (عين خراة) والإدريسي بأنه (غدير كبير) ويبعد أول منبع للوادى عن البحر نحو ١٥ كم (انظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة قابس) .

(٢) أرض طينية حرفت السيول أجزاء منها فتركت بها منحنيات وأخاديد .

ومن هذه العيون ما لا يزال جاريا ، ومنها ما سدم ، ولكن لمجموعها مع غير المسمى منها اسم عام ، هو (رؤوس العيون) .



(شكل رقم ٧) رأس الوادى وبظهر النخل المعبر عنه بالهرشة

وهذه المنابع منها ما ينحدر ماؤه إلى مجرى الوادى الجوفى المعروف بـ (وادى ابن محمد) ومنه تسقى غابة (شنى) و (المنزل) وينحدر البعض الآخر إلى مجرى الوادى القبلى المعروف بـ (السيل) وهو منخفض المجرى عن الوادى الأول بما يتراوح بين ٢ - ٤ أمتار ، وقد ينخفض أكثر من هذه المساحة ، وبما أن الواديين متوازيان فإذا ما طغى الماء فى موسم

الأمطار المنحدرة ماء الأول للثاني فاختلطتا ، وقد تنبه لوجود هذين الفرعين ابن سعيد في القرن السابع الهجرى فقال عنهما (١) : « وينزل لها نهران من الجبل الذى فى جنوبها يخرقان غوطتها وتتوزع جدا ولهما عليها » .

وهذان الفرعان لوادى قابس هما الفرعان الأصليون خارج الغابة ، حتى إذا وصلا للغابة تفرع كل منهما إلى عدة فروع وسواقى تخرق البساتين فتسقيها والمياه الفاصلة عن السقى تنحدر كلها إلى الفرع القبلى ، وهو وادى السيل الذى يمر الآن بين الغابة والمدينة ويقطعه الطريق المعبود رقم (١) بواسطة جسر صغير فى مدخل المدينة ويستمر الوادى مشرقا حتى يصب فى البحر شرقى الغابة بعد مروره من جسر السكة الحديدية ، ومياه الوادى كانت مهملة يسقى منها الفلاحون بساتينهم ومزارعهم ما شاءوا والبقية تنحدر إلى البحر ثم لما كثرت البساتين وقع تقسيمها بطريقة حكيمة فبنيت لها سدود تقسمها إلى فروع تنحدر إليها المياه بكميات متساوية ومياه هذه الفروع نظار يقومون على تقسيمها بين البساتين بالساعات الزمنية وهؤلاء النظار معرفة تامة بالساعات التى يستحقها كل بستان من جهتهم .

ويمكن أن يشاهد الإنسان نمطا لهذه السدود المقسمة للمياه فى المكان المسمى (الرحا) الذى سأتى ذكره فى الفصل الآتى .

ويزعم بعض أهل قابس أن أول من اشتغل بتقسيم مياه وادى قابس هو ابن الشباط التوزرى فى القرن السابع الهجرى الذى اشتهر عند أهل الجريد بتقسيم مياه توزر (٢) ، ولكن هذا الزعم لا نجد له أى مستند من

(١) بسط الأرض ص ٧٨ .

(٢) ابن الشباط هو (أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي بن عمر المعروف بالمصرى - من مدينة توزر من عائلة نصرانية اختارت البقاء فى وطنها واعتناق الإسلام أثر الفتح الإسلامى وكان جده محمد بن علي انتقل إلى القاهرة واستوطنها ومات فيها وولد فيها ابنه =

التاريخ ولذلك نميل إلى تصديق ما يقوله فريق آخر من أهل قابس إن أول من قام بتقسيم مياه الوادى هو رجل من مدينة (قابس) يعرف باسم

= على الذى قرأ فيها ثم رجع إلى بلده الأصلى - توزر لابساً الزي المصرى متكلماً باللهجة المصرية فلقبه أهل توزر بالمصرى .

ولد أبو عبد الله فى ٢٠ شعبان ٦١٨ هـ بقسنطينة وقد كان أبوه سافر لها فى تجارة وتزوج بها وفيها ولد صاحب الترجمة ورجع به والده إلى توزر وهو فى الرابعة من عمره فحفظ القرآن وقرأ النحو والفقه والأصول والأدب بجامع القصر - المعروف الآن - بجامع بلد الحضر - على والده وغيره من علماء توزر - وتولى القضاء بتوزر ووفد إلى تونس ودرس بجامع الزيتونة ثم عاد إلى بلده .

كان آية فى اللكاء ومعرفة الأدب واللغة ومن تأليفه (سبط الهدى) وتخصيس القصيدة الشقراطية التى أولها :

الحمد لله منا باعث الرسل * هدى بأحمد منا أحمد السبل
وأهل الجريد يتفوقون على أنه هو المبتكر لطريقة توزيع المياه على واحات النخيل بتوزر ونقطة وغيرهما ، ونحن مع إجلالنا لهذا العالم الكبير لا نشاطرهم فى هذا الرأى بل نعتقد أن قسمة مياه الأودية على واحات بلاد الجريد بل وكل الواحات الجنوبية أمر قديم جداً أبان طريقته وأسلوبه أبو عبيد البكرى فى مسالكة قبل وجود ابن الشباط بقرنين على الأقل ، لكن الأمر الذى نجزئه هو أن ابن الشباط ربما باشر - وهو على القضاء - إعادة توزيع المياه فى حين كانت الواحات قد اتسع نطاق غراستها واحتيج إلى القسمة مرة أخرى أو غير ذلك من الأسباب التى نجهلها .

عن كتاب (صلور الأفارقة لأستاذنا حسن حسنى عبد الوهاب ترجمة ابن الشباط - مخطوط - بتصرف) .

* * *

ويشير أستاذنا بقوله : (أبان طريقته وأسلوبه أبو عبيد البكرى فى مسالكة) إلى ما ذكره البكرى فى كتابه (المسالك والممالك) الذى ألفه فى القرن الخامس عند الحديث عن مدينة توزر حيث قال فى ص ٤٨ . « شرها من ثلاثة أنهار تخرج من رمال كالدرك رقة وبياضا . . . وإنما تنقسم هذه الثلاثة أنهار بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى وادى الجمال يكون قعر النهر هناك نحو مائتى ذراع ، ثم ينقسم كل نهر من هذه الأنهار الثلاثة على ستة جداول وتنشعب من تلك الجداول سواقي لا تحصى كثيرة تجرى فى قنوات مبلية بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئاً ، كل ساقية سعة شبرين فى ارتفاع فتر يلزم كل من يسقى منها أربعة أقداس مثقال فى العام وبحسب ذلك فى الأكثر والأقل ، وهو أن يمد الذى تكون له دورة السقى فى قدس فى أسعله ثقبية بمقدار ما يسدها وتر قوس النداف فيملؤه بالماء ويملغه ويسقى حائله أو يستانه من تلك الجداول حتى ينفد ماء القدس ثم يملؤه ثانياً وهم قد علموا أن سقى اليوم الكامل هو مائة وتسعون تمسماً » .

(شمام) لأن هذا الاسم لا يزال موجودا في قابس تحمله عائلة من سكانها ،
والظاهر أن التقسيم وقع منذ اتسعت رقعة الغابة وأن التقسيم الذي قام به
(شمام) إنما هو مراجعة وإصلاح للتقسيم الأول أو التقسيمات الأولى ، إذ أن
التقسيم الأول للمياه وقع في العهد الروماني بدليل ما صرح به المؤرخ الروماني
(بلين Pline) من أن ماء العين (مقسم تقسيما محكما بين البساتين
بالساعات)^(١) وأن التقسيم الأخير وقع حين استقرت الحالة نوعا ،
وتحصلت غابة قابس من الشدائد التي عانتها .

ويلاحظ أن (شمام) هذا هو أول من حفر العيون في الرمن الأخير
وأوصلها ببعضها وسرب ماءها للغابة وفتق الفتوق داخل الجبل وبنى السدود
الأولى (الطوابي)

وماء الوادي ثقيل غير طيب لا يستسيغه غير أهلها ، وقد كان شرب
السكان في القديم منه ، أما الآن فلا يشربه غير سكان الغابة ، أما المدينة
فتسقى من آبار جديدة حفرتها الحكومة بجهة سيدي أبي لبابة ومدت منها
قنوات إلى الدور والشوارع ، وماؤها أطيب من ماء الوادي ، على أن مدينة
قابس القديمة أو جزءا منها على الأصح كان يشرب من عين سلام وعين
الأمير^(٢) ، ولكننا نتكهن أن هذين النبعين كان لا يستعملهما غير السكان
القريبيين منهما — كما سنوضح ذلك في الباب الثالث .

(١) Pline. v 3. p. 194—195 .

(٢) سيأتي الحديث عنهما في الباب الثالث .

الفصل الرابع

المنتزهات

ساحة عنبر - ساحة الرحا - الشرشارة - منتزهات أخرى

في غابة قابس أماكن للزهوة تنعش النفس وتأخذ باللب يقل نظيرها في واحة أخرى ، وإن كانت الغابة كلها منتزها رائعا ، فحيثما حللت في جهة من جهاتها اكتنفتك البساتين الخضراء والأشجار المشبكة والنخل الباسق والجداول المتعرجة .

لأن هناك أماكن خاصة اشتهرت بجمالها الفاتن ومناظرها الرائعة يقصدها الناس في أوقات فراغهم ليجدوا فيها الاطمئنان النفسى والهدوء الروحى .

فن بين المنتزهات التي مجدها القدماء وتركوا لنا فيها وصفا رائعا وشعرا بديعا :

سأمة عنبر :

فأين توجد الآن هذه الساحة ؟

هذا سؤال ألقيته على نفسى وواجهت به سكان قابس عدة مرات ورجعت من أجله إلى الكتب القديمة فلم أظفر بطائل حتى عثرت أخيراً على مكان قابس الإسلامية وعلى مكان المصلى القديم وبذلك تمكنت من تحديد مكان هذه الساحة كما سيأتى بيان ذلك .

حدد التجانى مكان هذه الساحة في رحلته فقال(١) : « وأكثر جناتها

فما بين المدينة والبحر ، وبذلك الجهة الساحة المعروفة بساحة عنبر « أى أن مكانها فى البساتين الموجودة بين المدينة والبحر ، ومعنى ذلك أنها تقع فى الشمال الشرقى من المدينة ، وبهذه الجهة الآن بباءات تقوم من حلقها البساتين الشرقية من الغابة التى تمتد وراء (طهرة قراوش)^(١) بجارة وفى هذه البساتين لا يوجد اليوم مكان بهذا الاسم وأهل قابس يعرفون هذا الاسم ويطلقون عليه اسم (سانية عنبر) ولكن مكانها بعيد عن الجهة التى حددها التجانى بل إنه يقع فى الجهة المقابلة أى الغربية فهذه السانية تقع فى البساتين الموجودة غربى (منزل قابس) وإذا صح تحديدنا لمكان المدينة الإسلامية القديم الذى سيأتى فى الباب الثالث ، وهو صحيح ، فإن (سانية عنبر) المعروفة الآن تقع فى الجهة الغربية من المدينة وهى نفس (ساحة عنبر) القديمة ، فكيف يمكن الجمع بين المكان الذى حدده التجانى والمكان الذى يعرفه أهل قابس اليوم ويؤازرهم أبو الفضل التجانى فى قضيته الآتية ؟

الواقع أنه لا يمكن الجمع بينهما مهما جلبنا من افتراضات وتعليقات فتعين حينئذ خطأ التجانى فى تعيينه لمكان الساحة ، أو يفترض حدوث نقض فى عبارته أو خطأ أو سهو من الناسخ غير مكان الساحة من مكان إلى آخر . ونحن نؤكد تحديد مكان ساحة عنبر غربى المنزل للأسباب الآتية :

أولاً — لأن المكان الغربى هو الوحيد المعروف اليوم بهذا الاسم عند سكان قابس (وأهل مكة أدرى بشعابها) كما يقول المثل .

وثانياً — لأن أجمل منتزهات الغابة موحودة فى هذه الجهة .

وثالثاً — لانطباق تحديد أبى الفضل التجانى^(٢) لمكان هذا المنتزة فى

(١) انظر الحديث عن هذا المكان فى الباب الثالث .

(٢) أبو الفضل محمد بن أبى الحسن على التجانى ابن عم عبد الله التجانى صاحب الرحلة

(انظر ترجمته فى الباب السادس) .

البيت التاسع من القصيدة الآتية على هذه الجهة وأبو الفضل قد عرف هذه الساحة وقضى فيها نزهاة جميلة .

وعلى كل فساحة عنبر هذه كانت من أجمل منتزهات واحة قابس ، وقد خلد ذكرها أبو الفضل التجاني في القصيد الآتي والذي نقله عبد الله التجاني في رحلته (١) ، ومنه نقل الوزير في الحلال السندسية (٢) ، قال أبو الفضل :

اذكر عشيتنا ب (ساحة عنبر)	والجو يتحفنا بنكهة عنبر
حيث النخيل عرائس بسط الحيا	بسطا لها من أخضر أو أصفر
والشمس تستحي فتستر وجهها	عنا بستر للعروس محبر
والنور (٣) بين مفضض ومدهب	والنور (٤) بين مدرهم ومدنر
والنهر والغدر ادّرعن تحصنا	إذ صفت الغابات صف معسكر
والبحر يرمقنا بمقلة أزرق	والبرّ يرمقنا بمقلة أعفر
في جنة لو نلت من خلد بها	قصدي بلغت إلى العيم الأكبر
ومحل أنس قلت (٤) بين رياضه	برياضة قادت لأبهى منظر
ملنا بمنعرج المصلى نحوه	حذر الرقيب وليلة لم تحذر
وجرى لنا فيه حديث كله	لطف حضرنا منه أطيّب محضر
نجرى أحاديث الصبابة والصبأ	بأرق من مسرى الصبا المتعطر
وندير كاسات الخمة بيننا	فتميل منها بالحلال المسكر
حتى إذا ولى العشيّ وآن أن	عمتاز عن نظر المراد الأنضر
قننا نجر من العفاف سوابغا	لما نغيرها بصبغة منكر
يوم يقابس جنة الدنيا وفي	قلبي لوشك البين حرقه مسعر

(١) ص ١٤٨ .

(٢) ص ١٤٩ .

(٣) النور الأولى بالصم وهي الضوء والثانية بالفتح وهي الأزهار .

(٤) بكسر القاف ، أي قصيت القيلولة .

فقول أنى الفضل (ملنا بمنعرج المصلى نحوه) يحدد لنا مكان الساحة ، فالمصلى الذى يذكره أبو الفضل كان شرقى سانية عنبر يفصل بينهما وادى السيل قرب خزانة الماء فى المساحة الممتدة بين الوادى وطريق مطاطة حيث توجد اليوم بعض منازل السكنى ، ويقابل المصلى من الشمال ضريح سيدى المشرقى ، ويظهر أن المقصود من المنعرج هو انحناء الوادى عند ملتقى وادى بوشاعة بوادى السيل ، ومن هذا يتبين أن ساحة عنبر هى المعروفة اليوم بسانية عنبر فى القسم الجنوبى الغربى من الغابة .

ساحة الرها :

تقع هذه الساحة فى آخر البساتين الغربية من الغابة ، على رمية مهم من قرية (المعايطه) المجاورة لقرية (شنى) وكلاهما من قرى الغابة كما سيأتى .

والساحة عبارة عن قطعة أرض فسيحة متساوية الأضلاع تقريبا تغمرها مستنقعات من الماء وتغطى جوانبها الأعشاب والحشائش الخضراء ، وفى وسط الساحة نخلات يقع ظلها على سد صغير لتقسيم مياه الوادى إلى فروع وحول هذا مكان مرتفع قليلا عن غدر الماء المحيطة به مفروش بالصخور الضخمة كأنما وضعت قصدا لجلوس المرتادين لذلك المكان . وتحيط بالساحة من الخارج بساتين الأشجار والنخيل بحيث يجد المتزهر منظرا من أمتع ما رآته العين ، ساحة متسعة تغمرها المياه الساكنة والأعشاب الخضراء ومجلس ممهد يظله النخل الباسق ، وتحيط به البساتين الخضراء ووادى جار بين يديك متدفق المياه تأتى طاغية مسرعة حتى إذا وصلت أمام المجلس صدمها سد فتفرعت إلى جداول تسمع لها خريرا جذابا .

هذه هى ساحة الرها التى تعد من أجمل منزهات الغابة اليوم^(١) وهى

(١) فى بعض أوقات من فصل الصيف تجف مياهها فيمبض بها الماء ولكن إلى حين .

١ قرية الشبه بساحة عمر القديمة حسما وصفها أبو الفصّل التحاني وجارتها
في المكان .



(شكل رقم ٨) أحد حوائط الرحا

السرشارة .

١ وفي هذه الجهة أى الجهة العربية وعلى مترربة من ساحة الرحا يوجد

هذا الشلال (الشرشارة) الذى زرته فرأيت ألدع ما رأيت عيني من هذا النوع ، تسمع صوت تدفق مياهه على مسافة منه حتى إذا قصدته وقطعت طرقات متعرجة بين البساتين تصبى حيا وتفسح حيا آحر ، ألفت شمروحا فضيا من الماء يتصحر من سورستان مرتفع الأرض ويهوى إلى أرض منخفضة عن منبعه بنحو ستة أمتار فى قوة وحابة ثم يجرح من مصبه إلى جدول رقراق هادئ يحتفى بين أشجار البساتين المقللة . ومن المؤسف حقا أن يكون هذا الشلال فى مكان صديق لا توجد حواله ساحات بلجوس المتزهين الذين يكتهمون بالتمرح عايه واقفين ولو عمدت السلطة هناك



(شكل رقم ٩) الشرشارة كما يبدو عن بعد

لاقتطاع أجزاء من البساتين حوله ومهدتها وجعلت فيها مقاعد للاستراحة لأصبح المكان من أجمل الأماكن السياحية الرائعة (١) .

* ~ *

وفي الغابة منتزهات أخرى رائعة يؤمها الأجانب بكثرة من أهمها قرية (شنتي) التي تحتلط منازلها ببساتين النخيل العملاق ويلتوى حولها واد من الماء الدفاق يدخل لها من الجهة الغربية فيختفي تحت الدور والدكاكين الواقعة بالحد القبلي من القرية ثم يخرج من تحتها كما يخرج الثعبان من وجاره المدفون تحت الأرض فيتدفق في جدول نظيف جميل ويلتوى عند وصوله لحد القرية الشرقي نحو الشمال وعلى مقربة من الحد الشمالي الشرقي من القرية ينساب داخل الغابة فيختفي بين أشجارها .

وهذا المنظر الخلاب لهذا المكان جعل قرية (شنتي) من الأماكن التي يرتادها السياح الأحانب بكثرة ، وقد اتجهت أعمال بلدية المكان الآن للاعتناء بهذه القرية ونظافتها ونظام دورها لتجعل منها قرية تناسب جمال موقعها الطبيعي . كما عزم الديوان القومي للسياحة على بناء نزل مناسب في مكان مشرف على القرية وبساتينها وسيكون لهذا العمل أثر محمود في اقتصاديات البلاد ؛

وهناك منتزهات أخرى بالغابة وضواحيها ك رأس الوادي ، والأجراف الممتدة على جوانب وادي السيل خارج الغابة لاتقل روعة عن المنتزهات السالفة .

(١) تدأب السلطات الآن لتوسيع هذه المترهات وتوسيع الطرقات المفضية إليها .

الفصل الخامس

القرى داخل الغابة

قرى صغيرة - قرى كبيرة - شنى - بوشمة - جارة القديمة

سبق أن تعرضنا لكلمة التجاني واصفاً الوادى بأنه : (يخرق في كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها) وقلنا في التعليق على هذه الكلمة : إن المقصود هو دور وشوارع القرى المنتشرة بداخل الغابة .

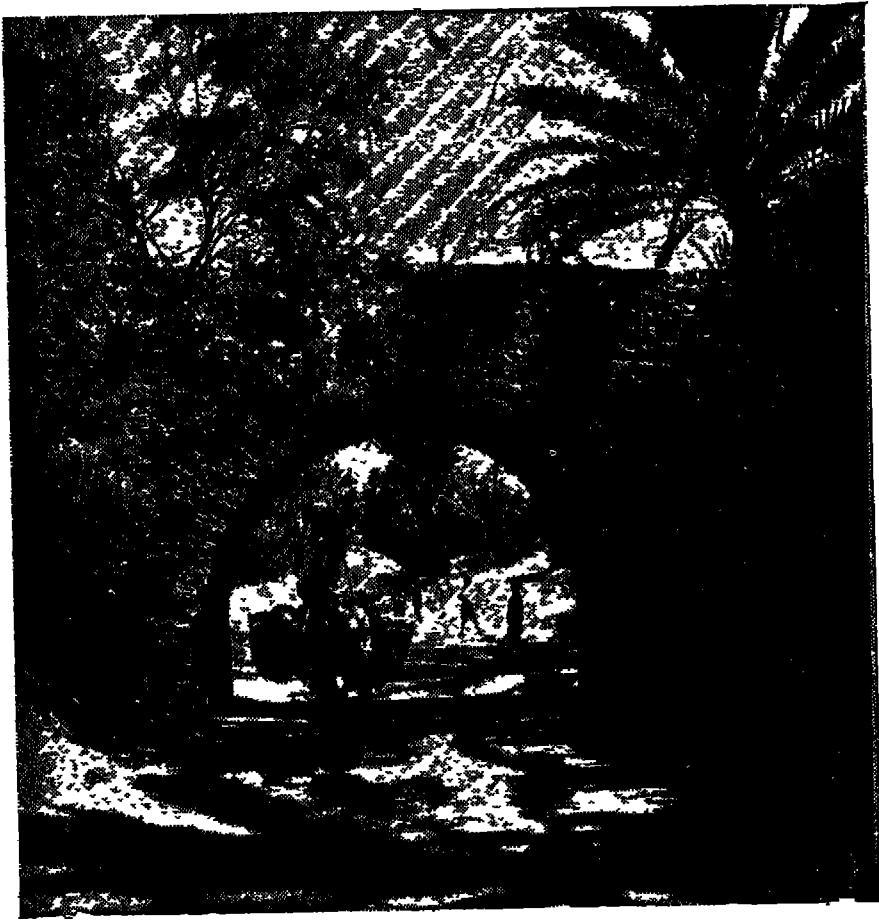
ومعنى هذا أن منازل السكّنى هذه قد وجدت في عصور قديمة ، وإن لم يتعرض لذكرها الرحالون السابقون للتجاني الذين اطلعنا على كتبهم ، وقد تكون هذه المنازل موجودة من زمان بعيد إذ أن اتساع الغابة وبعد مزارع التوت والزيتون بالخصوص يستوجب وجود سكان يقومون عليها ويحمونها .

على أننا لا نشك في أنها كانت مُجرّدَ منازل بسيطة متناثرة متفرقة هنا وهناك لا يسكنها في الغالب إلا العمال الزراعيون ، أما أصحاب الأرض فركزهم المدينة وقد ينتقلون أحياناً للغابة ، ولم تتجمع هذه المنازل فتتكون منها قرى مستقلة عن المدينة قائمة بنفسها إلا في عهود قريبة بل نكاد نجزم أن عمران قرى الغابة وجعلها مقرأً للسكّنى الدائمة لم يتحقق إلا في العصر التركي حين استقر الأمن نوعاً ما في البلاد ، وهذه القرى الآهلة بالسكان الآن داخل الغابة منتشرة في جميع جهاتها من الشرق إلى الغرب لا يكاد يتهدى إليها الإنسان إلا أن تفضى به الطرق الملتوية بين البساتين إليها فيجد نفسه فجأة أمام دور للسكّنى قليلة أو كثيرة بناؤها على النمط القديم ، وقل أن نجد بينها منزلاً حسن الهندسة مقبول الهيئة ، وبها بعض الدكاكين التجارية والمقاهى ، وتصغر هذه القرى وتكبر حسب عدد سكانها وأكثرها قرى صغيرة عدا شنى وبوشمة وجارة القديمة فإنها قرى كبيرة غاصة بالسكان ، ومن بين هذه

القرى الصغيرة الموجودة اليوم : النحال - والمعابطة - والجواولة - وأولاد
الحاج في الجهة الغربية ، وسيدى عبد السلام وسيدى الحربى وسيدى القيطونى
بالجهة الشرقية . وكانت هناك قرية قديمة في الغابة تسمى (بو عبد الله)
وأغلب سكان هذه القرى من الفلاحين . أما القرى الكبيرة فثلاثة :

١ - شنى :

تقع - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - في أحر الغابة الغربية على بعد نحو ٤ كم



[[شكل رقم ١٠]] قنطرة شنى تقع قرب البلدة وتسمى (قوس شالة ابن قريمة)

من مدينة قاس وهي من المنزهات الجميلة التي يؤمها السواحون ذات دور حسنة في جملتها ودكاكين للتجارة متنوعة ومقاه عامرة بالرواد وبها مدرسة كبيرة للتعليم ويصل إليها طريق معبد للسيارات يتفرع عن الطريق رقم (١) شمالي الغابة القديمة ويساير الغابة من الشمال حتى يدخل القرية من خلال البساتين الغربية .

وفي آخر القرية من الجنوب الغربي آثار دار ضخمة حدرامها مهلمة وبعض عرصها قائمة كانت محل سكنى المرحوم علي بن خليفة النفاقي عامل نفات والاعراض الذي كان أول من عارض انتصاب الحماية الفرنسية على تونس وثار في وجه الناي والاحتلال ونرح أمام القوة إلى طرابلس حيث توفي هناك .

ويلاصق هذه الدار من الغرب مسجد بُني على الشكل المعروف في بناء الزوايا قبة صغيرة عادية بداخلها مقبرة مسورة من الخارج بسور مكون من جدار قصير وحدود هذا المسجد بقايا من السور القائمة وعلى باب القبة كتابة منعها غلاف الحجر الذي فوقها من قراءتها إلا أننا استطعنا أن نبين منها (. . . بن الفرجاني بن عمر سنة . .) والأرقام الموجودة لتر لفظة (ستة) لم نبين هل هي (١١٤٤) ؟ أو (١٢٤٤) ؟ ويطلق أهل شني على هذا المكان اسم (زاوية سيدي الفرجاني) ويزعمون أن صاحب هذه الزاوية كان من العصاة الثائرين على (الباي) وهرب إلى ذلك المكان فسكنه وفعل الخير حتى مات ، ولما سمعت هذه الأسطورة كدت أتوهم أن لها أصلا وأن صاحب الزاوية قد يكون (محمد بن شكر) الذي تار على (محمد باي بن مراد ابن جمودة باشا المرادي) وكان ابن شكر صهره وخليفته فأعلن العصيان (واستعان بالجزائريين فأمدوه بجيش نزل قرب الكاف سنة ١٢٠٥ هـ وخرج إليهم محمد باي في عساكره فهزموه واستولوا على دحاثره فكر الباي راجعاً إلى تونس وتعباً للقتال وما كانت إلا أيام حتى هاجمه الجزائريون صحبة ابن

شكر وخيموا (بالملاسين) وأخذوا يشنون الغارة على أحواز العاصمة فأيقن محمد بالهزيمة وفر إلى داخل القطر وتردد بين المدن التونسية إلى أن ساعفه الحظ فجمع جيشاً قاتل به ابن شكر وحزبه ، وهزمهم حذو القيروان سنة ١١٠٦ هـ ، ونجا محمد بن شكر مغلولاً إلى مدينة قابس وبها مات (١) .

قلت : كدت أتوهم أن يكون (محمد بن شكر) أو أحد أبنائه هو صاحب الزاوية ما دام التاريخ لم يتعرض لثائرا اسمه (الفرجاني) ولكني لم أجد موثدا تاريخيا أصحح به هذا التوهم ، خصوصا وأن الاسمين لا شبه بينهما

٢ - بوشمة :

قرية حديثة تقع على نحو ٤ كم شمال قابس على الطريق رقم (١) وغالب دورها حديث البناء ، وبها مدرسة ابتدائية وبعض دكاكين التجارة وموقعها مرتفع قليلا يصعد إليها الطريق رقم (١) من الشمال حتى إذا بلغ طرف القرية الشمالي ظهرت غابة قابس أمام الناظر في منبسط منخفض كأنها بحيرة خضراء .

وكانت بوشمة إلى وقت قريب مفصولة عن غابة قابس بأرض سبخة وفي الأعوام الأخيرة عمرت تلك الأرض وأصبحت بساتين غناء اتصلت بغابة قابس من الجهة الشرقية للطريق رقم (١) وامتدت من جهته الغربية إلى قرب الطريق الرابط بين قابس والحامة .

وقرية بوشمة هي الوحيدة من قرى الغابة التي تقع في طرف البساتين من الخارج .

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١٤٤ .

٣ - جارة القرعة :

وتسمى أيضاً (البلد) و (جارة الصغيرة) (و جارة الدخانية) وقد خدع بعضهم بهذا الاسم (البلد) بالإضافة إلى هندسة بنائها وإحاطة مجرى الماء بغالب جهاتها ، فظن أنها (مدينة قابس القديمة) . . . وهو وهم كما سيأتي .

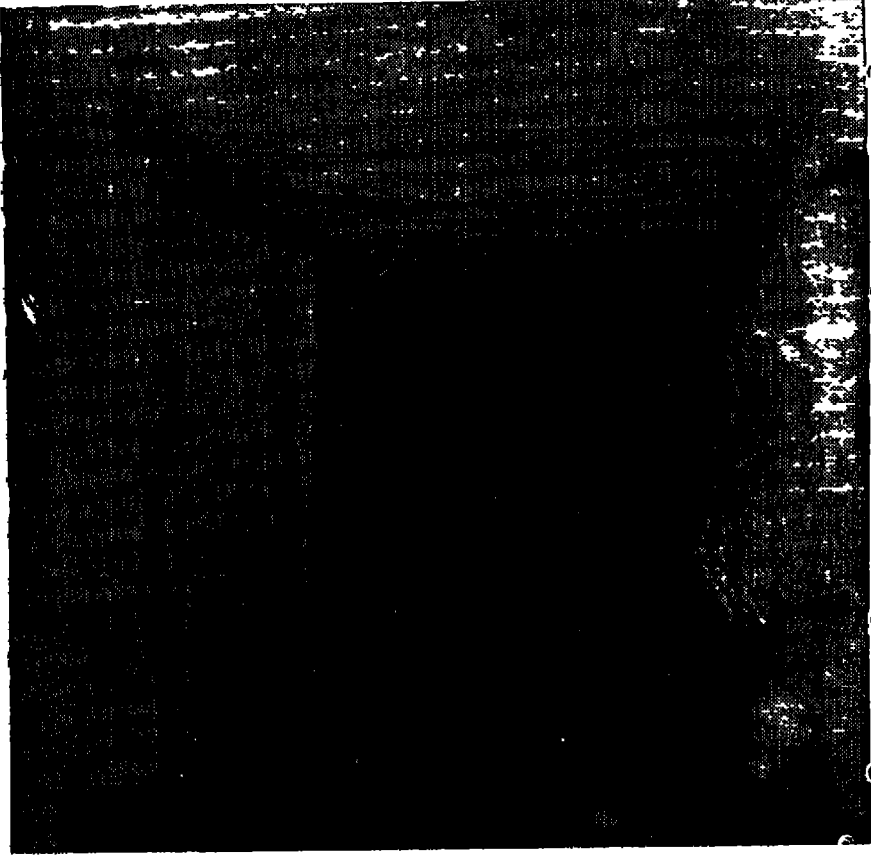
وموضع هذه القرية داخل البساتين شمالى جهة المدينة المسماة (بالقصر) على مقربة من جسر الطريق رقم (١) الموجود فى مدخل المدينة .

وأغلب منازلها قديم البناء منهار الجدران ويحيط بجزء من جهتها الغربية وكامل جهتها الشمالية وغالب جهتها الشرقية جداول من جداول الوادى يحسبه الناظر لأول وهلة خندقا يحصن البلد لولا ضيق مساحته وضآلة عمقه ، ولبناءاتها شكل خاص وهندسة خاصة لا توجد فى بقية القرى فالجدران مقامة من الأسفل بالأحجار الأثرية المنحوتة ، يظهر أنها منقولة من مكان آخر وربما من سور مدينة قابس القديم الذى اضمحل أثره الآن ، وتميز الدور بانخفاض سقفاتها ويوجد طوابق أولى فوقها يجلب لها النور والتهوية بواسطة نوافذ صغيرة ثم إن غالب شوارعها مسقوفة فهى أشبه بالدهاليز ملتوية تفضى إلى بعضها بحيث تستطيع أن تحترق غالب شوارع البلد ولا ترى نور الشمس ولا يستطيع المار فيها ليلا أن يتميز شيئا إلا إذا كان مصحوبا بفانوس ومداخل الدور تقع فى هذه الدهاليز .

والظاهر أن هذه القرية عمرت أواخر الدولة الحفصية أو أوائل العهد التركى وأن والى قابس قد اختارها للحكم والسكنى بلجأها ولتحصنها بالغابة وجاورتها للمدينة وأرباضها .

وفى داخل القرية من جهتها الغربية القبلىة يوجد (جامع سيدى إدريس)

الذى يزعم أهل قانس أن تاريخ تأسيسه يرجع إلى نحو أربعائة سنة ،
وقد عثرنا فيه على كتابات لم نستطع قراءتها لكثافة طبقة الجير الملون
فوقها ، وبصحن الجامع مزولة رسم عليها تاريخ إنشائها وهو عام ١٢٠٨ هـ .
ويجانب الجامع منزل ذو طابق علوى فوق (ساباطين) يقول السكان
إنه (دار الوالى) ويجوار هذه الدار من الجهة الشرقية دار أخرى يطلق
عليها السكان اسم (الحبس) ويقولون إنها كانت سجنا يسجن به الوالى



(شكل رقم ١١) أحد دهاليز جارة القديمة

المذنبين ويقابل هذا السجس (حمام) موقف من طرف أهل البلد على زاوية (سيدى على النورى الصفاقسى) (١) .

وبالقرية أيضاً (بيعة يهودية) قديمة تقع فى الجزء الشرقى من القرية يزعم يهود المكان أنها كانت مرارا مقدسا ليهود قابس ، ولها موعد سنوى يجتمعون فيه فى احتفال عظيم ، وقد انتهت هذه العادة بعد الحماية الفرنسية ، ويؤكد (قيّم) هذه البيعة أنها أقدم وجودا من البيعة اليهودية بـ (المنزل) .

وفى هذه السنة (١٩٥٩) التفتت السلطة المحلية إلى هذه القرية المتداعية المنازل ونحشيت الخطر على سكانها الكثيرين فجمعت العمال وشرعت فى تهديم المنازل المنهارة وتوسيع الطرقات الضيقة ونقل السكان إلى منازل أخرى واحتفظت بالأحجار والسوارى الأثرية فى مكان منعزل .

(١) ولد بصفاقس سنة ١٠٥٣ هـ وانتقل فى شبابه إلى تونس العاصمة ثم ارتحل إلى مصر فى طلب العلم ورجع إلى بلده صفاقس بعد ما ملأ وطابه وحلس للتدريس فى مدرسته فانتفع به خلق كثير حتى توفى فى ربيع الأول سنة ١١١٨ هـ وقبره معروف بصفاقس وترك من المؤلفات :

- حيث النفع فى القراءات السبع .
- تنبيه العالين ، فى تجويد كلام رب العالمين .
- منقل الرحلة ، فى معرفة الأوقات والقبلة .
- عقيدة فى التوحيد .
- مقدمة فى فوائد فقهية ودينية .
- رسالة فى تحريم الدخان .
- معين السائلين ، فى الأدعية المأثورة .

الفصل السادس

أحداث تاريخية

الغابة حصن قابس الحصين - قطع أشجار الغابة وسيلة الغزاة لاحتلال المدينة والانتقام من أهلها

لم نطلع في كتب التاريخ التي بين أيدينا على واحة من واحات إفريقية تحملت ما تحملته (واحة قابس) من إفساد وتخريب في عصور متتابعة ، فقد كانت عدة مرات معرضة للعبث والتخريب وقطع الأشجار وإفساد الزروع والغروس من طرف الغزاة ، ورغم ذلك فقد بقيت صامدة على كسر العصور كلما خربتها يد الإفساد عادت للحياة من جديد ، فلا تكاد الحرب تضع أوزارها حتى تمتد سواعد أهلها للعمل من جديد على إحيائها وغرسها وتنظيمها وسرعان ما ترجع واحة خضراء ساحرة الشباب والجمال . نحن لانعرف عن أحداثها القديمة شيئا حتى زحفة الهلاليين الذين خربوا كل عمران جاء في طريقهم وأتلفت حيواناتهم الكثيرة المزروعات والمغروسات ، ومن الغريب أن واحة قابس قد سلمت أو كادت من إفسادهم بدليل بقاء أشجار التوت والزيتون إلى ما بعد رحلتهم واكتساحهم لإفريقية ، فنحدث الرحالون عن كثرتها ، حتى القرن السادس الهجري . تقول دائرة المعارف الإسلامية : والظاهر أن الزحفة الهلالية لم تجرد قابس أضرارا فادحة كبقية القطر التونسي^(١) .

نعم لأنهم لم يحدثوا بها أضرارا فادحة ولكنهم - بلا شك - قد أحدثوا بها أضرارا ليست بفادحة إذ من المعقول أن حيواناتهم دخلت غابات التوت والزيتون بالخصوص وأنها أفسدت نصيباً منها كما وقع ذلك

(١) انظر مادة : قابس .

في عموم البلاد الإفريقية ، ويقص سكان الجنوب اليوم في أسطورة الهلاليين مثالا لإطلاق حيواناتهم على المغروسات فتحطمها وتفسدها فيزعمون أن أحد أولاد الأمير حسن بن سرحان أطلق إبله في بستان لأحد السكان البربر فأفسدت أشجاره ولما جاءه صاحب البستان يعاتبه على فعلته أجابه بقوله :

الملك لقريش وقريش وجدنا ٥

ثلثك زرب عليه وحصنه .

والثلثين نخل طوال الذرى يأكلونها ٥

أى أن الملك لقريش ، وقريش جد العرب ، وصاحب البستان ما هو إلا أجير (خماس) والأجير عندهم يأخذ ثلث المغروسات ، فما عليه إذن إلا أن يحصن ثلث البستان ويترك الثلثين الباقيين معاشاً للإبل .

هكذا كان الهلاليون لا يتورعون عن إفساد ما جاء في طريقهم من أشجار وزروع ، وإذا كانت قابس قد نجت من التخريب في زحفهم فالظاهر أن ذلك راجع إلى مسالمتها لهم وإذعانها لسيطرتهم وإلى قربها من الصحراء حيث تكثر مراعى الإبل والغنم ، والظاهر أن الإبل - وهي أكثر الحيوانات إفساداً للأشجار الكبيرة - قد دفعوا بها إلى السهول والمروج الغربية التي تغطيها النباتات المغذية للإبل . ويزعم عرب الجنوب أن إبل الهلاليين كانت تتراد سهول (أم الشياه)^(١) وأن (دياب بن غانم)^(٢) كان يحمها وكان يزل في ربوة تسمى إلى اليوم (مرقب دياب)^(٣) . نعم إن هذه أسطورة لا يعتمد عليها التاريخ ولكن مع ذلك يمكن أن يكون لها أصل صحيح وأن نستنتج منها ما يؤيد بعض الأحداث التاريخية :

(١) جبل بالظاهر يقع في منتصف الطريق بين دوز وقابس من جهة وبين دور ومطاطة

من جهة ثانية .

(٢) من فرسان قبيلة رغبة الهلالية .

(٣) ربوة صغيرة مرتفعة تقع غربي جبل (أم الشياه) وجدت بها آثار نباتات قديمة

رومانية المهده مدفونة تحت الرمال .

وإذا نجت غابة قابس من إفساد الهلاليين فإنها لم تنج من التخريب الكامل من طرف غزاة آخرين جاعوا لقابس بعد ذلك ، فقد كانت الغابة حصناً من الحصون الحامية للمدينة تعرض سبيل الغزاة وتطيل مقاومة السكان لهم بفضل كثافة أشجارها ويفضل ما تمدهم به من طعام وماء ، فالمدينة محصنة بالغابة من ثلاث جهات تقريباً : الشرق والشمال والغرب ، وهي كثيفة الأشجار ملتوية الطرق الضيقة بحيث لا يهتدى لمسالكها إلا أهلها ولا يمكن أن تسلكها الخيول والإبل ، وإذا سلكتها تعرضت للمخق إذ في إمكان المدافعين أن يقضوا عليها من وراء نخائل النخيل والأشجار بلون أن تراهم أو تنال منهم .

وهذه الأهمية الدفاعية للغابة هي التي جعلتها - كما قلنا سابقاً - معرضة للانتقام الغزاة ، وإذا كان التاريخ لم يذكر لنا من حوادث تخريب الغابة إلا بعض الوقائع فإننا سنذكر أهم هذه الوقائع وأسبابها حسب ترتيبها التاريخي :

الحادثة الأولى :

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٧٤ هـ أن تميم بن المعز لدين الله الصنهاجي صاحب المهديّة قد حاصر قابس في هذه السنة وأفسد بجنده غابتها . ولم يتعرض ابن الأثير لأسباب هذا الحصار ، ولم يعط أى بيان عن نتائج هذه الواقعة ولا أى تفصيل عن إفساد الجند للغابة :

ورجعنا للكتب الإفريقية فإذا بها تسكت عن هذه الحادثة وتهملها إهمالاً تاماً ، وإنما تعرض لحوادث وقعت في سنوات ٤٧٩ ، و- ٤٨٦ ، و- ٤٨٩ : ففي الأولى حاصر تميم مدينة قابس وصفاقس معاً لم يسمع بمثله ، وفي الثانية حاصر تميم مدينة قابس حتى فتح ربضها ، وفي الثالثة تمكن من التغلب عليها

وفتحها^(١) أى بعد الحادثة الأولى بخمس عشرة سنة ، والظاهر أن ابن الأثير غلط في اسم المدينة إذ أن حادثة ٤٧٤ تخص صفاقس لا قابس . قال ابن عذارى في البيان المغرب^(٢) « وفي سنة ٤٧٤ حاصر تميم مدينة صفاقس وعاث عسكره في أجتتها المعروفة بالعبابة وأفسدها . . . » ويبسط المؤرخون أسباب الحادثة الأخيرة ٤٨٩ هـ التي تعرضنا لتفاصيلها في الباب الخامس ، وخلاصتها أن وحشة حدثت بين الوالى الصنهاجى على قابس من قبل المعزوين والمعز فغضب الوالى وأعطى بطاعته إلى مؤنس بن يحيى الرياحى أحد أمراء العرب المهلبين وتسلم ولاية قابس أخ للوالى المذكور فأساء السيرة في الناس ، وكان ذلك في أيام تميم بن المعز - فتار عليه سكان قابس وقتلوه واستدعوا الأمير عمر بن المعز أخوا تميم - وكان مغاضبا لأخيه - فأمره على أنفسهم سنة ٤٨٩ هـ فجهز تميم جيشا في البر والبحر وحاصر قابس حصاراً شديدا حتى استسلمت ودانت له بالطاعة : هذه هي الحوادث التي ذكرها المؤرخون بما فيهم ابن الأثير أيضاً ، وقد نال الغاية أثناء الحصار نصيب من التخريب والإفساد .

الحادثة الثانية :

وفي سنة ٥٩١ هـ وصل إلى قابس يحيى بن إسحاق الميورقي الناصر على الموحدين ونزل بقرية (زريق) وكان في قابس بن تافراجين والى الموحدين فحاصرها حصاراً شديداً ولما امتنعت قطع عابتها ولم يبق من نخيلها إلا واحدة لتكون عبرة لسكانها وخربها تخريباً تاماً ثم وقع الصلح على أن تستسلم له المدينة فيدخلها ويخرج الوالى ابن تافراجين مع أهله إلى تونس ويدفع له سكان قابس ستين ألف دينار غرامة حرية ، وقد فصلنا هذه الحادثة في الباب الخامس .

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٢) ج ١ ص ٤٣١ .

الحادثة الثالثة :

لما ثار الأمير أبو زكريا بن أبي إسحاق الحفصي في تلمسان على سلطان تونس أبي حفص عمر ، زحف سنة ٦٨٥ على تونس يعصده الأعراب من دباب فدافعه قائد الجيش التونسي الفزاري فالت جيوش الثائر إلى قابس وحاصرها وهزم حاميتها ، وأثنى فيها قتلا وأسرا ، وهلم ربضها ، وأحرق المنازل والنخل في غابتها^(١) .

الحادثة الرابعة :

وفي سنة ٧٨٩ هـ كانت قابس إمارة مستقلة في يد عبد الوهاب بن مكى من عائلة بنى مكى اللواتيين الذين تداولوا إمارتها مائة ونيفا وسبعين سنة ، وكان عبد الوهاب هذا قد افتكها من الوالى الحفصي قبل ذلك فجهز إليه أبو العباس أحمد الثانى السلطان الحفصي (٧٧٢ = ٧٩٦ هـ) جيشاً جراراً وحاصر المدينة وقطع نخل غابتها وخرّب واحاتها تخريباً تاماً حتى أعلن عبد الوهاب الطاعة ورهن ابنه عند السلطان ضماناً لذلك .

هذه أحداث بارزة في التاريخ تعرضت فيها الغابة إلى التخريب والإفساد ، والظاهر أنها ليست الحوادث الوحيدة التى تعرضت فيها الغابة للإفساد ، فنحن نعرف أن قابس تعرضت مرات عديدة للحصار ولخروب دامية في العهد الإسلامى ، وإذا قدرنا أن غابتها نجت من الفساد أثناء منازلة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح الأباضى لها سنة ١٤١ هـ^(٢) لشدة تمسك

(١) ابن خلدون ح ٦ ص ٧٠١ ط بيروت ، وذكر في نفس الجزء ص ١٧٠ أن الحادثة وقعت سنة ٦٨٧ .

(٢) أبو الخطاب عبد الأعلى بن عبد السمح المعامرى الحميرى تلميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الحميرى شيخ الأباضية بالبصرة ، قدم إلى جبل نفوسة مع بعض أصدقائه من شيوخ الأباضية بإشارة من شيخه فاجتمع عليه أهل الجبل والفسواحى وبايعوه بالإمامة فظلم الإدارة ووجع الجيوش =

هذا الثائر بالأحكام الدينية وتعفقه عن الفساد فإننا لانتصور احترامها من طرف جيوش الغزاة بعد ذلك .

ومن بين الغزوات الكبرى التي استهدفت إليها قابس واقعة المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى^(١) الذي أوقع بعلى بن إسحاق الميورقي بظاهر الحامة سنة ٥٨٣ هـ وانتقل إلى قابس فحاصرها برا وبحرا حتى استسلمت له .

ومنها منازلها من طرف الناصر بن المنصور الموحدى^(٢) سنة ١٠١ هـ الذي طرد منها يحيى الميورقي .

ومنها محاصرتها من طرف أبي يحيى زكريا اللحياني حين كان شيخ الدولة الحفصية أي قبل توليه السلطنة وقد تفرد التجاني بالإشارة إلى هذه الحادثة فقال عند حديثه عن دار عبد الملك بن مكي^(٣) : « ورأيت في وسط الحائط الذى فى قبها الكبرى خرقا متسعا ذكر لى أنه لىثر ضربة منجنيق جعل ضاربه غرضه هذا المجلس حيث كان الشيخ أبو مروان يجلس به فقصر

وهاجم طرابلس فاحتلها سنة ١٤٠ ثم نهض إلى إفريقية فاحتل جربة وقاس وتقدم إلى القيروان فاحتلها سنة ١٤١ هـ وترك زميله عبد الرحمن بن رسم مؤسس دولة الرستميين بتاهرت واليا عليها ثم رجع أبو الخطاب إلى طرابلس حيث قتلته محمد بن الأشعث الذى أرسله أبو جعفر المنصور بجيش كثيف لقمع الفتن بإفريقية سنة ١٤٤ هـ .

(١) تولى سنة ٥٨٠ هـ لىثر موت أبيه بالأندلس ونهض إلى تونس سنة ٥٨٢ هـ لمطاردة الميورقي الذى أثار فيها الفتن ورجع إلى مراكش سنة ٥٨٤ هـ وله غزوات مظفرة بالأندلس وآثار عمرائية كثيرة بالأندلس والمغرب منها تأسيسه لمدينة رباط الفتح وكان حازماً شديد التدين والورع ، توفى سنة ٥٩٥ هـ .

(٢) محمد بن يعقوب تولى لىثر وفاة أبيه ٥٩٥ هـ وقدم إلى تونس لمطاردة الميورقي أيضاً سنة ٦٠١ هـ وغادرها سنة ٦٠٣ هـ بعد أن ولى عليها الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حمص الهشاني جد الحفصيين - وللناصر غزوات بالأندلس أشهرها واقعة العقاب ، وتوفى سنة ٦٠٩ هـ .

(٣) الرحلة ص ١٧٨ .

الحجر بملاقاته لذلك الحائط وحرفت إياه عن الهوق قليلا وكانت تلك الضربة أيام محاصرة مخدومنا (أبي زكرياء اللحياني) لقابس .

وعند حديث التجاني عن منزل (تلبو) قال^(١) : « وكانت به قبل هذا غابة نخل فقطعت أيام محاصرة مخدومنا لقابس ولم يبق منها إلا نجيلات قليلة في مواضع متناثرة منه » . ولا نشك أن ما أصاب غابة (تلبو) نال مثله (غابة قابس) أو أكثر ، وهذه الحادثة وقعت بعد سنة ٦٩٣ هـ بسبب تمرد أبي مروان عبد الملك بن مكى صاحب قابس^(٢) إلى آخر هذه الأحداث التي تتابعت عليها أيام الحفصيين كما سيأتي بيان ذلك كله في الباب الخامس والتي لانشك أن الغابة تعرضت فيها إلى إفساد وتخريب كثير أو قليل فهي سور المدينة الحصين وهي ملجأ أيضاً للمقاومين وهي مستودع الميرة للمدينة ، ولذلك تحملت من الأحداث المؤلمة أكثر مما تحملت المدينة ولا تزال رغم ذلك كله ، إلى اليوم جنة قابس الساحرة وجنتها الحامية وعينها الساهرة .

(١) الرحلة ص ١٧٩ .

(٢) انظر تفاصيل الحادثة في الباب الخامس .

البابُ الثاني
خِليجِ قابِسْ

الفصل الأول

الشاطيء

موقعه - عمقه - أرضه - عمارته

من المعروف أن خليج قابس من أكبر وأوسع الخلجان التونسية، وأن طرفه الغربي يقع في المدخل الصخري الفاصل بين البحر المتوسط وسبخة الفجيج^(١)، ويمتد منه غرباً سهل (شانشو) إلى (الحامة) وهو من أكرم الأراضي الزراعية المنتجة للحبوب، ومن الحامة غرباً تمتد أرض (البحائر) الواسعة وأكثرها مزارع وسباح منخفضة تنبسط بين جبلي (الستى) من الشمال و (الطباقه) من الجنوب فتتصل بشط الجريد المعروف في القديم (بسبخة تاكرت)، وقد فكر بعض المهندسين في شق قناة بين خليج قابس وشط الحامة المتصل بسبخة الفجيج وهذه متصلة بشط الجريد، وهي فكرة تركز على مد البحر إلى الصحراء القاحلة حتى تخصب وتعمر (انظر الفصل الثالث من هذا الباب)، ولكنها فكرة صعبة للتنفيذ تستوجب رؤوس أموال ضخمة، وإذا وقع شق القناة فستعمر المياه قرى وأراضي عديدة يعسر تعويضها على أصحابها، ويسمى هذا الخليج (خليج سرت الصغير) ووصفه بالصغير للتفريق بينه وبين (خليج سرت الكبير) بطنابلس.

وساحله غالبه معمور بالقرى والبلدان من بدايته شمالاً إلى نهايته جنوباً وتختلف أرض الساحل فتناً الرملی الصالح للمصيف وعمقه درجات ومنها السبخة الكالحة التي لا تنبت غير النباتات السبخية الصغيرة وهو قصير

(١) دائرة المعارف الإسلامية - وسبخة الفجيج تقع شمال قرية (الإماقس) من متلوية قبلي ويحترقها الطريق الممتد بين قنل وقفصة.

لا يبعد عمقه الأعلى مسافة من الساحل ومنها الطيني الذي يكون في الغالب أكثر عمقا من غيره .

وتقع واحة قابس في الطرف الغربي من الخليج على ساحل رملي منبسطة جميل يمتد من مصب (وادي قابس) إلى شرقي واحة (شنتش) الصغيرة وفي داخله أودية وسطوح ولذلك يختلف عمق مائه فيصل حين المد إلى مترين ونصف وفيه مد وجزر إلا أن هذا المد لا يمتد كثيراً إلا حوالى مصب الوادي ، وقلة عمق المياه في الشاطئ جعلته خاليا تقريبا من الأسماك فهي لا توجد إلا في الأعماق الداخلية منه يسافر لها الصيادون بالزوارق .

وماء الشاطئ - في الغالب - غير ساكن لكثرة الرياح وقوتها ، ولذلك فهو متقلب غصوب لا يهدأ ويسكن ويصبح صالحا للسباحة وللتنزه في الزوارق إلا في فصل الصيف أثناء النهار الذي تسكن فيه الرياح وتشتد حرارة الجو . على أنه في الغالب يشتد صحبه وحركته في الليل أثناء المد ، وقد كان هذا الشاطئ إلى عهد قريب غير عامر بالمصيفين وليس به محلات للراحة وإنما يرتاده الناس نهارا للسياحة لبعده المدينة عنه فقد كانت أقرب بنايات المدينة إليه من جهة الحى الحديث تبعد نحو نصف كيلو متر ، أما الآن فقد اتصل به العمران وامتدت على نصيب من مساحته الأكواخ الخشبية المعروفة على الشواطئ التونسية تتحللها بعض بنايات الحديثة والمقاهى العصرية ، وهذا العمران الآن في ازدياد مطرد .

كما اتصلت به الطرقات المعبدة من المدينة وقد غرست على جوانبها الأشجار الظليلة ولا تخلو هذه الطرقات في أيام الصيف من السيارات وعربات الخيل رائحة عادية بالمتنزهين إلى ما بعند منتصف الليل

ولا تزال المساحة الجنوبية من الشاطئ خالية من العمران بالرغم من انبساط أرضها وجمال شاطئها ولين رمالها وصفاء ماء الشاطئ وضآلة عمقه بحيث يعتبر أحسن شاطئ لمصيف العائلات .

ولو وقع الالتفات إلى تحسينه وتنظيمه وعمارته بالبنائيات الصالحة لسكنى العائلات والأفراد لأصبح من المصائف الجميلة المرتادة وللدرّ على المدينة وأهلها الخير الكثير .

الفصل الثاني

المرفأ البحري

موقعه - وصف الرحالين له - السفن التي تدخله - حركته التجارية

ومدينة قابس مرفأً بحرياً معروف إلى الآن يقع عند مصب الوادي شرق (سيدي عبد السلام) قليل العمق . لا تستطيع الإرساء فيه إلا السفن الصغيرة الحمولة والزوارق .

ويظهر أنه كان في القديم أحسن حالاً مما هو عليه الآن ، وأنه كان محل عناية السلطة الحاكمة وأن حركته التجارية كانت كثيرة ، ولا ريب أنه كان موثلاً للسفن التجارية المتوسطة والصغيرة للفينيقيين والرومان بعدهم ، وبقى على حركته حتى بعد الفتح الإسلامي .

ذكره البكري في مسالكه^(١) بقوله : « وساحل مدينة قابس مرفأً للسفن من كل مكان » وجاء بعده الإدريسي فوصفه وصف متأمل مدقق بقوله^(٢) : « ومرساها في البحر ليس بشيء لأنه لا يستر من ريح ، وإنما ترسى القوارب بواديهها^(٣) ، وهو نهر صغير يدخله المد والجزر ، وترسى به المراكب الصغرى وليس بكثير السعة وإنما يطلع المد للإرساء نحو رمية سهم » .

وحكى لنا التجاني^(٤) عند حديثه عن الوحشة التي حصلت بين علي ابن يحيى الصنهاجي صاحب المهديّة وبين رافع بن مكى بن جامع صاحب قابس أن السبب في ذلك بناء رافع لسفينة ضخمة بميناء قابس ، وكان على

(٢) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

(١) ص ١٧ .

(٣) أي في مصب عد الخليج .

(٤) الرحلة ص ٩٨

لا يريد من يزاحمه . السيطرة على البحر الإفريقي وإن رافعاً استغاث بروجار صاحب صقلية فأرسل إليه قطعاً من أسطوله أرسط بالخليج فقضى أسطول المهديّة على قطع صقلية وسفينة رافع كما سيأتي في الباب الخامس .

وإذا قدرنا أن السفن الصقلية أرسط في الخليج فإن بناء سفينة رافع الضخمة لا يمكن أن يكون إلا في المرفأ ، وعلى هذا يكون المرفأ مكاناً صالحاً لإرساء السفن التي تحدث عنها الراحلون وأن رافعاً كان ينوي توسيع هذا المرفأ وتعميقه بحيث يصبح صالحاً لإرساء السفن الكبرى ولكن أسطول المهديّة قضى على أحلامه ، ويأتي بعد التجاوي ابن سعيد فيقول في كتابه (بسط الأرض)^(١) : « والمراكب المتوسطة تدخل مرفأها » فلا يبقى شك إذن أن مرفأ قابس كان موثلاً للسفن المتوسطة والصغيرة ، أما السفن الكبيرة فكانت ترسو في الخليج بعيداً عن المرفأ ، ومنها تنقل السلع والمسافرون بواسطة السفن الصغيرة والزوارق .

تقول دائرة المعارف الإسلامية . « يستعمل مصب الوادي كمرسى للسفن الصغيرة الحمولة . أما السفن الكبيرة فترسى في البحر في خليج مختلف العمق يعلو فيه البناء زمن المد نحو مترين ونصف » .

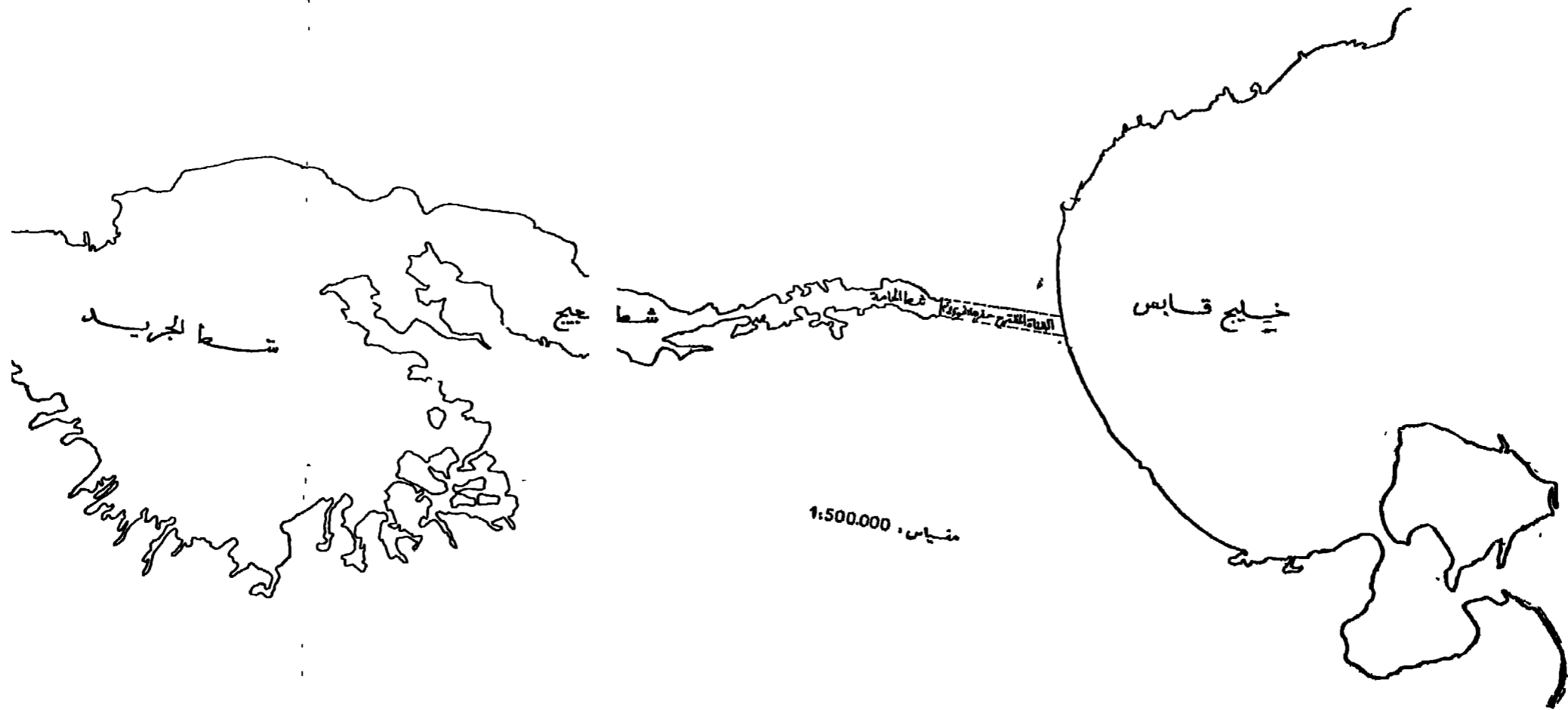
وفقد قابس مرفأ كبير تدخله السفن الكبيرة جعل حركتها التجارية على طريق البحر أقل أهمية مما هي عليه في المرفأ التونسية الكبرى .

نعم إن المرفأ كان كثير الحركة إلا أنها قليلة الأهمية من حيث الحمولة لا تتجاوز حسب تقدير دائرة المعارف الإسلامية خمسة وعشرين ألف طن في السنة ولذلك كانت الحركة التجارية بقابس بواسطة القوافل الرية سابقاً ، والسيارات في العصر الحالي أكثر أهمية منها على طريق البحر .

وقد أهمل المرفأ الآن إهمالاً لا يليق بمدينة قابس ، وقد غمرت الرمال

وأشجار السباخ كثيراً من مساحته حتى تعطل تماماً فأصبحت الزوارق ترسو في فرغة منه قرب شاطئ البحر بدل أن تدخل للمرفأ النهرى القديم المتعطل .

ولو وجه له الاعتناء اللازم فوق توسيعه وتعميقه وتهيئة رصيف له وإعداده لقبول السفن المتوسطة الحمولة لكان في ذلك الخير الكثير إذ أن مدينة قابس مركز ممتاز للتجارة والمواصلات .



خريطة رقم (١٢) القناة - حة

الفصل الثالث

مشروع بحر الصحراء

كان منشأ فكرة « بحر الصحراء » استعمارياً بحتاً ، إذ أن المستعمرين الفرنسيين الأول كانوا يجلدون منذ القرن التاسع عشر وبعد احتلالهم للجزائر الشقيقة باستثمار الصحراء الكبرى وجعلها صالحة للتعمير وللحياة المتحضرة وذلك بالتغلب على حرارتها وجفافها بواسطة خلق جورطب فيها صالح للتشجير والتعمير وفي منتصف القرن التاسع عشر اكتشف أن منطقة الشطوط بالقسم الشمالي الشرقي من الصحراء والممتدة من قرب خليج قابس إلى جهة الواحات الجزائرية بالجنوب الجزائري يقع سطحها تحت مستوى سطح البحر ، وقد أوحى هذا الاكتشاف إلى القبطان (رودير) من ضباط الجيش الفرنسي بفكرة إنشاء بحر الصحراء فاقترح شق قناة من خليج قابس إلى شط الحامة (انظر الخريطة) ، وهذا العمل سيسمح لمياه البحر المتوسط بالانسياب إلى منطقة الشطوط فتكون بحراً مقسماً يربط بين الجزائر وتونس ويسمح بتلطيف الأجواء الصحراوية وباجتذاب المياه المخزونة في بطن الأرض إلى الارتفاع نحو السطح في السواحل وزيادة في نسبة الأمطار نتيجة تبخر مياه البحر مما يجعل مناطق واسعة من الصحراء صالحة للزراعة . وقد اهتم المهندس المعروف (فرديناند دى ليسبس) الذى شق قناة (السويس وبناما) بهذه الفكرة وانتشرت الدعاية لهذا المشروع مما أجبر البرلمان الفرنسي على الموافقة على قرض مالى للقيام بدراسة تفصيلية لمنطقة الشطوط :

وقام القبطان (رودير) صاحب الفكرة بهذه الدراسة بين سنتي ١٨٧٣ ، ١٨٧٦ فاكشف أن الشطوط الجزائرية تقع حقيقة تحت مستوى سطح البحر أولاً (شط الجريد) فرتفع عن سطح البحر ولكنه لم يأس من تحقيق فكرته

فاقترح أن تطول القناة وتمتد شمال شط الجريد باتجاه الشطوط المنخفضة إلى بسكرة ويقول (رودير) : إنه بالرغم من إخراج شط الجريد من مساحة (بحر الصحراء) فإن الناق من الشطوط يستطيع أن يخلق بحراً لا تقل مساحته عن (٣٠٠٠ ميل مربع) .

بيد أن خبراء أكاديمية العلوم حذروا المسؤولين من هذه المغامرة المرتكزة على التخمين والخيال والتي قد تؤدي إلى مشاكل لم تكن في الحسبان ، وقد تقضى على واحات خضراء ومدن وقرى أهلة بسكاتها دون نتيجة . وعاد البرلمان الفرنسي للموضوع من جديد فوافق عام ١٨٧٨ على تخصيص مبالغ جديدة للقيام بدراسات جيولوجية يشترك فيها دي ليسبس وكانت التقديرات المالية هائلة مما جعل المشروع يهمل إثر موت صاحبه (رودير) سنة ١٨٨٣ .

وعاد الحديث عن هذا المشروع على إثر اكتشاف شركات البترول التي تقوم بالحفر في مختلف مناطق الصحراء عامي ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ أن هناك ارتباطاً بين منطقة الشطوط وبين البحر الأبيض المتوسط في العصر الجليدي وأن البحر كان يمتد إلى منطقة الشطوط هذه وأن مياه البحر الأبيض المتوسط قد انخفضت بتوالي العصور انخفاضاً أدى إلى ظهور حاجز قابس الصخري الذي فصل بين البحر والشطوط حتى جفت وبقيت سبخاً مالحة فتألفت (جمعية الأبحاث الفنية للدراسة ببحر الصحراء الداخلي) التي أحييت مشروع (رودير) القديم وقامت بأبحاث إلى سنة ١٩٥٩ فحلت محلها مؤسسة (البحث العلمي) التي تفرع عنها (اتحاد التعدين الفرنسي) وكانت نتيجة أبحاث (جمعية الأبحاث الفنية) أن اقترحت شق قناة عبر (شط الجريد) عمقها يتراوح بين ٤٠٠ و ٧٠٠ ياردة واتساعها بين ميل ونصف وميلين وربع مع إقامة سد ضخيم على (شط الجريد) قرب مدينة توزر لتوليد الكهرباء .

ويقول جورج غيرستر في كتابه (الصحراء الكبرى) الذي تلخص

عنه هذا الفصل : إن هذه الجمعية كانت في بحوثها على اتفاق تام مع كتابة الدولة للأشغال العامة بالحكومة التونسية^(١) .

واقترحت الجمعية أن يقع شق القناة بواسطة تفجير القنابل الهيدروجينية في باطن الأرض ضماناً لسرعة العمل ، كما اقترحت على منظمات البترول أن تساهم بمساعدتها على إتمام هذا المشروع . ولكن مؤسسات البترول لا ترى فيه غير إغراق في الخيال والأوهام .

* * *

وظهر (لويس كيرفران) في سنة ١٩٥٨ بمشروع جديد لتحقيق وجود (بحر الصحراء) لا يعتمد على شق قناة من خليج قابس ، وإنما على تحويل مياه نهر (النيجر) من جهة قريبة من مدينة (تمبكتو) وتوجيهه نحو الشمال إلى المنطقة المحيطة بـ (تاووديني) حيث تقسم المياه هناك إلى فرعين . يتجه أحدهما في عطفة واسعة إلى صحراء موريطانيا ليصب في المحيط الأطلسي قرب العاصمة (نواك الشط) ويتجه الثاني شمالاً إلى بلدة (عين صالح) ، ومنها يمتد في أنابيب وأقنية إلى (قلعة فلاترز) حيث يتسرب إلى (وادي أغرغر) المتحجر فينسب مع مجراه إلى (شط ملغينغ) وبقية الشطوط المنخفضة . ويعتقد صاحب هذا المشروع أن مشروعه هذا لا يحتاج إلى كثير من الحفريات .

ويتنبأ مؤلف كتاب (الصحراء الكبرى) لهذا المشروع بأنه سيلقى نفس مصير المشروع الأول .

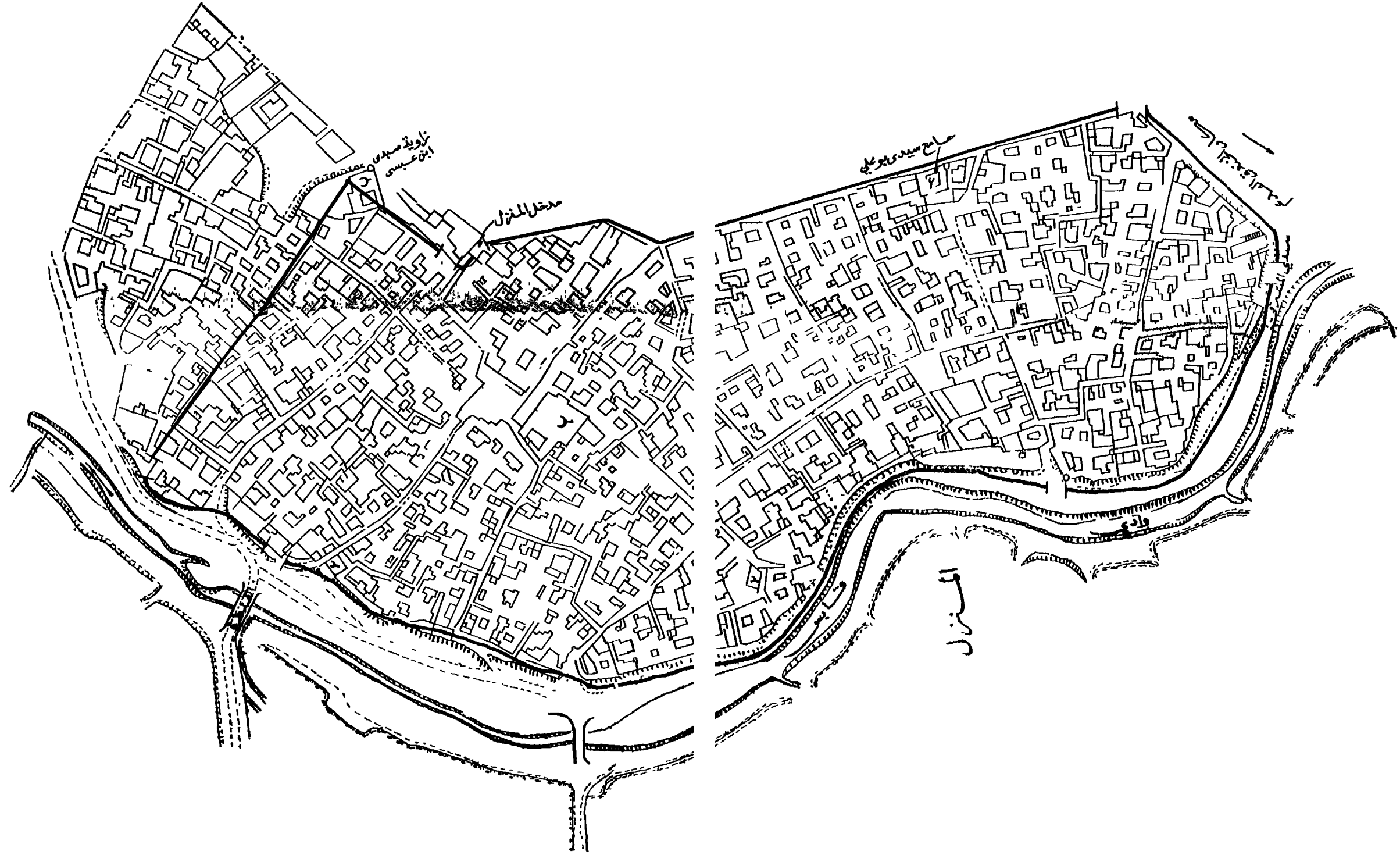
هذا ما وصلت إليه قضية (بحر الصحراء) التي استطرنا ذكرها هنا لاتصالها بالخليج المسمى باسم المدينة التي نوّرخ لها . فهل يتحقق هذا الحلم ويتغلب العقل البشري على العراقل الطبيعية ؟ أم يكون هذا الحلم الذي يراود عقول المهندسين منذ أكثر من قرن مجرد إغراق في الخيال كما يقول رجال البترول ؟

(١) الصحراء الكبرى ص ٣٢٩ ترجمة خيرى حماد طبع بيروت ١٩٦١ .

الباب الثالث
مدينة قابس

خريطة المدينة القديمة المسورة منزل قاسم

مقياس: 1 : 100



الفصل الأول

المدينة القديمة

موقعها - أهميتها - بناؤها - سورها - أبوابها - خندقها

أين كانت مدينة (تاكاب) - أو - تاكاباس (القديمة ؟ هذا هو السؤال الذي قضيت زمانا في البحث عن جوابه فما وصلت إلا لتكهنات وتخمينات بقيت في حاجة لمؤيدات تاريخية متينة ، لأن هذه المؤيدات لا تكون ماثلة إلا في الآثار الظاهرة أو المدفونة تحت الأرض ، ومن سوء الحظ أن أعمال الحفر عن الآثار لم تنتج لحد الآن إلى هذه الناحية بصفة فعالة .

تقول دائرة المعارف الإسلامية إنه « كانت في مكان مدينة قابس الحديثة مدينة تسمى (تاكاب) أسسها الفينيقيون وكانت أكثر المدن ازدهارا بخليج سيرت فتداولها القرطاجنيون ثم الرومان بعدهم وصارت في زمن الإمبراطورية الرومانية ذات أهمية كبرى » .

وتحديد مكانها في مكان المدينة الحديثة هو ما ذهب إليه (أطلس ! تونس الأثرى) فقد جاء فيه « أن أنقاض المدينة القديمة تقع تحت كامل مساحة أقسام المدينة الحديثة الأربعة : جارة - والمنزل - وباب البحر - وسيدى أبي لبابة » ويقول صاحب كتاب (خليج قابس في سنة ١٨٨٨) عند الحديث عن أهمية المدينة : « والظاهر أنها كانت تمتد (حتى شاطئ البحر وأنها صعدت في العهد الروماني إلى صفت المستعمرات ... وفي العهد المسيحي أصبحت مركز أسقفية . . . على أنه يصعب جداً تعيين مكان المدينة المندثرة بالضغط^(١) » . ونقلنا عن فيرين في كتابه (رحلة أثرية

J. Servonnet, et Doct F. Laffite : Le golfe de gabès en 1888, (١)

في الإيالة التونسية) أن المدينة (قد تكون ممتدة من جنوب أبي لبابة وتتصل شرقا بالبحر وتشمل المنزل وجارة وشنتي بحيث تقرب مساحة دائرتها من خمسة كيلومترات^(١) وهذا كلام ظاهر المبالغة إذ لو صدقنا تكهنات (فيرين) هذا لكانت مساحة دائرتها أكثر مما قدره لها هنا .

هذه بعض أقوال الأوربيين الذين تجمع تكهناتهم على أنها كانت تحتمل مساحة كبرى مساحة مدينة ضخمة ، ومعنى هذا أن موقع المدينة لم يتغير وأن تاكاب القديمة كانت من الكبر والسعة والعمران بما لا يقل عن حالتها الحاضرة .

ونحن نشك في هذا الزعم للأسباب التالية :

١ - لأن هؤلاء المؤلفين لم يدلوا لنا بما يؤيد كلامهم من الآثار أو المصادر التاريخية .

٢ - لأن البناءات الحديثة التي تنزل أسسها عادة إلى أمتار في الأرض لم يجد عمالها أى أثر يدل على وجود بناء قديم اللهم إلا بعض الآثار السطحية القليلة التي تدل على وجود بنايات سابقة في بعض الأماكن المتفرقة ليست بدات أهمية أثرية أى أنها ليست سابقة للفتح الإسلامى .

٣ - إن مدينة تغطى مساحة كبيرة من الأرض لا بد لها من هياكل وعمارات أثرية ضخمة تناسب عظمتها وأهميتها ، ولا وجود لهذه الآثار البتة على وجه الأرض .

٤ - إن مدينة هذه العظمة وهذا الاتساع لا يمكن أبدا أن يهملها الجيش الإسلامى الأول الذى قدم إفريقية سنة ٢٧ هـ إذ نجده (يسلك إلى سببلة ولم يتوقف في قابس) وهذا ما قاله أيضا ابن الشباط « وكان ابن أبى سرح لما أرسله عثمان ٢٧ هـ حاصرها ثم تركها خلفه » أما يا قوت في معجم

البلدان فقد زعم أنها فتحت في الغزوة الأولى سنة ٢٧ هـ (١) :

إذن فليس هناك من سبيل لتصديق هذا الزعم إلا إذا قدرنا أن المدينة اندثرت أيام البيزنطيين واضمحلت آثارها ولم يبق منها إلا قرية لا أهمية لها انزوت حوالى الربوة الواقعة بين المنزل وسيدى أبي لبابة التي بها (خزنة الماء) والمعروفة إلى اليوم بـ (المدينة) والتي يذكر أهل قابس أنها مكان المدينة القديمة وأن آثارها القائمة قد خربها السكان في العصور الإسلامية وبنوا بصخورها وأحجارها منازلهم وسور بلدهم وإذا كان لنا أن نتوصل لمكان المدينة القديمة بواسطة آثار البناء ، فإن هذه الآثار قد اندثر الظاهر منها وانتقلت أحجارها ولا نعرف الآن بالضبط موقع المدينة القديمة ولا أهميتها من حيث الكبر والصغر فلم يبق إلا أن نتبع سكان المكان - وهم أدري ببلدهم - في تحديد مكان المدينة بالربوة التي يطلق عليها اسم (المدينة) إلى اليوم وقد ورثه الأبناء عن الآباء أما ما هي أهميتها وإلى أين تصل أسوارها وبنائها ، هذا ما لم نهتد إليه .

نعم هناك آثار بناءات أخرى قديمة عثر عليها في سيدى بشار غربى ضريح أبي لبابة ، يزعم السكان أيضاً أنها آثار قرية كانت هناك .

وهناك آثار أبنية رومانية عثر عليها السكان منذ خمسة عشر عاماً تقريباً بغابة (بوشمة) في المكان المعروف بـ (هنشير الرومان) .

وقد زرت المكان في جوان ١٩٥٩ صحبة شيخ القرية والرجل الذى اكتشف البناء فحدثنى هذا الأخير أنه أثناء خدمته للأرض عثر على جدران مبنية بالصخور المنحوتة تمتد إلى مسافة لم يحدها وأنه عثر على مكان مدخل كبير للبناء وعلى سوارى من الصخر المنحوت وعلى جرار مملووة

(١) معجم البلدان - مادة قابس ح ٤ ص ٢٨٩ ط بيروت .

بالرماد المخلوط بقطع صغيرة براءة لا يعرف معدنها وأنه نزل مع تلك الجدران في الأرض فوصل إلى الماء ولم يحددها ، ثم صحبني إلى حيث توجد الصخور والسواري التي اكتشفها وقد بنيت في أسفل جدران المنازل والمستودعات فإذا بها لا تختلف عن أحجار وسواري البناءات الرومانية ، ثم عثر الأهالي في نفس المكان - في الأيام الأخيرة - على مقبرة لم تعرف أهميتها بعد .

فما هي هذه الآثار ؟ وهل كانت المدينة القديمة تمتد إلى هذه الجهة ؟ أو أن هذا المكان هو موقع المدينة القديمة ؟ أم أنها آثار ضيعة من الضيعات الزراعية (Ferme) المعروفة في تلك العصور ؟

الظاهر أن الاحتمال الأخير هو الأوجه .

وبعد فيمكن أن نستخلص من هذا أن المدينة القديمة (تاكاب) كانت تقع حسب الراجح على الربوة المعروفة اليوم (بالمدينة) وحواليها كما قلنا ولكننا لا نعرف أهميتها ولا كبرها من صغرها وإنما نعتقد أن منازلها كانت ممتدة على مسافات من الربوة تختلف اتساعا وضيقا وأن شرب أهلها إما أن يكون من ساقية مجلوبة لها من الوادي وإما من عين سلام على فرض قدم نبعها . يقول (برانشفيج) : « والظاهر أن عين سلام كانت داخل السور »^(١) ، وقد عثر على آثار منازل وصهاريج ومواجل متوغلة في القدم وعلى أواني من الفخار ربما كانت فنيقية الأصل في هذه الربوة .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية أن الفنيقيين هم الذين أسسوا (تاكاب القديمة) وقد يكون هذا صحيحا ويحتمل أيضاً أن يكون تأسيسها سابقا للفنيقيين وأن المؤسسين الأصليين هم البربر الذين عرفتهم إفريقية قبل الفنيقيين ولعل في ابتداء اسمها بالتاء المفتوحة ما يرجح هذا الاحتمال

إذ المعروف أن أسماء المدن البربرية يبتدئ غالبا بهذه التاء (تطاوين - تاوجوت - تجغت - تامزرت - تاهرت - تافلالت .. الخ) .

وعلی كل احتمال فإن المدينة قد ظهر اسمها وشما مركزها في أيام الفنيقيين وعظم هذا المركز تجاريا وعمرانيا في العهد الروماني ، وفي أيام الفتح الإسلامي كانت غير ذات أهمية من الناحية الحربية والعمرانية بدليل عدم توقف الجيش الإسلامي عندها في فتوحاته وعدم ذكر المؤرخين للظرف الذي وقع فيها احتلال المسلمين لها ولا حدودا حتى السنة التي فتحت فيها ، إلا ياقوت ، ولا عينوا الجيش أو القائد الذي فتحها ، كما اعتادوا أن يذكروا ذلك في بقية البلدان ، وقد حاولنا أن نعلل هذا الإغفال في الباب الخامس عند التعرض للفتح الإسلامي . ويظهر أن المسلمين حين دخلوها وجعلوا اسمها (تاكاباس - أوتاكابس) وهذه السين في آخرها رومانية ، فطرحوا التاء ونطقوا الباقي فقالوا (قابس) وشرعوا في إنشاء مساكنهم من أنقاض المنازل القديمة في الجهة الشمالية من المدينة وعمرت مدينة قابس واتسعت وازدهرت منذ دخلها المسلمون ، فأصبح لها ذكر ولها شهرة ذاتعة لوقوعها في باب إفريقية كما وصفوها ، وفي طريق القوافل والجيوش القادمة من الشرق والذاهبة إليه ، ثم لأهمية وخصب غابتها حتى أصبحت تميز القيروان العاصمة الأولى للإسلام بالفواكه والغلال وأنواع النسيج ، كما تميز صفاقس^(١) وغيرها ، ثم أصبحت في العصور الموالية مركزاً هاماً من مراكز التجارات الواردة من السودان وطرابلس ، وسوقاً من أسواق الرقيق المجلوب من السودان أيضا :

وقد وصف لنا الرحالون مدينة قابس الإسلامية ولكنهم لم يجدوا لنا موقعها بالضبط ، وسنورد أقوالهم فيما يلي ثم نحدد مكانها والمساحة التي تغطيها :

(١) رحلة التجاني ص ٦٨ .

وأقدم هؤلاء يعقوبى فوصفها بأنها مدينة عظيمة عامرة^(١) . أما ابن حوقل فلم يصف لنا المدينة ولكنه وصف تجارتها الواسعة وصناعاتها الوافرة وغلاتها الكثيرة ، ثم استطرد لوصف أخلاق أهلها .
ويصفها المقدسى^(٢) بأنها : « أصغر من طرابلس . . . وبنائها من الحجارة والآجر . . . مسورة ولها ثلاثة أبواب » .

ويأتى البكرى فى القرن الخامس فيقول عنها^(٣) : « مدينة جليلة مسورة بالصخر الجليل من بنيان الأول ، ذات حصن حصين ، وأرباض وأسواق وفنادق وجامع سرى ، وحمامات كثيرة ، وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة فيكون أمنع شئء ولها ثلاثة أبواب وبشرقيها وقبلها أرباضها . . . بينها وبين البحر ثلاثة أميال » .

وبعد البكرى بنحو قرن يصفها الإدريسى بقوله^(٤) : « مدينة صغيرة متحضرة ، وبها من ناحية البحر أيضاً سوق وباعة وحريريون كثيرون . . . بينها وبين البحر ستة أميال ١ من جهة الشمال . . الخ » .

ثم يأتى التجانى فى أول القرن الثامن فيصفها بأنها^(٥) « مدينة بحرية صحراوية فإن الصحراء متصلة بها ، والبحر على ثلاثة أميال منها ، فهى أحق بقول ابن عيينة :

« وادى القصر نعم القصر والوادى
ترسى قراقيره والعيس واقفة
وحبنا أهله من حاضر بادية
والضرب والنون والملاح والحادى »

(١) البلدان ص ١٠٥ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .

(٣) المسالك ص ١٧ .

(٤) فزعة المشتاق ص ١٠٦ .

(٥) الرحلة ص ٨٧ .

(وبقوله أيضا)^(١) :

« يا جنة فاقت الجنان فما لعلقها قيمة ولا ثمن
صاهر حيتانها الضباب بها فهده كنة وذا ختن
من سفن كالنعام مقبلة ومن نعام كأنها سفن

ويقال « إنه لا يجتمع في مائدة صيد البرّ وصيد البحر وأصناف التمر إلا في مائدة من يسكن قابس ، وعلى قابس سور صخر جليل من بناء الأول ولها أرباض واسعة وجل أسواقها في أرباضها الخ » ثم تعرض التجاني إلى ذكر معالم المدينة التي سيأتي الحديث عنها في الفصل الآتي .

ويقول عنها ابن خلدون^(٢) : « هي حاضرة البحر من أعظم أمصار إفريقية » . وإذا تتبعنا من أقوال هؤلاء وجدنا بينها تضارباً ، فبينما يصفها يعقوبي والبكري وابن خلدون بالكبر والعظمة والانتساع وهو المفهوم أيضاً من ابن حوقل مجد المقدسي والإدرسي يصفانها بأنها مدينة صغيرة ، كذلك يجد التضارب نفسه في كيل المسافة التي بينها وبين البحر ، فيجعلها البكري والتجاني ثلاثة أميال ويجعلها الإدرسي ستة . وإذا تجاوزنا عن هذه الهنات في التأليف القديمة والمتأنية غالباً من خطأ النساخين ومن اعتماد القدماء على الرواية أكثر من المشاهدة وتجاوزنا عن مسألة المسافات وتجديد الجهات ، فإنه يمكننا أن نستنتج من أقوالهم مضافة لما شاهدناه بأنفسنا من آثار مواقع الخندق القديم ومن مكان المقبرة القديمة ومن آثار بعض أبواب السور من مجموع هذا كله يمكن أن نستنتج ما يلي :

(١) وصننا كلمة (بقوله أيضاً) بين قوسين لأن التجاني نسب الأبيات بعدا إلى الخليل ابن أحمد والصواب أنها لابن عيينة في ملح مدينة البصرة ، والبیتان الأولان يقولها في قصر عيسى بن جعفر بالحريية قرب البصرة ، وابن عيينة هذا هو عبد الله بن محمد المهلبى .

(٢) ج ١ ص ١٢٢ ط الجزائر .

١ - إن قابس الإسلامية كانت مدينة متوسطة ذات بنايات محترمة أقيمت جدرانها من الحجر والآجر .

٢ - وكانت تبتدئ من قرب قنطرة الوادى شمالاً حيث يقع الباب الشمالى للسور ويتجه سورها نحو الجنوب الشرقى إلى زاوية سيدى ابن عيسى الواقعة على طريق جارة - المنزل حيث يقع باب ثان للسور يقابل الباب الشمالى ، وقد فتح الآن بين البابين المذكورين طريق جديد بعد تهديم المنازل التى كانت بينهما ، ويمتد هذا الطريق نحو الجنوب الشرقى مخترقاً المقبرة القديمة ويتصل بطريق مطماطة قرب جامع التوفيق الحديد ، ومن زاوية سيدى ابن عيسى ينكسر السور نحو الغرب قليلاً ثم ينعطف إلى الجنوب ماراً بجامع سيدى أبى على بالمنزل وموقعه على جدار السور القديم ويستمر جنوباً إلى الباب الشرقى الواقع على ضفة وادى بوشاعة (الخندق القديم) شرقى سيدى المشيرقى ، ثم ينحرف السور نحو ضريح سيدى المشيرقى الواقع فى الشمال الغربى من ربوة خزانة الماء ، ومن هناك ينعطف السور شمالاً على ضفة وادى السيل الشرقية إلى باب سيدى عبد النافع ، ثم ينعطف إلى الشمال الشرقى مع ضفة الوادى أيضاً إلى الباب الفاتح على القنطرة الذى ابتدأنا منه أولاً (انظر خريطة المدينة) ، وعلى مقربة من الباب الشرقى يوجد سهل منخفض ممتد إلى البحر يوازى واحة (شنتش) من الشمال ، وهذا السهل يسمى الآن (القهباية) ، والظاهر أنه كان لساناً ممتداً من البحر يمثل رأس الخليج البحرى وقد ردمته عوامل الطبيعة من قديم ، ولا شك عندى أنه هو نفسه الفسحة العظيمة التى ذكرها الورثانى أثناء زيارته لقابس فى القرن الثانى عشر للهجرة بقوله (١) : « نزلنا خارج قابس عند الباب الشرقى ، فى فسحة عظيمة تجاه أبى لبابة بعيداً منه من جهة البحر » ولا شك أن هذه المدينة قد بناها المسلمون شمالى المدينة القديمة التى كان مركزها (خزانة الماء) ، وتمتد أطرافها إلى الجهات

الأربع وربما تجاوزت بناءاتها عين سلام جنوباً وشرقاً ، وبذلك يصبح قول برانشفيغ Brannechvig (والظاهر أن عين سلام كانت داخل السور)^(١) أى سور المدينة القديمة لا المدينة الإسلامية التي حددناها على ضوء آثار أسوارها .

بقيت قرية المعافرين التي كانت قرب مدينة قابس والتي تعرض لها ابن ناجي^(٢) في المعالم^(٣) عند الحديث عن ترجمة أبي الحسن القابسي بقوله : « لما وليت قضاء قابس وجدت بقرها قرية خالية تسمى بالمعافرين وفيها مسجد يقصده الناس للصلاة فيه تبركاً به ويقصلونه بالوعادات يقال له مسجد سيدي على ولا يدرون من يكون علياً هذا ؟ سألتني بعضهم من أى بلدة هو (أى أبو الحسن القابسي) قلت هو ينسب للمعافرين ، فجزموا من محبتهم في ذلك المسجد أنه صاحب ذلك المسجد ... الخ » . وقد بحثنا في أطراف مدينة قابس عن أثر لهذه القرية أو هذا المسجد فلم نعر في أول الأمر إلا على مسجد ببلدة المنزل يسمى (جامع سيدي بو على) ، وهو مسجد قديم جدد بناؤه في العهد الأخير يومه المصلون بكثرة ، ويزعم أهل تلك الجهة أن المسجد منسوب لسيدي أبي على النفطي^(٤) ، ولكن أبا على النفطي تنسب له زاوية ومسجد بجهة القصر بجارة ، وإلى هناك يذهب الزائرون وتساقي النور والهدايا . وسألنا السكان كيف يكون

(١) La Berberie orientale Sous les Hafsidles T.1 p 319 .

(٢) قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني ، ولد في القيروان وبها تلقى معارفه الأولية ثم قدم إلى تونس فقرأ على الإمام ابن عرفة والبرزلي والأبي والرعبى والشبيبي والوانعى والغريبي وتولى القضاء في باجة وجربة وقابس والأربس وتنة وسوسة والمنستير والقيروان وله تأليف كثيرة منها شرح على رسالة ابن أبي زيد وشرح على المدونة واختصر وعلق على معالم الإيمان للدباغ وهو مطبوع في أربعة أجزاء وتوفى بالقيروان سنة ٨٣٨ هـ .

(٣) معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٤) أبو على النفطي زاهد متعبد نشر مذهب السنة في الجريد ونفزاوة ، وقد كانت هذه الجهة على المذهب الأباضي ، وتوفى سنة ٦١٠ هـ ودفن بقرية المشهور قرب نقطة بالجريد .

لهذا الولي مسجدان في بلد واحد ، فلم نجد عندهم جواباً وكادت أظن أن هذا المسجد إنما هو المسجد الذي تعرض له ابن ناجي وأن قرية المعافرين كانت هناك وأن السور المار بذلك المسجد إنما هو سور جديد . وقد ذهب بي التكهن إلى أبعد من هذا حيث عثرت على داموس تحت الأرض في طرفها (جبانة سيدى مرزوق) - وهي مقبرة قديمة اندثرت الآن وسويت أرضها ومهدت - وفي الجهة التي تقع شرقي المسجد المذكور مباشرة يسمى هذا الداموس (غار معافى) فن القريب جداً أن يكون أصل التسمية (غار المعافرين) إضافة لقرية المعافرين المندثرة ، كاد هذا الوهم أن يضلني حتى عثرت أخيراً على آثار السور وتمكنت من تحديد المدينة الإسلامية (انظر الخريطة) ، واهتديت إلى ضريح سيدى على الظاهر في الخريطة وهو يقع قرب المصلى بين سيدى المشرق وسيدى أبي لبابة ولم يبق أثر للمسجد الذي تحدث عنه ابن ناجي وإنما هناك (قبيلة) صغيرة جداً يزورها السكان ويجانها منازل للسكنى قائمة على أنقاض قرية (المعافرين) القديمة .

الأرباض والأسواق :

ذكر التجاني أن جل أسواقها في أرباضها ، وحدد البكري مكان بعضها بأنها قبلى المدينة وشرقيها ، ولا شك أن الربض القبلى كان حوالى سيدى أبي لبابة وربما بينه وبين عين سلام ، ولم تبق هناك سوق الآن ، وإنما انتقلت هذه السوق لبلدة المنزل نفسها بجانب الجامع الأعظم ، (جامع المنزل) والربض الشرقى هو (جارة) التي يظهر أنها سميت بهذا الاسم لمجاورتها للمنزل ، ولا تزال سوق جارة منتصبة إلى اليوم ، ولعلها هي نفسها سوق الحريريين التي نص الإدريسي على أنها كانت بين المدينة والبحر .

وعلى كل فالمدينة القديمة - مع أرباضها - على جميع التقديرات -

كانت تمتد من قبلى (خزانة الماء) إلى حد (المنزل) شمالا ومنه إلى (ظهره قراوش) شرقاً ومنها إلى (محطة القطارات) قبلة ، ثم تمتد غرباً في خط مائل للقبلة إلى جهة عين سلام ، هذا هو المكان التقريبي للمدينة القديمة حسب الاحتمالات التي تهدينا إليها أقوال المؤرخين ، وهي مساحة تناسب مع ضخامة عمرانها ووفرة سكانها التي أشار إليها البكرى بقوله (١) « ذات حصن حصين وأرباض وأسواق وفنادق وجامع سرى وحمامات كثيرة » .

السور :

أما سور المدينة فإنه كان يمتد كما في الخريطة من الباب الشرقي إلى سيدى المشيرقى غرباً ، ثم ينعطف شمالاً إلى باب سيدى عبد النافع ، ثم ينعطف شرقاً إلى باب القنطرة ومنه ينحرف إلى الجنوب الشرقي إلى زاوية سيدى ابن عيسى ، ومنها ينعطف إلى الغرب قليلاً ثم ينكسر إلى جنوب حتى يتصل بالباب الشرقي ماراً بجامع سيدى أبى على ، وعلى هذا فإن المدينة الإسلامية القديمة كانت مكان المنزل الآن حسبما تدلنا عليه آثار سورها ، زيادة عما عرف من الآثار الإسلامية أن الجوامع هي آخر ما يبقى من آثار المدن ، وأنها في الغالب تبقى محترمة لا يجرؤ الناس على مسها بالتخريب ، وإذا بحثنا مكان جامع قابس القديم ، نجد أمامنا جامعين أحدهما بجارة والآخر بالمنزل ، وإذا طرحنا من حسابنا جامع جارة لأنه حديث التأسيس (٢) لم يبق لدينا إلا جامع المنزل ، فقد حدثني الأستاذ مصطفى زيبس متفقد الآثار الإسلامية أنه زار هذا الجامع قبل تجديده الأخير واكتشف في أحد أبوابه رخامة منقوشة تدل الكتابة التي بقيت فيها على قدمه السحيق .

(١) المسالك ص ١٧ .

(٢) حدثني الأستاذ مصطفى زيبس أنه شاهد في جامع جارة قبل تجديده كتابه تدل على أن مؤسسه هو (محمد باى بن مراد بن حمودة باشا المراسى) (١٠٩٦ - ١١٠٨) ومحمد باى هذا هو الذى بنى مدرسة أبى لبابة بقابس .

إذا كان جامع المنزل هو جامع قابس القديم الذى يذكر التجانى^(١) أنه قرب قصر العروسين وأن القصر بجانب البطحاء أمكننا أن نقول إن البطحاء هى سوق المنزل الآن وهى بجانب الجامع وأن القصر كان يقع فى أحد جوانب السوق .

بناء السور من (الصخر الجليل من بنىان الأول)^(٢) ، ولا شك أن الصخور التى بنى بها السور هى آثار بنايات (تاكاب) القديمة ، ولكننا لا ندرى متى أحدث هذا السور الذى يتحدث عنه البكرى مع اعتقادنا أنه حول عن مكانه الأول بسبب توسع المدينة وأنه جدد ورسم مرات ، ولهذا السور ثلاثة أبواب وهو عدد اتفق عليه كل من المقدسى^(٣) والبكرى^(٤) ، ولكننا لانعرف مواقعها من السور إلا واحداً حدد مكانه الورتلانى^(٥) بأنه (تجاه أبى لبابة بعيدا منه من جهة البحر) ، والبابان الباقيان نقدر بأن أحدهما يتجه إما إلى (جارة) أو إلى جهة (عنبر) ، والثانى شمالي الاتجاه ، لأن هاته الجهات تمتد منها الطرق للأرباض والغابة ، ولم يبق من هذا السور الآن إلا بعض آثار أبوابه التى يعرفها بعض شيوخ البلد حين كانت قائمة الذات وقد هدم وتوزع السكان أحجاره فاستعملوها فى بناء منارلم ، وتوجد هذه الأحجار الضخمة إلى الآن فى جميع بنايات المدينة وخاصة القديمة منها يستعملونها فى أصول الجدران ، والظاهر أن السور قد تخرب منذ عهد بعيد إلا أنه لم يضمحل تماما إلا أوائل القرن الحالى .

(١) الرحلة ص ٩٤ .

(٢) مسالك البكرى ص ١٧ .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .

(٤) المسالك ص ١٧ .

(٥) نزعة الأنظار ص ٦٥٢ .

الحمد :

بقي الخندق الذى كان يحمى المدينة ، فلا نشك أنه مجلوب من وادى السيل من نقطة تقع فى الجنوب الغربى من سيدى المشيرقى حيث توجد إلى الآن صخور تدل على أن ذلك المكان كان مفتوح الخندق ويفتح عند الحاجة كما قال البكرى : « وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة فيكون أمنع شيء » ومكانه من الغرب والجوف حيث مجرى الوادى الآن ، أما جزؤه القبلى فيمتد مع وادى بوشاعة الآن ويتصل بوادى السيل شمالى قصر أولاد الجبالى ماراً بين المنزل وجارة إلا أن هذا الخندق لم نر له ذكراً فى الكتب التى ألفت بعد مسالك البكرى ، ويظهر أنه عطل وانطمس منذ القرن السادس بسبب امتداد أرباض المدينة .

هذه مدينة قابس ذات الواحة الناضرة والمعالم الزاهرة والمصانع والمباني الفاخرة التى تغنى بجمالها الشعراء والكتاب وحبروا القصائد والفصول الطويلة فى مدحها وذكر مباحجها ومفاخرها ، وخلدوا آثارا فى التشوق والحنين إليها طغت على حنين شعراء الجزيرة لجد (١) ، قال أحدهم :

لئن كان من قبل التفرق مذهبي	سوى ما عليه الأشعريون أصفقوا
بأن المسمى غير الاسم فيها أنا	أقول سواء حين جسد التفرق
ألم تر أتى كلما قلت (قابس)	صفاقيس من جانب القلب يحرق
وإن قلت إن الشمل منها ممزق	فإن فوئدى عند ذاك يمزق

ولكن لا يخلو شيء فى الدنيا من مادح وقادح ولا يسلم الجمال من العين

(١) قد مضى شيء مما قيل فى ملح عابتها ، وستأتى نبذ من أقوال الشعراء والكتاب فيما يأتي وخاصة فى تراجمهم بالباب السادس .

[الناقدة ولا الجميل من العس الناكرة ، فإذا كان الناس قد تغالوا في المدح
بجمال قابس حتى أطلقوا عليها اسم (جنة الدنيا) و (دمشق الصغرى) ،
فقد وجد من بينهم المنصف الذى مدح ما يستأهل المدح وعاب ما يستوجب
العيب كالتجاني الذى عاب فيها (بيع الفضلات) يستعملونها سماداً للخضر
وهو أمر معروف فى جميع الواحات فلا تختص به قابس . . . وذكر البكرى
من عيوبها كثرة الأوبئة ، وعللها التجاني بوخامة مائها وكثرة عفوناتها وهى
أشياء انقطعت الآن والحمد لله بفضل الاحتياطات الصحية والأنظمة
العصرية التى أدخلت على مجارى المياه ، وعاب أبو المطرف^(١) فى قابس كثرة
عقاربها .

وهناك رحالة واحد لم يذكر لقابس حسنة واحدة ، وإنما اقتصر على
ذكر عيوبها والتشنيع على البلد وأهله وهو الرحالة العبرى الذى زارها
فى القرن السابع والذى اشتهر فى جميع كتاباته بالإسراع إلى الدم والشئمة ،
فقال عن قابس : « ذات المنظر الخبيث والحيا العابس ، هواء ونخيم ولو ثم طبع
ونخيم . . . إلى عفونات تجبو لقرها المصاييح ، وتمحو بالنحول كل وجه
صبيح . . . ودارت به غابة من نخيل قد طلست ثمرتها بكف كل بنخيل . . .
غلى أن الهواء العفن قد منعها الجفوف . . . الخ » . وهكذا يظهر تحامله من
سكوته عن جمال غابتها الذى اتفق الناس على روعته .

(١) انظر رسالته فى وصف عقارب قابس فى ترجمته بالباب السادس .

الفصل الثاني

معالم المدينة

قصر العروسين - الجامع الأعظم - عين سلام - المنار - الرباطات وغيرها

قصر العروسين :

من أغرب ما يحكيه التجاني^(١) أن المعالم الموجودة بقابس كالعروسين والمنار وعين سلام توجد بنفس أسمائها في قلعة بني حماد^(٢)، ولكنه لم يذكر لنا هل هذه الأسماء نقلت من القلعة إلى قابس أو العكس وهو الراجح عندنا لأسبقية وجود بعض هذه المعالم قبل وجود القلعة كالمنار وعين سلام .

وقد حدثنا المؤرخون عن مؤسس منار وعروسي القلعة ولكنهم سكتوا عن مؤسس منار قابس واختلفوا في مؤسس عروسيها ، فقصر العروسين بالقلعة أسسه الناصر بن علناس بن حماد^(٣) ، وقد ذكره أبو عبد الله محمد ابن علي بن حماد^(٤) الشاعر الصنهاجي في رثائه للقلعة ومعالمها إثر حرابها بقوله :

(١) الرحلة ص ١١٥ .

(٢) قال عنها معجم البلدان ج ٤ ص ٣٩٠ . « مدينة متوسطة لما قلعة عظيمة بناها حماد ابن بلقين على قلة جبل (باقربوست) وليس لما رواه حسن إنما اختطها حماد للتحصن والامتناع ، لكن يحف بها رساتيق ذات غلة وشجر مشركالتين والعنب في جبالها وليس بالكثير . . . وبينها وبين سكرة مرحلتان وبينها وبين سطيف ثلاث مراحل ، وقد حررت بعد نقل العاصمة إلى بجاية في عهد المنصور بن الناصر الحمادي سنة ٤٨٣ هـ .

(٣) عاصمته القلعة ، تولى الحكم سنة ٤٥٤ وتوفي ٤٨١ هـ .

(٤) محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي أصله من قرية (حمزة) -

أين (العروسان) لا رسم ولا طلل
ومجلس النوم قد هب الزمان له
وما رسوم (المنار) اليوم ماثلة
وبقوله من قصيدة أخرى .

وقد قام (المنار) على ذراها
بناء يزدرى ليوان كسرى
كما قام (العروس) أو الأمير
لديه والحورنق والسدير

أما قصر العروسين بقابس فقد ذكر ابن خلدون^(١) أن الذي اختطه
هو رافع بن مكى بن كامل بن جامع الرياحي ثاني أمراء بني جامع بقابس ،
ثم نقل عن ابن نخيل أن مؤسسه هو رشيد بن كامل ! وهو ما ذكره التجاني
أيضاً حيث قال^(٢) : « وأهل قابس ينسبون بناءه لرشيد بن مدافع بن جامع
أحد من تملكها منهم . . . وقد وقفت في بعض أبواب القصر على أسطر
كثبت نقشاً في الحجر نصها : (أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع
ابن أمير الأمراء مكى بن كامل بن جامع^(٣) . في رجب سنة ٥٠٠ هـ (فإن كان
ما يذكره أهل قابس من أن رشيدا هو الذي ابتناه صحيحاً فيكون هذا الباب
خاصة هو الذي أمر ببنائه رافع بن مكى . وأخبرني بعض الطلبة من أهلها
أنه وقف لبعض المؤرخين على أن صنهاجة هم الذين ابتدأوا بنيانه وانتهوا
به إلى قدر ثلثيه فأتمه بنو جامع الهلاليون » .

= من أحواز القلعة، وكان من كبراء أئمة العلم بها - قرأ ببجاية والجزائر وتلمسان وولى
القضاء في عدة جهات من المغرب، وله تأليف كثيرة منها، شرح مقصورة بن دريد : وتلخيص
تاريخ الطبرى، والنبد المحتاجة في أخبار صنهاجة . وتوفى سنة ٦٢٨ هـ (عن عنوان الدراية
للغبريني) .

(١) ج ١ ص ٢١٤ ط الجزائر .

(٢) الرحلة ص ٩٥ .

ويظهر أن في كلام التجاني هذا خطأ تاريخياً وخطأً بين أسماء أمراء بني جامع لا بد من توضيحه هنا ولو أن مناسبتة ستأتي في الباب الخامس إن شاء الله .

يفهم من كلامه أن رافعا قد فتح الباب الذي تحدث عنه بعد بناء رشيد للقصر ، إذ لا يعقل أن يفتح الباب ويكتب فوقه اسم مؤسسه والقصر لم يقع تخطيطه بعد ، ومعنى هذا أن ولاية رافع لقابس كانت متأخرة عن ولاية رشيد ، وهو ما لا يتماشى مع ما ذكره المؤرخون ، فابن خلدون يذكر (١) أن تيميا قد افتك قابس من أخيه عمر سنة ٤٨٩ هـ ثم لم تلبث قابس أن ثارت عليه وتملكها العرب وتولى أمرها منهم مكى بن كامل بن جامع وورثها عنه ابنه رافع بن مكى الذى بنى الباب المشار إليه سنة ٥٠٠ هـ ، وهو الذى وقعت الوحشة بينه وبين على بن يحيى الصنهاجى سنة ٥١١ هـ فهاجمه هذا وأخرجه من قابس ليتولى بعده حسب رأى ابن خلدون (رشيد) الذى نسب إليه ابن نخيل والتجاني بناء القصر والذى يحدد ابن الأثير (٢) وفاته بسنة ٥٤٢ هـ .

ويستنتج من هذا كله أن نسبة تأسيس القصر للأمير رشيد خطأ إلا أن يكون قد أدخل عليه زيادات ، أما المؤسس الأول للقصر فيمكن أن يكون (رافع بن مكى) ويمكن أن يكون الولاة الصنهاجيون وهو ما نرجحه للأسباب التالية .

١ - لأن عصر المعز الصنهاجى كان عصر تبحر العمران وفيض الخيرات والبلدخ فلا بد أن يكون ولاته على غراره :

(١) انظر الباب الخامس من هذا الكتاب - الفصل الخاص ببني جامع .

(٢) الكامل ج ٩ ص ١٦ .

٢ - لأن الصنهاجيين كانوا أقرب من الهلاليين لسلوك سبل المدينة والحضارة في الملبس والمسكن والسيره يدل على ذلك قصة (طائر السمندو) التي ذكرها البكري والتي ستأتي الإشارة إليها في الباب الخامس .

٣ - ما ذكره التجاني رواية عن بعض الطلبة من أن القصر من بناء الصنهاجيين وأن بني جامع أكملوا بناء نحو ثلثه فقط .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بنسبة تأسيس القصر للصنهاجيين وجاء بنو جامع فأكملوه على كرات ، أي أن (رافعا) قد أتم البناء الأول وأضاف إليه رشيد بعد ذلك إضافات .

بقي موقع هذا القصر ، فن المحقق أنه كان بجانب (سوق المنزل) في الجهة المقابلة للجامع كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، والظاهر حسب أقوال المؤرخين أن القصر كان على غاية من الدرف والبدخ والزينة والتحصين أيضاً ، فإن التجاني الذي رآه وقد دب فيه الهرم (قد استولى الخراب في وقتنا هذا على القصة وعليه) (١) يصفه بأنه : (المنبى المشتهر المعروف بالعروسين الذي لا يرى مثله ظرفا وحسنا) (٢) .

وقد بقي هذا القصر معروفا إلى نهاية القرن الثامن ، إذ نجد ذكره في حوادث عبد الوهاب بن مكى وعمه يحيى حوالي ٧٩٠ هـ ويظهر أن آثاره لم تندرس إلا في القرن التاسع إثر انقضاء عهد استقلال قابس بانقراض بني مكى بعد ما بقي هذا القصر من أضخم المعالم بقابس مدة أربعة قرون تقريبا .

الجامع :

أما جامع مدينة قابس فقد سبق لنا تحديد مكانه قبل هذا وقد وصفه

(١) الرحلة ص ٩٥ .

(٢) انظر الباب الخامس .

البكري^(١) بأنه (جامع سرى) ووصفه التجاني^(٢) بأنه (مسجد متسع له منار مرتفع قد مال وخرج عن الوزن إلا أنه لصحة موضعه لا يخشى من وقوعه) وبأنه يقع على مقربة من قصر العروسين .

البطحاء :

من معالم المدينة التي تغنى بها الشعراء :

قال فيها أبو عبد الله محمد بن العطار القرطبي^(٣) :

لحقني على طيب ليالٍ خلعت يجانب (البطحاء) من (قابس)
 كان قلبي عند تذكارها جذوة نار في يدي قابس
 ويؤخذ من كلام التجاني^(٤) أن الجامع كان مطلاً عليها وأنها كانت في
 (سرة قابس) أي قلب المدينة حيث قال متحدثاً عن نزوله بدار عبد الملك
 ابن مكى^(٥) : « ودار ابن مكى هذه مجاورة لجامع قابس الأعظم
 يبطحاء متسعة وتلك البطحاء هي قابس والبطحاء اسم علم لها » .

(١) البكري ص ١٧ .

(٢) الرحلة ص ٩٤ .

(٣) وصفه المقرئ في نفع الطيب ج ٢ ص ٣٢٤ نقلاً عن ابن سعد « هو حلز المنازع ظريف المقاطع والمطالع ما زجته بالإسكندرية وبهذه الحصرة العلية وما زال يدين بالانفراد والتجول في البلاد حتى قضى مناه وأتى هذه المدينة عصاه لا يحظر له بال ولا بيت إلا على وعد من وصال » قال المقرئ : ويمى - واقه أعلم بقوله (هذه الحصرة العلية) ، حضرة تونس المحروسة ، ويظهر أنه قال هذين البيتين في (قابس) في زيارة قام بها إليها أثناء إقامته بتونس . ومن شعر ابن العطار الرائع القطعة الآتية المنشورة بـ (الفتح المثل) لابن سعيد ص ٢١٦ ط مصر :

ألا ياساق الخمر أدر صفراء كالتبر
 وقم يا ندر فاجل الشم من بين الأنعم الزهر
 فإن الصبح قد أبدى لنا عن صفحة البشر
 وقد أيقظت الأنداء فيه أعين الزهر
 ودر الطل منطوم يحيد النصن النضر

(٤) الرحلة ص ١٧٨ .

(٥) انظر الحديث عن عبد الملك هذا في الباب الخامس .

المقبرة :

ونعنى بها المقبرة القديمة المشهورة بمقبرة سيدى مرزوق ، وتقع شرقى بلدة المنزل القديمة ومن طرفها الغربى يطل عليها مسجد (سيدى بو على) الذى تحدثنا عنه سابقاً ، وتشرف عليها من الشرق مدرسة المنزل الابتدائية ، ويجدها طريق (المنزل - جارة) من الشمال ، أما من القبلة فتمتد إلى مسافة شاسعة ،

وقد تركت هذه المقبرة منذ زمان بعيد وأهمل أمرها ، وطمست آثار قبورها ، وسويت بعض جهاتها ، وفتحت فيها طرق جديدة تربط بين جهات بلدة المنزل المتناثرة ، ولا يزال كثير من قبورها مدفونة تحت التراب ، وليس بالإمكان أن نحدد الزمن الذى وقع فيه إهمالها ، وكل ما استطعنا معرفته من آثارها أننا اطلعنا على بعض رخامات (قبريات) مكتوبة . وجدت مدفونة تحت التراب يرجع تاريخها إلى القرن السابع للهجرة ، بعضها محفوظ بجامع المنزل وبعضها عند السيد الهادى العمرانى شيخ المنزل .

وحدثنى أستاذى حسن عبدالوهاب أنه رأى سنة ١٩١٢ بسور حديقة المراقبة المدنية رخامات كتب عليها بالخط الكوفى تدل على أنها كانت على قبور بعض أمراء بنى جامع الدين دفنوا بقابس ، ولا شك أن هذه الرخامات منقولة من المقبرة المذكورة .

عين سلام وعين الأصيل :

يقول التجانى (١) : « من المكاره التى حفت بها لجنة قابس ما يتعاهدها

(١) الرحلة ص ٨٩ .

وينتاب ساكنها من الأمراض ، وسبب ذلك فيما يذكر أهلها كثرة شجرة الدفلى بها فيكتسب الماء منها لدى جريه سمية ومرارة تضر بأبدان إساكنها كثيراً ، ولذلك لا تجد وجوه كثير من أهلها إلا مصفرة « وليس في جميع مياهها ما يسلم من ذلك إلا العين المعروفة بعين الأمير والعين الأخرى المعروفة بعين سلام ، فإن ماء هاتين يسلم من الفساد لعدم مروره على الدفلى ، والأولى منهما منسوبة للأمير الأزدي المعروف بابن الصغير^(١) ، وأما الثانية فالمشهور في اسمها عين سلام باللام مخففة ، وهي إنما توجد في عقودهم القديمة عين سنام بالنون » .

ويتضح من كلمة التجاني هذه أن عين سلام معروفة من قبل القرن الثامن الذي زار فيه قابس بزمان طويل وأنها كانت تسمى (عين سنام) بالنون ، وأن شهرتها باللام في عصره إنما هي تحريف للاسم القديم ، وقد كنا أشرنا إلى وجود (عين سلام) ثانية بقلعة بني حماد ورجحنا هناك أن اسمها منقول من اسم عين قابس ، وقد يكون الناقل لأسماء معالم قابس إلى القلعة أحد الأمراء الصنهاجيين الذين عرفوا قابس قبل انتقالهم إلى القلعة ، وإذا صح هذا التكهّن ، مع ملاحظة أن القلعة ظهرت شهرتها في القرن لخامس للهجرة وقدرنا أن اسم (عين سلام) بالقلعة ظهر في هذا القرن ، إذا صح هذا التكهّن فإن (عين سلام) بقابس كانت معروفة بهذا الاسم

(١) لم نثر على ترجمته في المراجع التي بين أيدينا ، ولعله كان أحد الأمراء الذين تولوا الخطط في قابس ، كما أننا لم نثر على أثر لهذا الاسم في المائلات ولا على التاريخ الذي وحد فيه هذا الأمير وفي صائفة ١٩٥٨ عثرت على حجر (قبرية) محفوظ بجامع المنزل كان نزع من ماجل الجامع عليه كتابة طمش أولها وبقي منها محمد بن أبي العرب الأردى توفي رحمه الله في شوال سنة سبع وستائة . ولست أدري إذا كان يصح التكهّن بأن صاحب القبر قد يكون من عائلة الأمير الأزدي الملقب بابن الصغير والمنسوبة إليه عين الأمير .

منذ القرن الرابع وأن العقود القديمة التي يشير إليها التجاني قد يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الرابع ، بل نكاد نتوقع أن هذه العين كانت موجودة ومعروفة قبل الإسلام ، ويساعدنا على هذا التكهن موقع منبعها الذي يوجد في البطحاء الواسعة المجاورة لآخناة طريق مطاطة المعبد الصادر من قابس نحو اليمن قبل وصوله لشكنة الجيش المعروفة بشكنة سيدى أبى لبابة ، وهذا الموضع يقع قرب ربوة (خزنة الماء) حيث رجحنا أن تكون المدينة القديمة (تاكاب) ، وكنا أشرنا سابقاً أيضاً أن المدينة القديمة ربما كان يستقى بعضها على الأقل من هذه العين إذا صح قدم وجودها .

(عين سلام) الموجودة بقلعة بنى حماد تقع قرب القلعة بالوادي المعروف بـ (وادي جراوة)^(١) ، وقد ذكرها أبو عبد الله محمد بن علي ابن حماد الذي مر ذكره في شعره فقال :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي الجوا ما بين تلك الجداول
وهل أردن (عين سلام) على الصدى فأبرد من حر الضلوع النواحل

وقال :

على (عين سلام) سلام صب غذاه ماؤها العذب النير
تأود أيكها وجرت صباها وشم لها كما فتق العبير
وأبرد ما يكون الماء فيها وأندى حين يحتدم الهجير
وما أدرى أيجرى فوق در ؟ أم ابتسمت بمنبعها الثغور ؟

هذا ماء (عين سلام) القلعة ، أما ماء عين سلام قابس فليس بهذب ولكنه أحسن طعماً وأخف شرباً من عين الوادي ، وما زالت العين جارية في قنوات مطموسة تحث الأرض يشرب منها الناس إلى اليوم .

أما عين الأمير فلا أثر لها اليوم ، ولا ندرى متى طمست ولا يعرف أحد موقعها ، وإنما يرجح بعض أهل قابس أنها كانت قرب مكان عين سلام ، وقد تكون منبعاً ثانياً لعين سلام سُمِّيَ باسم الأمير . ولا نشك أن هذا المنبع قد ظهر بعد عين سلام برمان طويل ثم طمس أثره وبقي المنبع الأصلي .

المنار — أو المنارة :

ما زالت آثار أحجاره شاهدة على الربوقة الواقعة عربى (زريق الدخلانية) جنوبي قابس ، ولا نعرف تاريخ تأسيسه ولكننا نعرف أنه كان (مناراً مرتفعاً يظهر للآتى من جهة المشرق قبل وصوله إلى البلد بمسافة بعيدة)^(١) ، وكان في عصر البكرى (القرن الخامس) ذا شهرة عظيمة يتغنى به حداة القوافل خلف إلهم الحملة فيقولون^(٢) :

لا نوم ، لا نوم ولا قرارا حتى أرى قابس والمارا
وقد أخبر التجانى حين زار قابس سنة ٧٠٦ هـ بأن المنار (سقط فلم يبق له أثر)^(٣) .

ومن الغريب أن يجور الدهر على سميهِ وشبهِهِ (منار قلعة بنى حماد) يمثل ما جار عليه فيضمحل بعد شموخ ، وينطمس بعد شهرة ، فينذبده شاعر القلعة أبو عبد الله بن حماد المار ذكره بقوله :

وما رسوم المنار اليوم ماثلة
لكنها نبذ يجرى بها المثل
ويصفه بقوله :

وانظر طيقان المنار مطلة
كان القباب المشرقات بأفقه
على الوجنات الزاهرات الحمائل
بجوم تبدت في سعود المنازل

(١) رحلة الصحاح ٩٤ .

(٢) المسالك ص ١٧ .

(٣) الرحلة ص ٩٤ .

لكن منار قابس الذى تغنى به الحدادة القدماء لم يجد من يندب آثاره ويخلد لنا شهرته واعتباره .

الرباطات :

من المعروف أن الأغالبة كانوا أبرز الأسر الحاكمة التى تركت بإفريقية آثاراً من الحصون والرباطات والمصانع والمعالم العمرانية ما خلده لهم الدهر ، وفى مقدمتهم الأمير أبو إبراهيم أحمد الأغلبى (٢٤٢ - ٢٤٩ هـ) الذى انتظمت على عهده الحصون والرباطات البحرية على شاطئ البحر من آخر حدود مملكته الغربية إلى حدود برقة ، وكانت هذه الرباطات تتقارب مسافاتنا بحيث تستطيع إيصال الإنذار بالخطر إلى بعضها فى ساعات قليلة بواسطة الأضواء الملونة ، ومن هذه الرباطات ما كان على ساحل قابس وما جاورها ، فنجد فى الإدريسي مثلاً اسم (قصر ابن عيشون) على ثمانية أميال من قابس جنوباً وعلى ثمانية أميال للجنوب منه (قصر زجونة) .

أما على شاطئ مدينة قابس فنجد رباطاً سماه الغرينى^(١) (مسجد الصهريج) كان يربط به العلماء والنسك ويتعبدون به ، وذكر لنا من بين من رباطوا فى هذا المسجد (أبا الحسن على النيرى الششتري) الصوفى الزاهد تلميذ (ابن سبعين)^(٢) .

قال الغرينى^(٣) : « من مناقبه . لما نزل بقابس برباط البحر المعروف بمسجد الصهريج وجاءه الشيخ الصالح أبو إسحاق الورقانى^(٤) للزيارة فوجد

(١) أبو العباس أحمد الغرينى مؤلف كتاب (عنوان الدراية فى من عرف من العلماء فى المائة السابعة ببهاية) .

(٢) انظر ترجمته فى الباب السادس .

(٣) عنوان الدراية ص ١٤١ .

(٤) انظر الحديث عنه فى الباب السادس .

الشيخ خرج في خلوة وانتظره حتى دخل وسلم ، وعليه أثر البكاء وطلب مداداً وكتب في اللوح .

لا تلتفت بالله يا ناظري لا هيف كالغصن* الناصر
يا قلب واصرف عنك وهم البقا ونخل عن سرب حمى حاجر
ما السرب ، ما البان وما لعلع ما الخيف ، ما ظبي بنى عامر
جمال من شميتة دائر ما حاجة العاقل بالدائر
وإنما مطلبه في الذي هام الورى في جنسه الباهر
فالشعب والعير لمثليي ألا أنى من أجل الأول الآخر
أفاد للشمس سننى كالذى أعاره للقمر الزاهر
أصبحت فيه مغرماً حائراً لله در المغرم الحائر .

ولم يبق لهذا الرباط أثر ، ونجهل لحد الآن مكانه ، ولعله يكون على ساحل المرفأ البحرى قرب مصب الوادى ، وظن بعض الباحثين أنه ربما كان في مكان زاوية سيدى أبى إسحاق بظهرة قراوش شرقى سوق جارة الآن نظراً لأن أباً إسحاق نفسه كان يتعبد في هذا المسجد ، ولكننا نستبعد أن تكون ظهرة قراوش هى مكان الرباط القديم نظراً لوجود بساتين النخيل بين الزاوية وبين البحر ، والمعروف أن الرباطات إنما تجعل لحراسة الشواطئ بحيث لا يفصلها شىء عن البحر .

قصر سجة :

قال عنه الإدريسي (١) : « ولها واد يأتها من غدير كبير وعلى هذا الغدير (قصر سجة) وبينه وبين قابس ثلاثة أميال . ويفهم من هذا النعت أن القصر كان عند (رأس الوادى) وهناك آثار أحجار مبحرة ربما كانت بقايا بناء قديم اضمحل وكادت أتوهم أنها آثار القصر ولكن

(١) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

الأحجار دلت على أنها من بناء حديث لأنها من النوع المستعمل في الأكواخ والبناء الخفيف ، وإذا صح وجود بناء هناك فهو بلا ريب من آثار الجيش الفرنسي الذي نزل في ذلك المكان عام الاحتلال (١٨٨١ م) حين أظهرت قابس المقاومة . قالت دائرة المعارف الإسلامية : « على أثر رمى صفاقس بالقنابل توجهت على جناح السرعة قوات فرنسية إلى مدينة قابس . . . وأقامت مركزاً عسكرياً برأس الوادي لحراسته والسيطرة عليه ، لأن مياهه هي التي تعيش منها الواحة » .

وعلى كل فإننا لا نشك أن قصر سجة كان بذلك المكان وكان القصد من إقامته هناك حراسة منبع المياه .

الفصل الثالث

اقتصاديات المدينة

الزراعة - الصناعة - التجارة

الزراعة:

كنا أشرنا في الفصل الثاني من الباب الأول إلى ما تنتجه غابة قابس من غلات وتعرضنا هناك بالخصوص إلى الحرير والموز والزيت والرمان الخ .. ونضيف هنا إلى ما سلف زراعة الحبوب التي تدر على قابس ما يفي بم حاجتها وأكثر أحيانا .

وحقول الحبوب المعروفة اليوم هي السفوح والسهول الغربية الممتدة إلى ما وراء (سيدي قناوى) غربا ومنه جوف الروابي المطلة على بلدة الحامة من الجنوب وعلى كامل السهل الممتد على جانبي طريق قابس - مطماطة وبعض الحقول القبلية المتناثرة مع طريق مدين خارج الواحات المنتشرة في هذه الجهة .

والملاحظ أن أكثر واردات الحبوب تأتي من السهول الزراعية الشمالية الممتدة وراء جبل (خنقة عيشة) إلى حدود قفصة ومن أراضي (الحامة) كسهول (شانشو) بينها وبين قابس ووجهات جبل (السقي) ، وقد عرفت هذه الجهة بزراعة الحبوب منذ القديم ولا تزال لحد الآن تتبع الطرق القديمة في الحرث والحصاد ، فالحرثة تقع بواسطة الجمال والخيول ، والحصاد بواسطة (المنجل) ، وقد ظهرت بواحد في الأعوام الأخيرة للآلات الميكانيكية في (الحرث والحصاد والدرس) لكنها قليلة والظاهر أن نكرة الأمطار بالجهة هي التي أخرجت ظهور الوسائل الحديثة

في الزراعة إلى اليوم ، فالأراضي هناك كريمة جدا تضررت في سنوات الخصب أرقاما خيالية في نتاج الحبوب ، ولكن هذا لا يحصل إلا في كل خمس سنوات مرة تقريبا وبقية الأعوام إما مجدبة أو ضئيلة النتاج بسبب قلة الأمطار .

ولا تعرف هذه الجهة لحد الآن من أنواع الحبوب أكثر من القمح والشعير ، وأغلبية أراضي الحبوب يملكها سكان أحواز قابس وتصريف نتاجها يقع في أسواق قابس والقرى التابعة لولايتها .

وتتبع زراعة الحبوب تربية الحيوان فجهات قابس صالحة لتربية الحيوان حيث توجد قطعان عظيمة من الغنم والمعز ، أما بقية أنواع الحيوان فقليلة . وتصدر هذه الجهة كمية وافرة من الأغنام لأسواق اللحم بالمدن الداخلية ، ولحم خروف ودران^(١) من أشهر اللحوم المرغوبة في الأسواق التونسية .

الصناعة :

وكنا أشرنا أيضا إلى صناعة الحرير وعصر الزيت بقابس في الباب الأول ، وبقى من الصناعات المشهورة في قابس منذ القدم صناعة (ديغ الجلود) التي أشار لها ابن حوقل بقوله^(٢) : « ولها أسواق وبجهاز كثير ويعمل بها الحرير وتدبغ بها الجلود » . وأشار الإدريسي إلى أن قابس كانت تصدر هذه الصناعة للخارج فقال^(٣) : « وبها الآن^(٤) مداين للجلود ويتجهز بها منها » .

(١) مرجع خصيب بالجهات الشمالية من قابس .

(٢) المسالك ص ٤٧ .

(٣) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

(٤) جغرافيا مصنف القرن السادس .

ولاندرى إذا كانت هذه الصناعة قديمة العهد وسابقة للإسلام أم أدخلها المسلمون ؟ ،

وعلى كل فقد كانت مزدهرة في القرن السادس وكانت من جملة الصناعات التي تستوردها البلدان الأخرى من قابس .

والظاهر أن المدايغ كانت بأرباض المدينة وأن عملها قد تعطل أو ضعف إنتاجه في القرن الثامن ، إذ لم يشر إليها أحد بعد الإدريسي وعلى الأخص التجاني الذي عودنا بالإشارة إلى جميع الصناعات المشهورة ، وقد انقطعت هذه الصناعة الآن ولم يبق لها أثر .

ومن الصناعات القديمة التي استمر وجودها إلى اليوم وتطورت وتحسنت أساليبها المنسوجات الصوفية كالبطانية والفراشية والكليم والمرقوم والزربية ، فهذه الصناعات منتشرة في قابس والمطوية ووذرف إلى اليوم وأنواعها مرغوب فيها في جميع الأسواق .

وقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية إلى جودة المنسوجات الصوفية بقابس من قديم إلا أن أساليب صناعتها وآلاتها لم تتغير ، فما زالت تصنع حسب الطرق القديمة بواسطة (المنسج) العادي ، وهي صناعة تكاد تكون خاصة بالنساء ، وقد جعلت الحكومة هذه الصناعات من بين مواد التعليم (بمركز التكوين الصناعي للبنات) وعلى الأخص صناعة الزربية .

وفي المدة الأخيرة دخلت صناعة تصبير الأسماك إلى قابس بتأسيس مصنع حديث لهذا الغرض لا يزال في بدايته .

التجارة :

أما التجارة فقد كنا أشرنا إلى أهمية مركز قابس التجاري قديما وحديثا وخصصنا بالذكر حركة المرفأ البحري وحركة سوق الرقيق قديما .

وهذه الأهمية التجارية قد لاحظها كل من كتب عن هذه المدينة من المؤرخين والرحالين فقال (Osell) في تاريخ إفريقيا الشمالية القديم^(١): « وعلى الخليج سوق كبيرة يطلق عليها في المخطوطات تا كاب وتا كابس » ووصفها بالسوق الكبيرة لأهمية مركزها التجاري .

ويقول ابن حوقل^(٢) : « ولها أسواق وجهاز كثير وينتاجها التجار » ويقول الإدريسي^(٣) : « ولها أسواق وعمارات وتجارات وبضاعات » .

وغير هذا من الأقوال الدالة على أهميتها التجارية التي استمرت إلى اليوم . واشتهرت أسواق قابس في هذا العهد بأن جميع أنواع البضاعات الموجودة فيها تعرض بأثمان أقل وأزهد من أثمان أسواق العاصمة نفسها سواء البضاعات المحلية أو المستوردة .

لها ، وتجارها اليوم في المنسوجات الصوفية ، والحبوب ، والغلال ، والخضر ، والتمور ، والموز ، والحناء ، والمواشى ، ونتاجها من اللحم ووصوف وشعر ووبر والأسماك المجففة والمصبرة ، وأكثر صادراتها من المواشى ونتاجها ، والمنسوجات الصوفية ، والموز ، والحناء ، والسمنك بالصغير المجفف المعروف بـ (الوزف) .

(١) ج ٤ ص ٢٤٧ . (٢) المسالك ص ٤٧ .

(٣) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

الفصل الرابع

المدينة الحديثة

أقسامها - أسواقها - عدد سكانها - مراكز السلطة - المدارس

قد اتسعت مدينة قابس في العهد الأخير اتساعا كبيرا وامتدت دورها إلى الجنوب والشرق وغطت البناءات الحديثة مساحات شاسعة كانت إلى سنة ١٩٣٠ أراضي فضاء تنبت الحشائش والأعشاب شتاء وتتجرد منها صيفا فتغدو ترابا دقاقا يمتحوه الرياح على المدينة فيضني عليها علالة من الغبار الأبيض الرطب المصجر .

كانت المدينة قبل سنة ١٩٣٠ تنحصر في (المنزل) وبنائاته حوالى سوقه وتناثرت منه بعض المنازل القليلة قرب (عين سلام) وفي (جارة) وبنائاتها حول سوقها لا تتجاوز غربا (قصر أولاد الجبالي) وشرقا (ظهرة قراوش) وتمتد جنوبا إلى قرب محطة القطار وفي الحى الحديث المسمى (باب البحر) وابتدى من جارة غربا وينتهى شرقا (نزل الاتلانتيك) أما اليوم فقد كثرت البناءات بالجهة القبليّة من المنزل فامتدت إلى ضاحية عين سلام والقهاية ، ووصلت بنايات هذين المكانين قبلة إلى سيدي أبي لباية ، ثم امتدت بين الغابة وطريق مطماطة حتى الثكنة العسكرية وامتد البناء شرقا فأحاط بمحطة القطارات من الجنوب وتمططت بنايات الحى الحديث جنوبا فوصلت (محطة الطائرات) وشرقا حتى شاطئ البحر .

وهكذا أصبحت المدينة مستطيلة الشكل يحدها الغابة من الغرب والشمال والبحر من الشرق ومن الجنوب بخط يبتدى من طريق مطماطة غربى ضريح أبي لباية شرقا في موازاة واحة (شنتش) حتى البحر .

أقسامها وأسواقها :

وتنقسم اليوم إلى أربعة أقسام : المنزل وجارة والحى الحديث وسيدي
أبي لبابة ، والقسم الأخير يشمل ما يسمى بـ (عين سلام) و (القصباية) ،
وهذا القسم خارج اليوم^(١) عن المنطقة البلدية ، وقد وقع التفكير في ضمه
قريبا ، وفي المدينة أسواق قديمة وحديثة ، فهناك سوقان قديمتان إحداهما
بالمزول والأخرى بجارة ، وكلاهما عبارة عن ساحة كبيرة تحيط بها من
الجهات الأربع الدكاكين التي تبيع مختلف السلع ، وفي الساحة الوسطى
ينصب التجار سلعهم في أكداس على الأرض وفوق الموائد من الحبوب
والخضر والسمنك واللحوم والأقمشة الخ ، وفي أحد مداخل السوق ينصب
تجار المنسوجات الصوفية التي تباع بواسطة (الدلال) - مزايده علنية ،
وتنقسم السوقان أيام الأسبوع فيجتمع الناس في كل منهما ثلاثة أيام من
الأسبوع ويوم الجمعة يوم راحة للسوقين ، والحركة التجارية في هاتين
السوقين عظيمة جدا لكثرة الواردين عليهما من كامل جهات الجنوب من
نفاوة إلى بنقردان .

وفي ساحة كبرى بين السوقين تنتصب سوق الحيوان فتجتمع فيها عادة
الإبل والغنم وذوات الحافر ، وقد نقلت هذه السوق الآن من تلك الساحة ،
والحى الحديث سوق مركزية للخضر والقلال حديثة الوجود ، هذا
عدا الدكاكين التجارية المنتشرة في كامل المدينة .

سكانها :

وسكان المنطقة البلدية وحدها يعدون خمسة وعشرين ألفا بحسب

(١) أوت ١٩٥٩ .

الإحصائية الأخيرة (١٩٥٧) ويعد القسم الخارج عن المنطقة نحو خمسة آلاف ساكن ، فجملة سكان قابس الحديثة ثلاثون ألفا تقريبا .

مراكز السلطة :

وفي المدينة مركز ولاية الأعراض الذي حل محل المراقبة المدنية الفرنسية السابقة وإدارة العمل معا ، وتبع نظر الولاية معتمديات الحامة ومطماطة ومارث والمطوية وقبلي ودوز ، وكانت مطماطة قبل الاستقلال عملا مستقلا عن قابس كما كانت تتبعه أيضا معتمدية جربة التي أضيفت في هذا العام (١٩٥٩) إلى ولاية مدينين ، وأضيفت لقابس معتمديتا قبلي ودوز إثر طرح ولاية توزر . وبقابس مجلس عدلى تتفرع منه محاكم نواحي قارة في مطماطة والحامة ومدينين وتطاوين وجرجيس وبنقردان وجربة ومحاكم نواحي دورية في عدة جهات أخرى ، وفيها أيضا مركز للبوليس وثان للحرس الوطني ومركز هام للجيش^{١١} التونسي فيه قيادة مراكز الجنوب كلها .

مدارسها :

أما المدارس في قابس فمنتشرة في المدينة وأحوازها والمعتمديات التابعة لها . وبمنا أن نذكر فيما يلي المدارس الخاصة بقابس وأحوازها حسب إحصائية أبريل ١٩٥٩ ، ففي قابس وأحوازها ٢٥ مدرسة منها ثمانية بالمدينة وبها ٨ أقسام تكميلية ومدرستان للتكوين الصناعي إحداهما للذكور والأخرى للبنات ، ومدرسة ثانوية زيتونية^(١) وفي هذه المدارس (٧٧٧٩) سبعة آلاف وسبعائة وتسعة وسبعون تلميذا يتفرعون كما يلي :

(١) أغلقت هذه الثانوية أخيراً تيمناً لتوحيد مناهج التعليم وعوضت بثانوية قابس الجديدة (ليسى) .

تلميذاً	٤٨٦٢	بالمدارس الابتدائية لمدينة قابس
»	٢١٥٢	بالمدارس الابتدائية لأحواز المدينة
»	١٩٧	بالأقسام التكميلية
»	٤١٦	بمدرستي التكوين الصناعي
»	١٥٢	بالثانوية الزيتونية
ومائة وثمانية وستون معلماً ومعلمة وأستاذاً (١٦٨) يتفرعون كما يلي:		
	١٢٩	بمدارس قابس وأحوازها
	١٧	مركز التكوين الصناعي
	٨	بالأقسام التكميلية
	١٤	بالثانوية الزيتونية ^(١)
وحركة التعليم في تقدم وتطور مستمر بحيث نستطيع أن نقول إن الأرقام المذكورة زادت في الثلاثة أعوام الأخيرة بنسبة لا تقل عن ثلاثين بالمائة .		

(١) أغلقت هذه الثانوية أخيراً تبعاً لتوحيد مناهج التعليم وعوضت بثانوية قابس الجديدة (ليسى)

الفصل الخامس

أحواز قابس

ليس في الإمكان أن نتعرض هنا للحديث عن أحواز قابس بالتفصيل ونحقق تطورات هذه القرى المنتشرة حولها عمرانيا وسياسيا فهذا يقتضى تأليفاً خاصاً ؛ فإن لبعض هذه الأحواز أحداثا تاريخية هامة سوف نشير إلى بعضها عرضا في الباب الخامس ، ولكننا سنقتصر على بيان موقعها وسكانها وحالتها الاقتصادية وتحقيق بعض الأشياء التي رأينا من المناسب إضافتها لهذا الباب ، ثم إننا اقتصرنا على ذكر بعض القرى التي لا تبعد عن المدينة أكثر من ثلاثين ك. م تقريبا والتي تكون حياتها العامة أكثر ارتباطا بمدينة قابس .

وهذه القرى تمتد مع الطرقات العامة للخارجة من قابس من ثلاث جهات ، فن الجهة الشمالية :

١ - غنوش :

على نحو ستة ك م من قابس ، وهي قرية حديثة ذات غابة من النخيل كثيفة تقع على شاطئ البحر تفصل بينهما سبخة تنتشر فيها مذائب من مياه البحر زمن المد ، وقد اتسعت غابتها إلى الجنوب حتى اقتربت من غابة قابس ، وسكانها خليط من البربر والعرب ، غنانشة ، ومهاذبة ، وحزم ، ويوجد بعضهم خارج قرية غنوش في سيدى مهذب ووادى المالح ، الخ^(١) .

(١) اعتمدنا في أسماء العروش والأحياء في هذا وفيما يأتي على السكان وعلى كتاب المروا

٢ - المطوية :

مركز معتمدية ، وتبعد عن قابس نحو ١٢ ك م ، وبها غابة نخيل جميلة وموقعها بين البحر والجبل والسهول الزراعية وجوها صحي ، وتستقى من عين قديمة تسمى عندهم إلى اليوم (بالعين القديمة)^(١) ، وتعرف عند سكان الضواحي بـ (عين المطوية) وتقع هذه العين بالجهة الغربية من البلد بجانب الطريق .

ويحكى السكان عن وجه تسميتها أن هذه العين كانت ممرسا للقوافل التجارية الراحلة بين قابس والقيروان فندت يوما ناقة من إحدى القوافل وقصدت العين لتشرب منها ففرقت فيها فسميت العين (عين المطية) ، ثم حرفت بعد ذلك فأصبحت (عين المطوية) ، ويزعم بعض السكان أن هذا الاسم مأخوذ من الطي أو الانطواء ، وذلك أن ماء العين ينبع من الأرض ويدور حول نفسه فتراه كأنه ينطوي على نفسه فسميت (العين المطوية) ، إلى آخر هذه التعليلات والتعلات وأصل عمرانها غير معروف إلا أن أقدم الرسوم التي عثر عليها لدى السكان يرجع تاريخه إلى القرن الخامس الهجري ، ويقول أهل البلد أنه أثناء هذا القرن أو الذي قبله مرت قافلة بالمكان فأعجبها موقعه فزلت به وعمرته .

وتنقسم البلدة اليوم إلى محلتين (المطوية - والمائة) ، ويرجعون تسبهم إلى سيدي مبارك وزاويته معروفة بين المطوية والعوينات ، وتتفرع المحلتان إلى عروش :

الأحمدين - ومنهم : السوالم والحنايرة - والبكاكشة - والشوامخ - وأولاد رجب .

(١) انظر الحديث عن عين الزيتونة عند ذكر ضاحية (العوينات) .

الشرفاء : ومنهم أولاد عبد الرحيم - أولاد عبد القادر -
وأولاد مبارك :

المراشدة : ومنهم الحوامد - والعتايدة .

البنينات : ومنهم أولاد بوسعادة - والدهامنة :

المائة : ومنهم العيايدة - والمهاذبة - وأولاد يحيى - والحنانشة -

وكلهم يسكنون (المطوية) و (سيدى مهذب) .

والمطوية شهرة واسعة في إنتاج المنسوجات الصوفية المتينة والمركشة

بالألوان ، كالكليم ، والمرقوم ، والبطانية . الخ :

وسكان البلد أهل نشاط وحزم ، أنزح فريق كبير منهم للعاصمة وأكثر

اشتغالهم بالتجارة والنقل والمقاولات .

٣ - وذرف :

قرية صغيرة على إرمية سهم من (المطوية) وتكاد تعتبر جزءاً منها ،
وهناك شبه عظيم بين السكان في الحزم والنشاط وفي الاشتغال بالتجارة
والمقاولات ، وتنتج نفس ما تنتجه المطوية :

ويتفرع سكانها إلى عروش : أولاد حميد - والتايمة - وأولاد التومي -
والتباية - والشاتوية - وكلهم يسكنون وذرف والميدة ولا يعرف أحد
وجه تسميتها ولا الزمن الذي عمرت فيه ، إلا أننا لانستبعد أن عمرانها كان
في نفس الوقت الذي عمرت فيه المطوية :

وقد عثرنا على ذكر (ذرف) في رحلة التجاني فوصفها بأنها (١) منزل
فيه نخيلات قليلة ، وعيون ماء تجارية وقصر متسع يعرف بوذرف ، وفي هذا

الموضع يقول أبو عبد الله محمد بن محمد المزدورى الهنتاقي أيام
اضطرته الحال إلى الخروج من تونس والسكنى بتلك الجهات . .

هذى عيون (وذرف) دع العيون تدرف
بدلت من أرضى بها وأسنى وأسنى هـ

٤ - العوينات :

واحة نخل جميلة تقع في منحدر من الأرض على بعد نحو ١٨ كم
شمالى قابس وبينها وبين البحر سبخة أو بجر ميت - كما يقول القدماء -
تشققها السكة الحديدية الرابطة بين قابس و صفاقس ، وبطرفها من جهة الر
ثكنة عسكرية كبيرة أسسها الفرنسيون أيام احتلالهم .

وقد عثرت في كتب الرحالين القدماء على ذكر (عين الزيتونة)
وعينوا مكانها بأنها على مرحلة شمالى قابس ، وكنت طنت أنها هي (عين
المطوية) إلا أن الوصف الذى ذكره البكرى في مسالكه^(١) أكثر مناسبة
لواحة (العوينات أو العوينة) حيث قال . عين تجارية على بجر ميت ،
عليها مرصد لجابي إفريقية^(٢) ، وهي عين مذكورة في حدثان إفريقية ، قال
ابن أعقب في أرجوزته التى يذكر فيها وقائع إفريقية .

عند حلول الجيش بالزيتونة تسكن هناك الوقعة الملعونة

وقال (ابن خرداذبة)^(٣) . إنها على مسافة ١٣ ميلا من قابس وسماها
(بئر الزيتونة) .

وسماها يعقوبى (عين الزيتونة) وقال إنها غير أهلة^(٤) .

(١) ص ١٩ . (٢) لم يبق أثر اليوم لهذا المرصد

(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٨٦ .

(٤) البلدان ص ١٠٥ .

ومن الجهة القبيلية :

١ - تلبو :

واحة صغيرة على ٧ كم من قابس ، تقع شرق ربوة المنار وقبلى (زريق الدخلانية) وغابتها نخل وزيتون ، ويسكنها اليوم عروش القواسم : والشرايكة - وأولا مبارك - والحنانشة - والعيادة - وأولاد خليفة ، وبعض هذه العروش منتشرة في (قرعة الزرلكين) و (عين تمولة) .

وجاء ذكر هذه القرية في رحلة التجاني^(١) قال : هو منزل فيه مبان قليلة وعليه غابة الزيتون متسعة ، وكانت به قبل هذا غابة نخل فقطعت أيام محاصرة مخدومنا^(٢) لقابس ولم يبق منها إلا نخيلات قليلة في مواضع متناثرة منه .

٢ - مطرس والمرو :

واحتان صغيرتان في هذه الجهة ، تجاوران تلبو ، ولكل منهما غابة نخل يتخللها الزيتون والأشجار المثمرة ، وغالب السكان من (الحزم) .

٣ - زريق :

هناك واحتان بهذا الاسم ، فالأولى تسمى (زريق الدخلانية) وتقع بين ضريح سيدى أبي لبابة وبين تلبو وتطل عليها من الغرب ربوة المنار ، وغابتها لا تختلف عن بقية الواحات المجاورة لها ، والظاهر أنها حديثة الوجود ، أى أنها وجدت بعد زريق القديمة ، والثانية تسمى (زريق الرانية) ، وهذه هى

(١) ص ١٧٩ .

(٢) هو أبو يحيى زكريا ابن الحياض السلطان الحفصي ، وانظر عن هذه الواقعة الباب

(زريق) المشهورة في التاريخ وتقع غربى (كتانة) على نحو ١٨ كم من قابس .

واشتهرت هذه الواحة بنزول الميورقى في جيشه عليها سنة ٥٩١ هـ ومكث بها ثلاثة أيام متلوماً ثم هاجم قابس وقطع غابتها^(١) .

وذكر التجانى^(٢) أنه يوجد بقربها (نخلات على عين ماء عذبة وزاوية يسكنها رجل من البربر اسمه سلام ويعرف بأبى غدارة) أما الزاوية المشهورة الآن بهذه القرية فهى زاوية سيدى (عبد الله بن عبد العزيز بن يحيى بن عبد الرحمن بن جابر أحد السادات الحمارنة)^(٣) .

٤ - كتانة :

لا تزال هذه الواحة كما وصفها التجانى فى أول القرن الثامن للهجرة لم تتغير سوى نقص الزيتون وكثرة النخل .

قال التجانى : « قرية صغيرة ملتفة الشجر حسنة المنظر كأنها بستان واحد خضرة ونضرة وعامة شجرها الزيتون وكان غرسه بها أيام الأمير أبى زكرياء^(٤) على قابس سنة ٦٢٤ هـ ، ولأهلها قصر كبير بأوون إليه^(٥) وبها عين فوارة عذبة قد اجتمعت منها بركة ماء متسعة تلاصق سور القصر من جهة غربية وتخرج مذانب ومسارب تخرق الغابة فتعمها بالسقى » .

وتبعد كتانة عن قابس نحو ١٨ كم ويحترقها الطريق رقم (١) الرابط بين قابس وطرابلس ، وتسكنها عروش : الحزم - والموادسية - والحناشنة - والشلاية - والبكاكش .

(١) انظر فصل (أحداث تاريخية) من (الباب الأول) والحديث عن هذه الواقعة فى (الباب الخامس) .

(٢) الرحلة ص ١٨٠ .

(٣) نقلنا هذا النسب من رحلة المياشى ج ١ (مخطوط) .

(٤) أبو زكريا الأول السلطان الحفصى .

(٥) انظر الآن .

وعروش الحمارنة : السوالم - والغنادر ، ويسكن البعض منهم واحة
(الغندرى) القريبة .

٥ - الزركين :

واحة في هذه الجهة ، جميلة الغابة ، أهلها حمارنة غالبهم من أولاد
عبد اللطيف - من أهلها من يسكن مارث كأولاد محمد - وأولاد حامد -
والشعارة - والكرامة - والطوابية .

٦ - مارت :

وصفها التجاني^(١) بأنها « قرية حقيرة وعليها عابة نخل يسيرة »
وقد تغيرت الآن تماما وعظم عمرانها فأصبحت أكبر قرى هذه الجهة
ومركز معتمدية ، واتسعت مساحتها وبنيت فيها (الفيلات) العصرية ، وكان
لمركزها العسكري أيام الفرنسيين أكبر الأثر في عمرانها حيث اشتهرت
بالخط الدفاعي المشهور باسم (خط مارث) أو (خط دلاديني) ، وكان لهذا
الخط ذكر في الحرب الأخيرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ولم يستطع الجيش الإنجليزي
خرقه فاضطر لمفاجأته من الخلف على طريق الحامة قابس .

وقد عرفت مارث منذ سكنها الحمارنة من قبيلة دباب من قبائل سليم
ابن منصور المصاحبين للزحفة الهلالية ٤٤٣ هـ ، ويسكنها اليوم منهم .. أولاد
عبد اللطيف - وأولاد أبو عبيد والجليلية - والعزايزة - والموامنة -
والكواكبية - وبعض هؤلاء يسكن (زملة النكاراة - وتيلى التواتى) .

والظاهر أن عامة هذه القرى - مارث - والزركين - والزارات -
وعرام لم تعمر إلا من طرف الحمارنة في أواخر القرن الخامس :

(١) الرحلة ص ١٨١ .

٧ - الزارات :

وصفها التجاني^(١) بأنها « قرية ذات نخل كثير وماء غزير ينبع من عين حثة قد اجتمعت لدى منبعها بركة ماء متسعة القطر بعيدة القعر » . وذكرها الإدريسي^(٢) : فقال هي « قصور ثلاثة تلي جزيرة جربة وبينهما في البحر عشرون ميلا » :

ويبدو من هذا أنها قديمة وربما كانت من الرباطات البحرية وأهلها حمارنة منهم عروش العالاية - وأولاد عبد اللطيف - وأولاد حديدان - وأولاد محمد - والعصايدة .

٨ - عرام :

تقع جنوب مارث شرقي الطريق رقم (١) ، تطل على (وادي الزاس) يعرفه القدماء بـ (أجاس) قال عنها العياشي^(٣) : « قرية صغيرة فيها مزارات كثيرة غالبها من السادات الحمارنة إذ بها مقابر أسلافهم : سيدي يحيى وغيره من أكابرهم ، وهم إلى الآن يقصدونها للدفن من الأماكن البعيدة إلا سيدي عبد الله بن عبد العزيز^(٤) فإنه دفن بجانب زاويته بزريق » .
وصفها الورثاني^(٥) بأنها « طيبة ذات مياه عذبة ونخيل ومزارع وبساتين ، ومن مات من الحمارنة دفن فيها فلإنها محل أجدادهم وموضع خزائنهم ، يسكنها من لا يقدر على البادية منهم فيها روضات مبنية تراها كالنجوم في السماء » .

(١) الرحلة ص ١١٩ .

(٢) نزهة المشتاق ص ١٢٨ .

(٣) رحلة العياشي ج ١ (مخطوط) .

(٤) هو حفيد سيدي يحيى بن عبد الرحمان المذكور قبله .

(٥) نزهة الأنظار ص ٦٥٢ .

والظاهر أن قرية (عرّام) هذه هي نفسها قرية (أجاس) التي ذكرها
التحاني بقوله (١) : « هي قرية ضخمة ذات مان كثيرة ولها غابة متسعة وبها
عين خراطة عذبة الماء غير أنها مستنواة ، وأحبرني أهلها أنهم احتضروا في



(شكل ١٤) أحد فرسان الحمارة

هذا الوقت بترأ عذبة الماء سالمة من الوباء فهم الآن يتربون منها ويسقون من تلك العين هائمهم وزروعهم ، ورأيت بها مسجدا يذكر أهلها أن له فضلا مشهوراً عندهم وأن الدعاء مستجاب عنده « الخ .

والذى دفعنى لهذا الافتراض هو وقوع « عرام » على ضفة (وادى الزاس) وهو أجاس القديم ولأنها أكبر قرية معروفة هناك ومعظمة إلى درجة التقديس ، ولأن التجاني يقول لأنهم مروا عليها بعد مارث مباشرة ، هذه كلها أسباب جعلتني أترض أنها هي (أجاس) القديمة وأن اسمها قد غر بعد عصر التجاني لمناسبة من المناسبات .

وسكانها حمارنة كما ذكرنا يسكنها منهم : الحمايدة والعوامر وبعضهم بوادى يسكن الزاس فى منازل متفرقة .

وقد اشتهرت (أجاس) بإقامة جعفر بن حبيب قائد جيش باديس الصنهاجى الموجه لقتال يانس الصقلى بطرابلس فيها ثلاثة أشهر كما سأتى تفصيل ذلك فى الباب الخامس .

والظاهر أيضاً أن هذه القرية كان عمرانها فى الزمن الذى عمرت فيه مارث وغيرها من قرى الحمارنة .

* * *

ومن الجهة الغربية :

الحامة وضواحيها :

تسمى (حامة قابس) اليوم وكانت فى القديم تسمى (حامة مطماطة) تفرقة بينها وبين (حامة الجريد) وتقع على بعد ٣٣ كم غرب قابس ، فى منيسط من الأرض شبه سبخة تحيط به الجبال والروابي من الشرق والجنوب والغرب والشمال ، إلا أن الجبال من الشمال بعيدة عنها ومن الحامة يبتدئ (شط الحامة) الذى يتصل بـ (شط الفجيج) المتصل بـ (شط الجريد) .

وعامة غابتها النخيل وفيه من الأنواع ما يدخر ، واعتماد أهلها في عيشهم على زراعة الحبوب وتربية الماشية فالأراضي الزراعية واسعة المساحة تتصل بأراضي قابس وأحوازها الشمالية وتمتد إلى أراضي نفاوة من جهة وقفصة من جهة ثانية ومطاطة من جهة ثالثة .

وعامة الأراضي المحيطة بها إلى مسافات بعيدة صالحة للمرعى وتربية الحيوان وغالبه من الضأن والمعز ..

ويذكر ابن خلدون أن تسميتها بحامة مطاطة نسبة إلى هذه القبيلة من البربر الذين كانوا استوطنوها (وهم فيما يقال الذين اختطوها)^(١) وشك ابن خلدون في نسبة تأسيس بلدة الحامة لقبيلة مطاطة له مغزاه ، فإن جميع المظاهر بهذه البلدة تدل على أن العرب هم الذين عمروها بعد نزولهم بتلك الجهات في منتصف القرن الخامس على آثار القرية الرومانية القديمة ، فالسكان اليوم كلهم من قبيلة بني يزيد من دياب من قبائل سليم بن منصور يحفظون أنسابهم ويعرفون قبائلهم وعروشهم ليس فيهم دنخيل ولا يعرف بينهم أثر للبربر ، حيث أنه فأن ذهب البربر الذين كانوا بتلك الجهة ، فالحامة معروفة من القديم وكانت ملجأ المصابين بالأمراض الجلدية والروماتيزم وعرفت في الرومان باسم (Aquae Tacapitanae حامة قابس) .

ومكانها هو نفس مكان البلدة اليوم^(٢)، ولا نشك أن الحامة القديمة كانت مسكونة من طرف البربر وقد وجدهم العرب هناك وعاشروهم زمانا طويلا ، وذكر ابن خلدون أن قبائل من (توجن - وبني ورتاجن) الزناتيين كانوا بالحامة .

فالعرب حين قدموا إليها لم يجدوها صحراء خالية ولكنهم وجدوا بها

(١) ابن خلدون ج ١ ص ٦٤٥ ط الجزائر .

(٢) La Berberie Orientale sous les Hafsidea T. 1, p. 314

بعض العائلات البربرية التي تعيش في أخصاص متفرقة على ضفاف واديها الحار تتمن الزراعة ، فلما قدم العرب وامتلكوا تلك الجهة انصهرت تلك العائلات البربرية فذابت فيهم ، ولم تعمر البلدة بالبناءات إلا في زمن العرب ، فتكاثروا فيها واتسع العمران حتى أصبحت مركزا هاما لفت إليها الأنظار وجعلت حكومات العاصمة منها ولاية خاصة تتبع قابس أحيانا وتبغ العاصمة رأسا أحيانا وتستقل بنفسها أحيانا أخرى ، وصفها التجاني في أول القرن الثامن الهجري^(١) بأنها « مدينة حاضرة تحف بها غابة نخل تحمل حمة ، وجميع مياه هذه البلدة شروبة وهي في غاية السخانة وبسخانة مائها سميت حمة ، والحمة في اللغة هي العين التي يمائها سخانة ، وهذه البلدة في أكثر أوقاتها سالمة من الوباء فإذا وبثت استأصلت أهلها وكانت في ذلك أشد من قابس ، وكان عليها سور مرتفع ورأيت مواضع منه قد تهدمت ولم يشتغل أهلها برمها فسألتهم عن ذلك فقالوا نحن لا نعتمد على سور وإنما سورنا سيوفنا ، وبناء داخل هذه المدينة في غاية الارتفاع وهم يتنافسون في ذلك ورأيت في قصبتها وهي موضع سكنى الوالى آثارا تدل على ضخمتها غير أن الخراب استولى الآن على كثير منها وبهذه القصبة قناة ماء يتسرب إليها من خارجها في غاية القوة ، وقد بنى عليها بيت على شكل حمام جاء في نهاية الظرف والحسن . . . وبالبلدة جامع حسن ظاهر البركة والخير » .

والبلدة التي وصفها التجاني لم يتغير مكانها إلا أنها امتدت واتسعت كثيرا وأكثر امتدادها لجهات السوق وحواليه ، والجامع لا يزال في مكانه إلا أنه جدد مرات وبنى جامع ثان هو جامع الشباب وهو الذى كانت فيه اللروس الثانوية الزيتونية . والسور لم يبق له أثر ، والقصبة التي كانت مقر الوالى قد اندثرت وكانت في الحى الذى يسمى الآن (القصر) وكذلك لم يبق أثر للخندق الذى ذكر ابن أبي دينار بأنه دائر من كل جهاتها^(٢) ،

(١) الرحلة ص ١٣٤ .

(٢) المؤلص ص ١٩٦ .

وأما الحمام فناء الحامة كله حمام يخرج من منابع طبيعية قرب البلدة ، ترى
الابجرة تتصاعد منها من بعيد وتتجمع في أودية صغيرة وسواق تتحلل الغابة
والسوق ، وقد بنى على هذه السواق في القديم حمامات هي عبارة عن بيوت
صغيرة فوق الوادى ينزل لها بدرجات ثم بنت البلدية حماما له صهريج متسع
والأوقات مقسومة بين الرجال والنساء وهي عادة معروفة من قديم وفي السواق
الخارجية يستحم الناس أحرارا في أى مكان إلا أنهم في بقاع متباعدة مستورة
لا يتصل أحدهم بالآخر ، وإننى لأعجب من قول الورتلانى الذى زارها
في القرن الثانى عشر للهجرة : « وفيه بيت يستر المغتسلين وحارجه نهر منه
يجتمع فيه الرجال والنساء من غير ستر في النهار كل واحد يرى عورة
الآخر من غير تغيير ولا تكبير »^(١) لأن هذا يخالف ما طبع عليه بنو يزيد
من الغيرة وشدة احترام المرأة .

وقد عمدت البلدية منذ فجر الاستقلال إلى الاعتناء بهذا الحمام فبنت
عليه حمامات عصرية منظمة وطهرت جهاته من الأوساخ وهي دائبة على
إدخال التحسينات المتتابعة . وقد اشتهر حمام الحامة بصلاحيته لمقاومة مرض
البرد (الروماتيزم) وعدة أمراض أخرى مما جعله مقصد المرضى من أطراف
الجمهورية التونسية واعتزاز سكان الحامة بأنفسهم المتمثل في جوابهم للتجاني
(إنما سورنا سيوفنا) أمر مشهور عنهم ، فهم من أمهر فرسان تلك الجهة ،
وهذا الاعتزاز هو الذى دعاهم قديما للقيام بعدة ثورات ضد السلطة المركزية
كانت تبيجتها غالبا خراب بلدهم وعرضهم للتشتيت والانتقام وعرض
غابتهم إلى القطع والتخريب ، ومن أكبر ما منيت به الحامة من قتل وتخريب
انتقام حمودة باشا المرادى منها حين تمرد سكانها على سلطته مدة سبع
سنوات فهاجمها بجيش كثيف « ونصب عليها المدافع وقطع نخلها حتى فتحها

(١) نزعة الأنظار ص ١٢٧ .

فقتل رجالها وسبي نساءها ، ونهب أموالها وباع أولادها وأواخر
سنة ١٠٤٥ هـ (١) .

ولكن لم يكده يحدث الخلاف بين « الأخوين محمد وعلى ابني مراد بن
حمودة باشا (حتى) خالف أهلها (أيضا) فهاجمها محمد باي عند استقلاله
بالأمر وأباحتها» (٢) ، وذلك في أوائل القرن الثاني عشر ، ورغم هذه المصائب
التي تنزلها السلطة الحاكمة بالحامة فإن أهلها دائما كانوا تواقين إلى التمرد
والأنفة من تبعية الغير وقد استطاعوا مرات أن يستقلوا بأنفسهم ويكونوا
إمارة تنادى بالعصيان أحيانا وتطيع اسميا أحيانا أخرى ، وقد استقل بالأمر
فيها جماعة متعددة من الوشاحين في عهد الدولة الحفصية ، ذكر بعضهم
ابن خلدون (٣) ، وآخر ما أثار من تمردهم منا صرتهم للشيخ غومة المحمودي (٤)

(١) المؤنس ص ١٩٧ .

(٢) التاريخ الباشي ص ٢٦٢ - ٢٩٢ (مخطوط) .

(٣) ج ٦ ص ٤١٨ ط بولاق .

(٤) غومة المحمودي بن محاميد طرابلس كان صديقا لعائلة القرمانلي ولاية طرابلس فلما
القرضت سلطتهم ثار في وجه الدولة التركية وشن الغارات على مراكزها بطرابلس فقبض عليه
باشا طرابلس وأرسله للاستشارة فحكّم عليه بالنفي فهرب من منفاه ورجع إلى أهله ودخل بجبه إلى
جهة الحامة وتوسط له قنصل فرنسا لدى باي تونس ليقبله في أرضه ويشع له عند السلطان
فقبله الباي وأرسل للاستشارة مستشفعا فيه رغم نصيح وزرائه له بعدم التداخل في شأنه فأعلمته الحكومة
التركية بأن شفاعته ليست في محلها إذ أن الرجل مفسد ومجرم فار يلم ورغبت منه إعانة باشا
طرابلس على القبض عليه فأنف الباي من خفر ذمته ولم يتمرض لغومة ، ولكن عومة لم يقابل
كرم الباي بالسكون والراحة بل اجتمع عليه بغض الأعراب وشن الغارات على بعض الأحياء
وأكثر الفساد والشر وكان يحرض الناس على عدم دفع الضرائب لأنها - في زعمه - جزية
مضروبة على المسلمين ، فكتب له الباي بواسطة قنصل فرنسا - الذي لايشك الماقلون أنه كان
هو المحرض لغومة على الإفساد - ويأمره أن يرحل بجبه لدواخل البلاد قرب العاصمة أو القيروان
فاعتذر عومة متعللا بكثرة من معه وكثرة أنعامهم التي لايجد المرعى في الدواخل وكان القنصل في
هذا الوقت نائب الحركة يتستر على صديقه غومة ، فاضطر الباي أن يرسل له محلة بقيادة اللواء
(محمد خزلة دار) فلما قربت المحلة من غومة أرسل له قائدها يجبره بين الانتقال للدواخل أو الخروج
من البلاد ، فراوغ غومة ولم يستجب لأحد الأمرين فقصده المحلة إلى (قبلى) حيث كان =

الطرابلسي الثائر الذي طارده حكومة طرابلس فقدم إلى تونس واتصل ببني يزيد سنة ١٢٧٣ هـ مما اضطر إليهم إلى مطاردته أيضاً بجيش أخرجه من البلاد التونسية أوائل سنة ١٢٧٤ هـ ثم شاركهم في تدبير المؤامرة الشهيرة ضد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩١٤ م إبان الحرب العالمية الأولى ، تلك المؤامرة التي امتدت عروقها إلى غالب العروش العربية بالبلاد التونسية وعلى الأخص عروش الجنوب ، وكادت تعصف بالاحتلال الفرنسي لولا اكتشافها من طرف سلطة الاحتلال بواسطة خائن كان (خليفة) بالحامة تظاهر لرؤساء الحامة البسطاء بالتحمس للقضية الوطنية وقبل اندلاع الثورة بوقت قليل كشف المؤامرة وقبض على مدبريها .

هذا عدا التمرد الفردي ضد الاحتلال ، فقد اشتهر عدد من أبناء الحامة أذاقوا المحتلين الأمرين ، كالمرحوم (الدغباجي)^(١) الذي قتل شهيداً في بلده وبين أهله وذويه انتقاماً وإرهاباً للسكان ، وكان لأبناء الحامة يد طولى في الثورة الوطنية الأخيرة التي نتج عنها استقلال البلد .

وبنو يزيد سكان الحامة الأصليون . يقول التجاني^(٢) إنهم ينتسبون إلى يزيد علي مدلول الزيادة لا إلى رجل يسمى (يزيد) ، ويذكر أنهم في وقته أربعة أفخاذ : (الصهبة) وهم بنو صهب بن جابر بن قائد بن رافع بن دياب

١- نازلا ولما قربت منه ارتحل إلى (الجرسين) من قرى نفزاوة الغربية ثم فر منها إلى أرض الجزائر . أما خزنة دار الذي كان مأموراً بمطاردة الثائر وباستباحة بلد قبلي وقطع غابته فقد استباح البلد واكتفى ببيع غابته في خبز طويل سوف أفصله في كتاب عن نفزاوة شرعت في جمع مواده إن شاء الله تعالى .

(١) محمد الدغباجي من عرب الحامة هرب من الجندية الفرنسية وسكن جبال الجنوب ثائراً على السلطات الفرنسية وله معها وقائع مشهورة سجلها شعراء الملحون في ملاحم شيقة - وألقى عليه القبض بطرابلس وسلمته السلطة الإيطالية إلى فرنسا فسوق إلى الحامة وقتل وسط سوقها رمياً بالرصاص حوالي ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ م رحمه الله رحمة واسعة .

(٢) الرحلة ص ١٣٤ .

و (الحمارنة) وهم بنو حمران بن جابر ، و (الخرجة) وهم بنو سليمان بن رافع بن دياب ، و (الأصابعة) الخ :

وهذه الأسماء لا تزال إلى اليوم موجودة على أصلها عدا (الصبية) فقد تنوسى هذا الاسم ، وتغلب اسم الحمارنة على سكان مارث وعرام وضواحيها .

ويتفرع بنو يزيد اليوم إلى فروع عديدة منتشرة بين الحامة وقراها وأراضيها الواسعة وهذه الفروع هي :

الشياب - والبقلة (بضم الباء وسكون القاف) ، ومن هؤلاء السمايحة والحوازم والترابجة وفروعهم - والشعل وفروعهم - والخرجة وفروعهم - والأصابعة - والشواشين - والشلاخشة ومن هؤلاء أولاد عمر ، وأولاد غريب وفروعهم - والزمازمة والغيايف والحماين وفروعهم - وأولاد خليفة ومن هؤلاء المزارعية ، والرتيات والودارثة ، والدساحلة وفروعهم ومطمط وفتناسة ومن هؤلاء أولاد ضو والحرشان والحداية - وأولاد بن خود الخ والجميع يسكنون الحامة البلد ، والقصر والسنباط والدبدابة وبشيمة وبوعطوش والمرطبة والفجيج والسقي وبوقرفة وجبل الطباقة وغيرها من القرى والضيعات .

وفي بني يزيد حضريون يسكنون البلد وبدو يتنقلون بين البلد والبادية تحت الخيام :

البَابُ الرَّابِعُ
نِكَاحُ قَابَسَ

.)

الفصل الأول

القدامى

البربر - العنقيون - الرومان - النصر الخليط - اللغة - الديانة

أشرنا فيما تقدم إلى أن أول من سكن قابس هم البربر سكان إفريقيا القدامى ، وهم الذين كونوا المساكن الأولى بها وأطلقوا عليها (تاكاب) ، هذا الاسم الذى اشتهر بعد ذلك فى العهد الفنيقي وهو ما ذهب إليه المؤرخ القديم (بلين Pline) حيث يقول (وسكنها بربر نوميديا)^(١) .

وليس لدينا من النصوص القديمة ما يساعدنا على معرفة أنساب هؤلاء السكان الأول ، وكل ما تعرضت له النصوص الإسلامية أن بربر باديتها كانوا ينتسبون إلى مختلف القبائل المعروفة من زناتة ولواتة ومطماطة والماية ونفوسة وزواغة ، ونعرف أن عائلات من لواتة كانت مستقرة فى قابس نفسها فى العهد الإسلامى ، وعائلات من زناتة كانت منتشرة بين الحامة وجنات جنوب قابس وقبائل مطماطة كانت تعمر جبل مطماطة حيث هى الآن ، ثم جاء الفنيقيون وارتادوا الشواطئ الإفريقية يؤسسون المصارف التجارية (Comptoirs) فى عدة مراكز ويبدلون البربر سلعتهم فيدفعون لهم بضائعهم كالأقمشة والأسلحة والأواني الخزفية ويقبلون فى مقابلها منتجات الأرض الإفريقية وصناعاتها كالصوف والجلد والعاج والأنعام والعبيد^(٢) .

وفى هذا العصر دخلوا (قابس) واتصلوا بأهلها وعمروا شواطئ

(١) Pline : l'Ancien. Histoire naturelle p. 370—371

(٢) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ٣٤ .

خليج قابس ومن بين مراكزهم المعروفة (قابس) و (مغمداس) و (المقام الحديث) على الشاطئ الشمالي للخليج وهو أقرب مركز لقابس واختلط السكان لصلة القرابة بين الفنيقيين القادمين من السواحل الشامية والبربر الذين يرجعون إلى أصل شرقي أيضاً حسبما يقول المؤرخون .

وكان التزاحم التجاري على أشده بين الفنيقيين واليونان ، وكانت سفن الجانبيين التجارية ترتاد الشواطئ التونسية ويختلط الجانبان بالسكان ، ولم يلبث الفنيقيون أن أسسوا مدينة قرطاجنة في القرن التاسع قبل المسيح على أرجح الروايات فسيطرت على الشواطئ الإفريقية واحتكرت فيها التجارة وناوأت اليونانيين فانصرت عليهم بعد عراك عنيف^(١) وخلصت إفريقيا الشمالية نهائياً إليها ونشطت حركة العمران وازدهرت التجارة والزراعة واختلط القرطاجنيون بالأهالي الذين تعلموا لغتهم وشاركوا في غزواتهم البحرية وكانت قابس في هذا الوقت أكثر مدن الخليج ازدهارا^(٢) .

الرومان :

واحتل الرومان هذه البلاد إثر انكسار قرطاجنة أمام جيوشهم الغازية سنة (١٤٩ ق . م) فانتشروا في البلاد ونظموا إدارتها وأتوا بألاف العائلات الرومانية لتعمير أرض إفريقيا واستغلال خيراتها^(٣) - على عادة المستعمرين إلى اليوم - فأسسوا الضيعات وأعانتهم الحكومة إيماءً في إمكانها حماية من وتعميد طرقا ومد قنوات المياه وبناء السدود والمصانع وغيرها من الوسائل الممكنة في ذلك العصر ، واقتدى البربر بالرومان في استغلال

(١) إفريقيا الشمالية في العصر القديم ص ٣٨ .

(٢) دائرة المعارف للإسلامية .

(٣) إفريقيا الشمالية في العصر القديم ص ٧٧ .

الأرض وتوسيع نطاق الزراعة مما جعل إفريقيا الشمالية عمدة رومة في حياتها الاقتصادية حتى سماها اللاتينيون (مطمور رومة Romee graniarum) وازدهرت قابس في عصر الإمبراطورية على الخصوص^(١) لخصوبة أرضها وكثرة مياهها فكثرت عمرانها واتسعت رقعتها ، فنحن نجد آثار البناء الرومانية في قابس وأحوازاها وعلى الأخص في جهات من غابتها متناثرة هنا وهناك مما يدل على كثرة سكانها وتعدد ضياعها الزراعية .

وكثرة السكان نتجت من الرومان الأجانب الواردين عليها من أفراد البليوش المكلفة بالأمن ومن عائلات المعمرين ومن نزوح سكان البلاد من البادية إلى الحواضر للمشاركة في الحياة الحضرية المستقرة .

الوندال :

وإني الوندال بعد الرومان فسكنوا هذه البلاد مدة قرن كامل ولكنهم لم يتركوا بها أثراً فقد كانوا أمة عسكرية لم تعتن بالعمران بل لأنها قضت على ما تركه الرومان من آثار عمرانية .

البيزنطيون :

وقضى البيزنطيون على سلطة الوندال سنة ٥٣٤ م وساروا على نهج أسلافهم الرومان في التحصين والتعمير والتنظيم إلا أنهم كانوا أقل قوة من الرومان وجاءوا في وقت استيقظ فيه البربر سكان البلاد من غفلتهم وقويت عصبيتهم ونشطت حميتهم لتخليص بلادهم من كل سيطرة أجنبية وشعر البيزنطيون بضعفهم أمام قوة التطور واتساع رقعة الأرض عن قدرتهم فتركوا خط الدفاع الروماني القديم المتمثل في الحصون الموجودة

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

آثارها إلى اليوم بصحراء الجنوب التونسي وبنوا خطا دفاعيا ثانيا يتمثل في سلسلة حصون تمر وسط البلاد التونسية ، ولكنهم مع ذلك لم يتركوا المدن الساحلية ومنها (قابس) التي مكثوا بها حتى تسلمها منهم الجيش الإسلامي ، وقد شارك البربر في الحياة السياسية والاقتصادية وحتى العلمية في هذه العصور المختلفة ، ونجد لهم أثراً بارزاً في السياسة والعلم في العصر الروماني والبيزنطي بالخصوص ، وقد تزوج الرومان من البربريات (١) ، كما تزوج البربر من العائلات الأجنبية فنتج عن ذلك جيل مختلط الدماء تكون منه عنصر جديد كان له أثر في نشر الثقافة الرومانية وأصولها اليونانية وهذه السلالات البربرية والفنيقية والرومانية والبيزنطية والمختلطة هي التي تكون سكان قابس القدامى . وقد وجدها المسلمون عند الفتح فذكروا أن السكان يتكونون من بربر وأعاجم أو أفارقة ويقصدون بكلمة الأعاجم الرومان والبيزنطيين والبربر أيضا ، ويقصدون بكلمة أفارقة سكان البلاد غير العرب ، ونعت ابن خرداذبة قابس بأنها (مدينة الأفارقة الأعاجم) (٢) .

اللغة :

وكانت لغة السكان الإفريقيين هي البربرية القديمة المتحددة الأصل وإن اختلفت لهجاتها بعض الشيء حتى جاء الفنيقيون وسرعان ما تعلم البربر لغتهم واستعملوها في معاملاتهم ، وعلى الأخص في المدن حيث كانت هي لغة الإدارة والتجارة والمعاملات ولا يستغرب انتشار اللغة الفينيقية - أو القرطاجنية على الأصح - بسرعة بين البربر (إذا ما أعدنا إلى الأذهان أن البربر والقرطاجنيين من أرومة سامية واحدة وأن الشبه عظيم بينهما لا فيما يتعلق بالبنية والعنصر بل فيما يرجع إلى التفكير أيضا) (٣) .

(١) إفريقيا الشمالية في العصر القديم ص ٧٩ .

(٢) المسالك والممالك ص ٨٦ و ٢٢٤ .

(٣) إفريقيا الشمالية في العصر القديم ص ٤٢ .

وتغيرت لغة الحكومة والمعاملات بعد الاحتلال الروماني فاحتلت اللاتينية مكان القرطاجنية ، وتعلمها البربر أيضا وبرعوا فيها وألفوا فيها المؤلفات العديدة .

ولكن هذا لم يتجاوز المدن بالنسبة للفنيقية واللاتينية معا وبقيت البربرية هي اللسان القومي للسكان خارج العواصم لم تستطع أية لغة اكتساحها والحلول محلها حتى جاء العرب فاكتسحت لغتهم اللهجات البربرية التي لم يبق لها ذكر إلا في بعض القرى النائية المحصنة داخل الجبال أو البحر حيث بقيت إلى اليوم في بعض قرى جبال مطاطة وفي جزيرة جربة وهي سالكة طريق الاضمحلال شيئا فشيئا .

الرياسة :

ولم يحذ البربر حذو اللخلاء (في الشؤون المادية فحسب بل اقتفوا آثارهم في سائر الميادين الأخرى أحلوا عنهم أخلاقهم ووثنيتهم ، فجعلوا يعبدون الكباش (عمون) كما كان يعبد القرطاجنيون من قبلهم (١) . وقد عثر على آثار بربرية وتمائيل تدل على عبادتهم للكبش القرطاجني ، وقلدوا بعد ذلك الرومانيين أيضا واستعملوا في هياكلهم بعض آلهتهم ولم تكف تدخل المسيحية في صفوف الرومان حتى تهافت عليها البربر كعادتهم ليستعملوا منها سلاحا ضد الرومان العاصيين حتى كان هؤلاء يقاومونها لأنها كانت تنادى بالمساواة ، وحين أصبحت المسيحية ديانة رسمية لم يجد البربر وسيلة لمقاومة الحكومة غير الدخول في صفوف الخلافات المذهبية وتبع أكثرهم المذهب المناوي للسلطة حتى جاء الإسلام فدخلوا فيه أفواجا ما دام ينادى بالمساواة وأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وبمحرابة

(١) إفريقيا الشمالية في العصر القديم ص ٤١ .

الطبقات وبأن الناس سواء أمام العدالة ولكل فرد من الرعية نفس الحقوق التي للرعي ولا نشك أن مدينة (قابس) كانت مرت بهذه الأحداث كلها فضممت من السكان البربري والفينيقي والروماني والعنصر الخليط من هؤلاء كلهم ، ورأت اللغات والمعتقدات تصارع بعضها حتى جاء الإسلام فإذا به يكتسح الديانات والمعتقدات قبله ويحل محلها في قابس وأحوازها وتكتسح العربية غيرها من اللغات ، ولكن في المدينة فحسب ، وبقيت البربرية على قوتها في الأحواز حيث ينتشر البربر في القرى والضياح ويشند أزر هذه اللغة حين تصبح الدولة بربرية في القرن الثاني^(١) ، ولكن قلوب أعراب الصعيد في منتصف القرن الخامس الهجري قضى على هذه اللغة وحلت العربية محلها ولم يبق للبربرية إلا زوايا صغيرة منعزلة في الجبال

(١) انظر في الباب الخامس الحديث عن أئمة نفوسة وتاهرت وسيطرتهم على أحواز قابس من سنة ١٤١ إلى ٣١١ هـ

الفصل الثاني

العرب

الفاطمون - الزحفة الملالية وأسبابها - الأحياء المشتركة فيها -
استيلاء العرب على قابس وأحوازها - أثرهم في البلاد

لا ندرى بالضبط متى دخل العرب الفاطموني مدينة قابس ، فأقوال المؤرخين مضطربة في هذا الباب ، ففي تعليقات ابن الشباط نقلا عن مختصر الطبري أن ابن أبي سرح حاصرهما سنة ٢٧ هـ ثم تركها خلفه بإشارة من أصحابه^(١) ، وهذا ما ذهب إليه أستاذنا حسن حسني عبد الوهاب في تعليقاته أيضاً بأنه سلك إلى سببلة ولم يتوقف في قابس :

أما ياقوت فيقول : « وكان فتحها مع فتح القيروان سنة ٢٧ هـ »^(٢) ، وإذا لم نأخذ بقول ياقوت فتى كان فتحها ؟ إذا قدرنا صحة وجود (أبي لبابة) الصحابي بقابس - وهو الرأي الذي أخذنا به^(٣) - ، والمعروف أنه توفي سنة ٤٠ هـ فعنى ذلك أن قابس فتحت قبل سنة ٤٠ هـ ويبقى أن نتساءل : هل فتحها أحد الجيوش الإسلامية ؟ ونقدر أنه جيش معاوية بن حديج الذي دخل إفريقية سنة ٣٤ هـ ، أو كان فتحها على يد إحدى السرايا التي كان عمرو بن العاص ، ثم عبد الله بن أبي سرح يعثان بها لرتاد أطراف إفريقية غازية مستكشفة ، وهو ما نص عليه ابن عبد الحكم أقدم المؤرخين المسلمين بقوله .^(٤) « كان عبد الله بن أبي سرح أمير مصر

(١) الحلل السنسية ص ١٤٧ .

(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٨٩ ط بيروت .

(٣) انظر الحديث عن أبي لبابة في الباب السادس .

(٤) ص ٤٢ ط كربونال .

يبحث المسلمون في جرائد الخليل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون .

وعلى كل فالمسلم به أن العرب دخلوا قابس ما بين سنتي ٢٧ و ٤٠ هـ ، ولكننا نقدر أنهم لم يستقروا بها إلا بعد فتح عقبة لإفريقية سنة ٥٠ هـ ، ونقدر أن عائلات المجاهدين التي استقرت بها لم تلبث أن غادرتها بسبب ثورة البربر على عقبة واستيلائهم على إفريقية ولم يبق منها إلا القليل .
وعليه فلا يمكننا أن نعتبر أن العرب قد سكنوا قابس واستقروا بها نهائيا إلا بعد حملة حسان بن النعمان وانتصاره الحاسم على البربر سنة ٨٤ هـ (١) ، فن ذلك الوقت ظهر العرب في المراكز الهامة من إفريقية ، ونقدر أن الذين سكنوا قابس منهم إنما هم عائلات الجنود والعمال والتجار وعلماء الدين الذين يصاحبون دائما الحملات لفتح العقول وتطهير العقائد وتوجيه الحكام والدفاع عن الحق في مجالسهم على أن العرب بقوا رغم استقرار الحالة بإفريقية أيام الأغالبة قلة بالنسبة لسكان البلاد ، ولم يحدث وجودهم رغم اختلاطهم بالسكان أى أثر في المجتمع البربري الأصيل في البلاد عدا الأثر الديني ، والأثر التمديني الطيب الذي خلفه الأغالبة في المدن والسواحل ، أما الأطراف فلم تتأثر بشيء وبقيت فيها النزعة إلى الثورة ضد العرب الدخلاء حتى قدوم بني هلال وبني سليم منتصف القرن الخامس ، ومنذ ذلك الحين بدأ تعريب البلاد وظهر المنصر العربي وكاثر البربر واستطاع أن يصهرهم في بوتقته ويديهم في معدنه .

الزحف الهلالي :

في سنة ٤٣٥ هـ (٢) ثارت العامة على الشيعة الذين تركز مذهبهم

(١) خلاصة تاريخ تونس من ٥١ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٢ .

في البلاد أيام الفاطميين - فقتلوهم في كل مكان واضطر المعز لدين الله الصنهاجي - وكان تابعا للحلابة الفاطمية بمصر - أن يجارى الثورة وكان مالكي المذهب - ويفكر في الاستقلال عن الفاطميين فربص سنوح الفرصة لإعلان استقلاله حتى سنة ٤٤٠ هـ (١)، فأعلن تبعيته للحلابة العباسية ببغداد

(١) يذهب أستاذنا ح ح عبد الوهاب في الخلاصة ص ٩٣ أن قطع التبعية للفاطميين كان سنة ٤٣٩ هـ ، والصواب ما ذكره ابن عذارى في المغرب ح ١ ص ٣٩٩ أنه (في ٤٤٠ هـ قطعت الخليفة لصاحب مصر وأحرقت بنوده) وأيده ابن ناجي في المعالم ج ٣ ص ٣٤٣ حيث ذكر أن إعلان التظيمة وقع يوم عيد الفطر من سنة ٤٤٠ هـ ويؤيد صحة هذين النصين وجود اسم المستنصر الفاطمي في النقد المضروب سنة ٤٤٠ هـ واختفاؤه من النقود المصرية سنة ٤٤١ هـ ، في مجموعة النقود الموجودة (بالمعهد القومي للآثار التونسية) دينار ذهبي ضرب سنة ٤٤٠ هـ كتب عليه :

الوجه ١ الطوق : بسم الله ضرب هذا الدينار بصيرة سنة أربعين وأربعمائة .

الوسط : الإمام

المستنصر بالله

أمير المؤمنين

الوجه ٢ الطوق : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

الوسط : لا إله إلا الله

محمد رسول الله

على ولي الله

وفي نفس المجموعة دينار ذهبي ثان ضرب سنة ٤٤١ هـ كتب عليه .

الوجه ١ الطوق : بسم الله ضرب بمدينة عز الإسلام والقيروان سنة إحدى وأربعين .

وَأَرْبَعِمِائَةٍ .

الوسط : ومن يتبع غير

الإسلام ديننا

فلن يقبل منه

الوجه ٢ الطوق : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين

الوسط : لا إله إلا الله

وحده لا شريك له

محمد رسول الله

ومن الاطلاع على هذين الدينارين يتضح أن الصلة لم تقطع مع الفاطميين قبل سنة ٤٤٠ هـ =

وجاء التقليد العادى منها وغضب الفاطميون فسرخوا عرب الصعيد إلى إفريقيا وأعانواهم بالمال والسلاح وجعلوا لهم ملك ما يحتلون منها إلى آخر ما هو معروف من كتب التاريخ .

وكان الواصلون الأولون لإفريقية بنو هلال بن عامر^(١)، وأشهر قبائلهم زغبة^(٢) ودريد^(٣) ورياح^(٤) والأثيج^(٥) «وتهاون المعز أولاً فشغلهم بخدمته وأثقلهم بأعباء نعمته وهم في خلال ذلك يتمرسون بجبهاته ويدبون إلى أنصاره وحماته ويطلعون على مقاتله وعوراته حتى بان لهم شأنه وهان عليهم سلطانه»^(٦) .

وكان من بين أصدقائه المقربين إليه الأمير مؤنس بن يحيى الرياحى فاشتكى المعز له يوماً من تمرد جند صنهاجة وأعلن تبرمه من عنادهم وفسادهم ورغب إليه أن يدعو بني عمه من رياح ليكون منهم بطانة وجندا يجعلهم شوكة في حلق الصنهاجيين فنهاه مؤنس بن يحيى^(٧) عن ذلك ونصحه بأن

= بدليل وجود اسم المستنصر الفاطمى وشعار الشيعة (على ولي الله) على النقود المضروبة في هذه السنة واختفاء الاسم والشعار من النقود المضروبة سنة ٤٤١ هـ وكتب بذلك اسم الخليفة الفاطمى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) ولا يخفى ما في هذه الآية من تعريض بفساد عقيدة الفاطميين .

(١) هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس بن عيلان من العدنانية (معجم قبائل العرب ٣ ص ١٢٢١) .
(٢) قبيلة من هلال كانت لهم عزة وكثرة عند دخولهم إفريقيا (معجم قبائل العرب ج ٢ ص ٤٧٥) .

(٣) قبيلة من الأثيج بن هلال بن عامر كانوا أعز الأثيج وأعلام كعبا، لهم كانت الرئاسة على الأثيج كلهم لحسن بن سرحان بن وبرة (معجم قبائل العرب ج ١ ص ٣٧٩) .
(٤) رياح بن روية بن عبد الله بن هلال بن عامر (معجم قبائل العرب ج ٢ ص ٤٥٧) .
(٥) قبائل من هلال بن عامر كانت من أوفر القبائل عدداً وأكثرها بطوناً فكان لهم جمع وقوة وكانوا أحياء غزيرة وهم من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية (معجم قبائل العرب ج ١ ص ٤) .

(٦) رحلة التجانى ص ١٨ .

(٧) سباه الشاهى في كتاب السير ص ٣٧٣ (يونس بن يحيى) ولعل هذا الاسم هو الذى أوحى لكاتب أسطورة بني هلال باسم (يونس ويحيى) أخوى مرعى كما تزعم الأسطورة .

لا يستعين بقبائل هلال لأنهم أهل فساد لا يدينون بالطاعة لأحد وكان مخلصا في نصحه وأعرف بأهله من المعز ولكن المعز اتهمه بالأناية وبأنه يريد الاستئثار بالنعمة والجاه دون بني عمه فغضب مؤنس واشهد على المعز بأنه سيكون بربثا مما يقع من بني عمه في المستقبل ، وذهب لأحياء هلال النازلة ببرقة وطلب منهم الارتحال لإفريقية حسب رغبة المعز ولم يكادوا يصلون أطراف الجنوب التونسي حتى ظهر فسادهم وتخريبهم لكل ما يصلون إليه فاتهم المعز صاحبه (مؤنس بن يحيى) بأنه يجرضهم على الفساد ، وقبض على أهله وولده رهينة عنده وامتنع من إرسالهم إليه حسب رغبة (مؤنس) قال ابن عذارى^(١) : « فلما انتهوا إلى قرية تنادوا هذه القيروان ونهبوها من حينها فلما ورد الخبر على القيروان عظم الأمر على المعز وقال : إنما فعل مؤنس هذا ليصحح قوله ويظهر نصحه فأمر بثقاف أولاده وعياله وختم على داره حتى يعلم ما يكون من أمره ، فلما باع مؤنس ما فعل بأهله وولده اشتدت نكايته وعظم بلاؤه الخ » .

وهناك أعلن مؤنس العداء للسافر وأرسل لمن بقي من بني عمه في الالتحاق به فقدمت إليه بقية هلال وقبائل سليم بن منصور^(٢) من برقة وبدأت الحرب بين الجانبين^(٣) وكانت المعركة الفاصلة في جبل حيدران شمالي قابس سنة ٤٤٤ هـ حيث التقى المعز في نحو ثلاثين ألفا ببني هلال وسليم وهم في نحو ثلاثة آلاف فارس وكاد النصر يكون للمعز لولا انخداد زناتة ومنهاجة من جنده فتمكن الأعراب من الانتصار عليه وفر المعز من المعركة في بقية من حرسه الخاص إلى القيروان .

وقد ذكر هذه الواقعة شاعر الهلاليين علي بن رزق الرياحي في قصيدة مطلعها :

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٤١٨ .

(٢) يجتمع نسبهم مع بني هلال في منصور بن عكرمة .

(٣) انظر الخلاصة النقية ص ٤٧ وابن عذارى ج ١ ص ٤١٩ الذي أطنب في وصف

الواقعة وفي احتلال العرب للقيروان .

لقد زار وهنا من أميم خيال وأيدى المطايا بالذميل عجال
وفيها يقول :

وأن ابن باديس لا حزم مالك ولكن لعمري ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له ثلاثين ألفا إن ذا لنكال^(١)

والتحق به العرب للقيروان فصالحهم مدة وقرب إليه زعماءهم وأصهر
إلى بعضهم بيناته ، ولكن العرب لم يلبثوا أن نقضوا العهد وحاصروا
القيروان فاستجاش المعز بأصهاره منهم وارتحل إلى المهديّة في حمايتهم سنة
٤٤٩ هـ حيث نزل على ابنه تميم هناك ومات بجسرتة سنة ٤٥٣ هـ على
الأرجح ونهب العرب بعده القيروان نهباً فظيعاً لم تر مثله في حياتها الطويلة
مما دفع شعراء ذلك العصر إلى رثائها في قصائد رائعة خالدة^(٢) تلهب الضلوع
وتستلر الدموع .

وتمكن العرب من اكتساح كامل لإفريقية ثم اختلفوا وتحاربت قبائلهم
فدان بعضهم للأمرء المحليين كالصنهاجيين في المهديّة وبجاية واستقل بعضهم
بجهات من إفريقية مما يتعذر تفصيله في هذا الكتاب .

وكانت قابس إثر هذه الحملة من نصيب قبيلة زغبة ولكن لم تلبث
أن زحزحتها قبائل سليم ثم اصطلمحوا على أن تبقى قابس في أيدي بني جامع
من الرياحيين كما سيأتي ، وهم الفخذ الوحيد من بني هلال الذي بقي بجهات
الجنوب حيث انتشرت قبائل سليم .

والواقع أنه لم يكن لبني جامع إلا مدينة قابس أما أحوازها فقد انتشر

(١) هذه رواية التجاني في الرحلة ص ٢١ وفي رواية أخرى جاء هذا البيت :

ثلاثون ألفاً منهم هزمتهم ثلاثون ألفاً وذاك ضلال

ونقل ابن عذارى ج ١ ص ٤٢٠ عن ابن شرف هذا البيت كأيلى .

ثمأنون ألفاً منكم هزمتهم ثلاثون ألفاً، إن ذا لكال

(٢) كابن رشيق وابن شرف وعلى الحصرى وغيرهم .

فيها بنو دياب بن ربيعة بن زغب بن جرو بن مالك بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور^(١) حيث بقي أحفادهم إلى اليوم .

وإذا تمكن بنو دياب هؤلاء من الظهور في أحواز قابس وانصهر السكان الأصليون فيهم بحيث لم يبق لهم أثر يذكر إلا في جبال مطاطة فإن مدينة قابس بقيت محتفظة بنصيب من سكانها الأصليين من البربر والرومان ولو أن العرب قد تكاثروا وتناسلوا فيها حتى أصبحوا هم غالبية سكانها .

التعريب :

وكان لهؤلاء الأعراب أثر فعال في البلاد يتمثل في صبغها بالصبغة العربية فأخذ السكان عاداتهم وقلدهم البربر في حياتهم الاجتماعية وتناسوا لغتهم وعاداتهم فلم يبق لها ذكر في قابس وأحوازها عدا بعض قرى مطاطة التي احتفظت بلغتها وبعض عاداتها، كما أشرنا لذلك سابقا ، وظهر هذا الأثر أكثر وضوحا في آدابهم فقرض البربري الشعر بالعربية وكتب بهذه اللغة كما يكتب أبناؤها واندجت العائلات بالمصاهرة واختلطت الدماء وذابت حتى الصفات الجسمانية للبربري فأصبح عربي الملامح واللغة والأخلاق .

ويظهر أن سبب هذا التعريب السريع هو اتحاد الأرومة واتفاق النزعة والتفكير بحيث تعرب البربري بإرادته ورغبته دون أن يرى في ذلك الانقلاب أي جرح عايبه ، فما العربي إلا ابن عمه فرقت بينهم الأحداث ثم التقيا بعد قرون فكان كل منهما للآخر .

(١) عن رحلة التجاني ص ٨٥ .

الفصل الثالث

بعد التعريب

السكان وقدماء الرحالين - السكان الحاليون

قلنا في الفصل السابق أن العرب استقروا بقابس إثر الفتح الحقيقي في أواخر القرن الأول للهجرة أى في عهد حيان بن العمان (٧٨-٥٨٨) ، وعهد موسى بن نصير (٨٨ - ٩٥) ، وتكاثر عددهم بعد ذلك فذكرهم اليعقوبى في القرن الثالث من جملة سكان قابس قال^(١) : « وأهلها أنخراط من العرب والعجم والبربر » ويقصد من كلمة (العجم) السكان الذين هم من أصل روماني ، على أن أحواز قابس بقيت بربرية خالصة إلى ما بعد الزحفة الحلالية وهو ما أشار له المقدسى بقوله^(٢) : « وباديتها برابر » .

وكان العرب أهل خيام وماشية فلم يركنوا في بداية قدومهم لسكنى المدينة وإنما سكنوا باديتها حيث وجدوا مرعى لمواشيهم ، وهناك تكدست أحيائهم واشتجرت خصوصاتهم وسلكوا عاداتهم القديمة في الإغارة والإفساد ، فاجتمع على بادية قابس شران : شر سكانها الأصليين من البربر الذين انتشرت فيهم مذاهب الخوارج من صفرية ، وأبابضية^(٣) وأكثرهم يستحل دماء المخالفين من المسلمين وأموالهم . وشر الأعراب الغزاة الذين يدينون بعاداتهم الجاهلية التي لم يستطع الإسلام أن يحوها من أدمغتهم ، فكان المسافر بتلك الجهة والضعيف الفاقد للحماية عرضة لهذين

(١) اللدان ص ١٠٥ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .

(٣) انظر الحديث عن أصول هذه النمل في كتاب (مؤنس الأحبة في أخبار جربة)

تحقيقنا وعن حركاتهم بقابس في الباب الخامس الآتى .

الشرين . ذكر ابن ناجي في معالمة^(١) أن المعز الصنهاجي كان استعار كتباً من الزاهد الواعظ محمد بن عبد الصمد^(٢) ولما أرجعها لصاحبها وجد في أحدها بطاقة بخط المعز كتب فيها « زعمت ملوك الفرس وحكام السير والسياسة أن أهل التمسس والوعظ وتأليف العامة وإقامة المجالس أضر الأصناف على الملوك وأقبح أثراً في الدول فيجب أن يتدارك أمرهم ويبادر إلى حسم الأذى منهم » ففهم ابن عبد الصمد أنه مقصود بتلك البطاقة مخرج للحج ولم يكذب يغادر قابس حتى قتله بعض الأعراب في الطريق :

هذا شيخ زاهد في طريقه إلى الحج لم يسلم من القتل ، فما بالك بعيره من التجار وأصحاب الأموال مما جعل التجارة لا تمر إلا في خفارة مسلحة مما دفع بابن حوقل إلى التشنيع بهذه الحال فقال^(٣) : « وفي باديتهم شر شمر ودين قدر ، وذلك أنهم لا يخلون من الشراة أو القول بالوعد والوعيد والغيلة لبني السبيل والاعتراض لأموالهم في القليل والكثير ، الويل لمن نام بينهم والحرب على من جاورهم واستجار بهم ، مخالفة أكثر أيامهم لسلطانهم مواربون في الحقوق عليهم » . على أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا كلهم على هذا الشكل بل يوجد من بينهم بعض البيوتات الشريفة ذات الدين والأخلاق

(١) ج ٣ ص ٢٣٧ .

(٢) ذكر ابن عذارى هذه الحادثة في البيان المغرب ج ١ ص ٤٠٤ قال « في سنة ٤٤٢ هـ كان خروج الفقيه الزاهد الواعظ أبي عبد الله (محمد) بن عبد الصمد من القيروان في شهر رجب ووكلوا به رجالاً توجهوا معه إلى مدينة قابس وكانت الرفقة حارجة من القيروان إلى مصر فأمر أن ينتظروها بمدينة قابس إلى أن يصحبها وكوتب عامل قابس بأن لا يترك من يدخل إليه ولا من يسلم عليه ولا يخرج من موضع نروله إلا في يوم سفره فخرج وهو غير آمن على نفسه ثم قتل في طريقه ذلك ، وكان رجلاً واعظاً يعظ الناس فيجتمعون إليه ويسمعون كلامه وكان له لسان وحدة فحضره المعز واجتمع عليه بمض فقهاء القيروان واستبشعوا ألفاظاً ذكرها فرقموا رقاعهم إلى المعز بذلك فكان سبب نفيه وحتمه » .

ويفهم من كلام ابن عذارى أن الرجل حرج منفيًا ، ولم يخرج بإرادته .

(٣) المسالك ص ٤٧ .

السامية ، ولكن الفن المشتعلة من عصر الولاة إلى عصر الحفصيين هي التي أظهرت أهل الفساد . ومن المعروف أن الحمارنة سكان مارث وُعرام كانوا من العرب الحماة للقوافل وأبناء السبيل ، بل إن نفس الجند المرابط بتلك الجهات كان في العصور الأخيرة لا يتحرك إلا بإشارتهم ، وقد اشتهروا بأن من اعتدى عليه وبلأ إليهم ردوا عليه متاعه وحموه من الأعراب ، وكانت لهم مكانة لدى أعراب الجهة لشرفهم وانقطاعهم للبر والخير ، قال الورتلاي في نزهة الأنظار (١) : « وأما الحمارنة فن أجود العرب وأكرمهم نسباً لديهم وشرفاً عندهم قد جعلهم الله برشاقة القد وحسن الخد وهيئة الركوب وزينة الملابس وسعة البيوت ولهم جاه عظيم عند سلاطين تونس فإن محلة الأعراب أعنى محلة زواوة التي تأتي إلى نواحي قابس على أيديهم والحكم فيها حكمهم » .

وهكذا بقيت الحال عهداً مديداً وقبائل سليم هي المسيطرة على البلاد التونسية وقد اقتسمت بينها البلدان والأراضي وجعلت تستخلص الضرائب والائات على السكان وضعفت السلطة المركزية عن ردهم ومالت إلى الاكتفاء بتبعيتهم الاسمية لها وإلى الاستعانة بهم على حروبها ، وهذه السيطرة مكنت الأعراب من زحزحة السكان البربر من الأحواز فدخل بعضهم إلى الجبال وبعضهم إلى المدن حيث يوجد شيء من الأمن ، وامتزج البعض الآخر بهم امتزاجاً كلياً فذابت شخصيته فيهم واطمحل أثره .

أما سكان المدينة فقد بقوا على ما كانوا عليه خليطاً من العرب والبربر والأجناس الأخرى الواردة على قابس في مختلف العصور .

نعم إننا لا نستطيع اليوم أن نفرق بين جنس وآخر وبين العربي والبربري مثلاً لأن مقاييس الأنساب قد تغيرت ولم تبق عصبية للعائلات ولا للأجناس

وانتقلت العصبية إلى أحياء وعروش ، وقد نجد في كل منها الأصل العربي والبربري والروماني ، ويصعب جدا أن يصل الباحث إلى حقيقة أصول هذه العروش أو العائلات ، وغاية ما يمكن هو الاستنتاج والتكهن الذي يخطئ ويصيب .

يذكر التجاني أن المنطقة الممتدة بين قصور المباركة^(١) وقابس في عهده كانت في قسمة بني نائل بن عامر من دياب^(٢)، والمنطقة الممتدة من قابس إلى مرحلة نحو الحجامه كانت في قسمة لإخوتهم بني وشاح بن عامر ومنهم غربا تبتدي قسمة بني أحمد بن دباب الخ^(٣) .

هذا خارج المدينة ، وأما في داخلها فقد عرفت فيها بعض عائلات بزيرية لا تزال فروعها معروفة إلى اليوم وفي مقدمتها عائلة بني مكى اللواتين التي ملكت المدينة مائة ونيفا وسعين سنة. ولا يزال اسما ابن مكى واللواتي معروفين فيها . والمعروف الآن من العروش في قابس أربعة .

١ - عرش الجمامة : وهذا الاسم يذكرنا باسم بني جامع الهلاليين الذين استقلوا بأمر قابس نحو ثلاثة أرباع القرن ما بين القرنين الخامس والسادس ، ولعل هؤلاء من بقايا أولئك خصوصا إذا علما أن كثيرا من بني جامع الأولين بقيت عائلاتهم بقابس منهم الأمير مدافع بن زشيد آخر ملوكهم الذي هرب من قابس ثم طلب الأمان من الخليفة عند المؤمن بن علي فأكرمه وأرجعه لقابس فسكنها ومات فيها^(٤) .

(١) على نحو مرحلتين من قابس على طريق صفاقس .

(٢) نائل بن عامر بن جابر بن رافع بن دياب .

(٣) الرحلة ص ٨٥ - ٨٦ - ١٣٤ .

(٤) انظر رحلة التجاني ص ١٠١ والباب الخامس من هذا الكتاب .

٢ - عرش الشمامة : ينتسبون إلى رجل اسمه (شمام) ومنهم الذى ينسب إليه تقسيم مياه الغابة كما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

٣ - عرش أولاد بيدان : ولعل هذا الاسم محرف عن أولاد ليدان (باللام) وبنو ليدان هؤلاء بربر لواتيون من أبناء عم نبي مكي وكانت لعائلتهم مكانة فى حكم بي مكي لقابس .

٤ - عرش البرانية : والمفهوم من هذه الكلمة أنهم غرباء نزلوا المدينة فى عهود مختلفة والظاهر أن غالبيتهم من العرب :

على أن هناك عائلات أخرى غير هؤلاء تسكن المدينة الآن ، ونرى من اللائق أن نذكر المعروف من هذه العائلات والعروش فى أقسام قابس الخمسة :

١ - المنزل الشرقى : وتسكنه العروش الأربعة : أولاد بيدان - والبرانية - والجماعة - والشمامة .

٢ - المنزل الغربى : ويسكنه البرانية - والجماعة - والشمامة - والحمارنة - والمطاوة .

٣ - جارة الشرقية : ويسكنها : الجماعة - والحمارنة - والحزم .

٤ - جارة الغربية : ويسكنها الجماعة - والحمارنة - والحزم .

٥ - سيدي أبولباية : وسكانه : الحمارنة - والحزم .

وإذا كان ابن حوقل قد وصف سكان قابس القدماء بأنهم (قليلو الدماء غير محظوظين من الجمال والنظافة . وميهم سلامة)^(١)، فقد تغيرت

(١) المسالك : ص ٧٤ .

(٢) - ٢ -

الطبائع وبدلت المقاييس بطول الزمن وأصبح السكان متخلفين بجميع ما جلبته الحضارة الحديثة من أوصاع لسكان المدن الكبيرة ، ولعل الوصف الذى ذكره ابن حوقل قديما كان نتيجة للفن الهوجاء والصراع بين المذاهب الدينية والسياسية فى ذلك الوقت . وسبحان مبدل الأحوال ومغير الدنيا من حال إلى حال ه

البَابُ الخَامِسُ
وَلَاةُ وَمَلُوكٌ

الفصل الأول

قبل الفتح الإسلامي

تكاد نجهل كل شيء عن النظام السياسي والإداري لمدينة قابس في العصور القديمة ، وليس لدينا من النصوص ما يساعدنا على الوصول إلى معرفة الأحداث والتطورات التي تعرضت إليها هذه الجهة ، ولكننا سنحاول استخلاص شيء من التنف العابرة التي وردت في بعض الكتب التاريخية .

في العهد البربري :

نحن نجهل كل شيء عن نظام الحكم في قابس في العصر البربري حين كانت مجرد قرية لا أهمية لها ، فهي بلا شك كانت تابعة لسلطة أحد زعماء البربر ، وقد تكون سلطتها انتقلت من زعيم إلى آخر ، على أنه من المعروف أن هذه القرى الصغيرة كانت غالباً هادئة لا تشتغل كثيراً بالأحداث السياسية إلا متى ظهر فيها زعيم سياسي أو جاءت في طريقه في مناسبة من المناسبات .

وكل ما عرفنا عن البربر في ذلك العصر بصفة عامة أنهم كانوا لا يميلون لحياة العزلة والانفراد بل يعيشون جماعات أو قبائل شأن العرب في الجاهلية . وتمتاز كل قبيلة بأفرادها وتعصبهم لبعضهم لبعض ، أما مصالح القبيلة فيكفلونها إلى رئيس يشترطون فيه عدة مزايا كالشجاعة والقوة والكرم والحلم وغيرها من الخصال الحميدة التي تجعله أهلاً لذلك المنصب ، وتمكنه من الدفاع عن مصالح القبيلة الحيوية^(١) . ولا شك أن قابس كانت غير بعيدة عن هذا النظام .

(١) إفريقيا الشمالية في العصر القديم ص ٢٤ .

أما الأحداث السياسية والحربية التي تعرضت لها قابس في ذلك العصر فنحن نجهل عنها كل شيء ، ولانعرف ما إذا صادفتها حروب وأحداث وتطورات وما إذا كانت تنفرد بنظام خاص وزعيم خاص أو أنها كانت خاضعة لأحد الزعماء في مكان آخر .

في العهد الفينيقي :

وجاء الفينيقيون للبلاد تجاراً وكانت علاقتهم بالأهالي تجارية محضة فلم يتدخلوا في شؤونهم السياسية وبذلك حافظوا على العلاقات الطيبة معهم وكانت قابس مجرد مصرف تجارى ولكن قرطاجنة حين قوى مركزها وتمتنت شوكتها المادية أرادت أن تلعب دوراً في سياسة البلاد . . . وتمكنت بواسطة بعض عملائها من الربر أن تبسط سيطرتها شيئاً فشيئاً على السكان فتدخلت في شؤونهم وقبضت على زمام الحكم فيهم .

وسلطت عليهم أنواع الضرائب وسخرتهم لخدمة الجندية ولصناعة السفن وعاقبت المخالفين منهم بكل شدة وقسوة .

ومن المعروف أنه كان لقرطاجنة ولاية يمثلون الحكومة المركزية في سائر المناطق المحتلة تختارهم غالباً من بين التجار والصناع أى من الطبقة البرجوازية الرأسمالية التي كثيراً ما تقلم مصالحها الشخصية على مصالح الأمة^(١) .

ولما كانت قابس مدينة بحرية ومركزاً تجارياً هاماً فلاشك أنه كان لها وال قرطاجنى وكان لها نائب أو نواب في مجلس الشيوخ القرطاجنى .

' في العهد الرومانى (١٤٦ ق م — ٤٢٩ م) :

وانتصرت رومة على قرطاجنة سنة ١٤٦ ق م . واحتلت مركزها في إفريقيا ، والظاهر أن قابس بقيت خارجة عن هذا النضال فالوقائع كلها كانت

(١) نفس المصدر ص ٤٠ - ٤١ .

في الجهات الشمالية من البلاد وأقرت رومة نظاماً إدارياً في إفريقيا ، فعهدت برئاسة الشؤون العمومية إلى حاكم عام يحمل اسم (البروكنسل - Proconsul) وكان يستعين على القيام بمهمته بموظفين آخرين من الرومان والبربر لهم السلطة التامة على الأهالي . وكان هؤلاء الأهالي المساكين يتألمون من شتى الضرائب المفروضة عليهم فرضاً كالضريبة الشخصية والضريبة الفلاحية وغيرهما (١) .

واشغل الرومان بالناحية الزراعية فجلبوا للبلاد كثيراً من المعمرين ، وازدهرت البلاد في عهدهم وكانت قابس من المستعمرات الزراعية الهامة فنشأت حولها كثير من الضياع والحقول وأصبحت في العهد المسيحي مركز أسقفية تابعة لأبرشية طرابلس (٢) .

فهل كانت قابس تابعة في النظام المدني لطرابلس كما كانت عليه في النظام الديني ؟ أم كانت مقاطعة مستقلة بنفسها ؟ هذا سؤال لم نعر على جوابه بعد . وفي هذا العهد قام البربر بعدة ثورات للتخلص من الاستعمار الروماني مغتنمين كل فرصة لذلك ، وساعدهم على ذلك اقتصار الرومان على احتلال المراكز العسكرية والاقتصادية الواقعة بين البحر وخط مجاور للصحراء أطلقوا عليه اسم (ليمس - Limes) وهو عبارة عن سلسلة من الحصون يسكنها قداماء المحاربين المكلفون بحفظ الأمن هناك (٣) .

وجاءت الديانة المسيحية فاعتنقها البربر كوسيلة لناوأة الرومان المحتلين ولما أصبحت هذه الديانة هي الديانة الرسمية للدولة اغتم البربر فرصة

(١) المصدر السابق ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) J. Servonnet et F. Lafitte : Le golfe de Gabès en 1888, p. 220

(٣) إفريقيا الشمالية ص ٧٢ .

الخلافات المذهبية فدخلوا في المذهب المعادي للحكومة وشاركوا في جميع الثورات الدينية .

والظاهر أن قابس كانت من المدن التي راقبت هذه الأحداث عن كثب فسكانها خليط من البربر والفيثيقيين والرومان والقوة بيد الدخلاء وإذا كانت هناك أحداث فنحن نقدر أنها لم تتجاوز أحوازها البعيدة كجبال مطماطة وجبل دمر بجهة ورغمة :

مع الوندال (٤٢٩ - ٥٣٤ م) :

ودخل الوندال قابس عند احتلالهم لبلاد المغرب العربي على إثر فشل الوالى الرومانى أمام جيوشهم الجزارة المتوحشة الناهية ، والأظهر أنهم لم يجدوا أية مقاومة في هذه الجهة بعد استسلام العواصم الكبرى . وكان انتصارهم السريع على الحاميات الرومانية معزوا في غالبه إلى إعانة البربر سكان البلاد الذين يحاولون التلصص من الاستعمار الرومانى ولو بواسطة استعمار آخر شأن الضعيف في كل مكان وزمان .

والواقع أن إفريقية فقدت في هذا العهد كثيراً من الآثار العمرانية الرومانية التي خربها الوندال تخريباً تاماً لكنهم عاملوا سكان البلاد معاملة طيبة بالنسبة لسابقيهم .

فسياسة الرومان سلكت النظام الطبقي فجعلت من السكان ثلاث طبقات مختلفة الاعتبار . طبقة عليا وتمتع بجميع الحقوق والامتيازات دون غيرها ، وهذه الطبقة لا يسمو إليها إلا الرومانيون - (Les Romains) ، وطبقة وسطى وتشمل السكان اللاتينيين - (Latium) ، وطبقة سفلى تتكون من أهالى البلاد وأطلق عليها الرومان اسم الأجنب (Pérégrins) أى أن أصحاب البلاد هم الأجنب في عرف الاستعمار الرومانى ، وهذه الطبقة بالخصوص

كانت مضطهدة ليس لها أى حق فيما تمتاز به الطبقة الأولى وكانت هى التى تتحمل الضرائب المعفاة منها الطبقة الأولى . ولما جاء الوندال حافظوا على النظام الإدارى الرومانى فى مجموعة من محالس استشارية وبلدية الخ . وقسموا البلاد التونسية إلى خمسة أقسام إدارية كانت جهة قابس قسما من أقسامها وفرقوا فيها الولاة والموظفين وأسسوا محاكم قضائية خاصة بالفصل فى قضايا الوندال وأخرى خاصة بقضايا السكان من بربر ورومان^(١) .

وكانوا أميل إلى الرأفة بالبربر بقدر ما كانوا قساة على الرومانيين . ولما كان نظامهم ماكيا مستبدأ استأثر الملك بتسمية الولاة والعمال والموظفين ورجال الكنيسة الخ ولكن سيرة الوندال فى تقسيم الأرض التى احتفظوا لأنفسهم بالتصرف فى أخصب جهاتها وترك الباقى بيد الأهالى مقابل دفع ضرائب باهظة مع محاولة هؤلاء الأهالى الاحتفاظ بشخصيتهم وشعورهم بعزتهم الوطنية جعلهم يتململون من المحتلين الجدد وتظهر نواياهم هذه للمحتلين فيعمدون إلى هدم جميع التحصينات فى المدن البربرية وبذلك بدأ ظهور الشر بين الأسياد الجدد والسكان .

فى العهد البيزنطى (٥٣٤ - ٦٤٠ م) :

ولم يكد البيزنطيون يرتكزون فى هذه البلاد حتى شمروا للقضاء على مخلفات الوندال فعاملوهم بقسوة وشدة وشردوهم فى كل مكان وافتكوا منهم كل ما اغتصوه سابقا من أراض وضيعات وزعت بعد افتكاكها على الرومانيين الذين عاملهم أباء عمهم المحتلون الجدد بكل لين واحترام ، وأما الأهالى فقد حددوا فيهم السياسة الرومانية سياسة (فرق - تسد) ، وقسم البيزنطيون البلاد التونسية إلى قسمين : قسم الشمال التونسى وأطلقوا عليه اسم (zeugitane) ، وقسم الجنوب التونسى وأطلقوا عليه اسم (Byzacène) ،

(١) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ١٢٢ .

ولكل من هذين القسمين عامل يقوم على تسيير شؤونه تحت نظر الوالى العام البيزنطى صاحب قرطاجنة^(١) الذى كانت له سلطة واسعة على جميع الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية والمالية .

وأكثر غلطة ارتكبها البيزنطيون فى سياستهم هى بيع وظيفة عمال المقاطعات أى أنهم سلكوا نظاما إقطاعيا ظالما . فكانت وظيفة العامل تشتري بأعلى الأثمان ، ولا يكاد العامل يتسلم هذه الوظيفة حتى يشمر لاسترجاع المال الذى دفعه من الأهالى ولتكوين ثروة بأسرع ما يمكن حتى يضمن لنفسه شراء الوظيفة مرة ثانية أو يستغنى عنها بما كسبه من الأولى .

وهكذا دفعت هذه السياسة وما شابهها السكان إلى مناهضة المحتلين ، فقاموا بثورات عارمة لا تدرى هل كان لقباس فيها نصيب ؟ على أننا نميل دائما إلى أن هذه المدينة كانت بعيدة عن مثل هذه المحاولات ، اللهم إلا بعض جهاتها وخاصة الجبلية فلا يبعد أن تكون قد شاركت فى التمرد وذلك يرجع إلى ما ذكرناه سابقا من كثرة السكان الأجانب بقباس من جهة وإلى قربها من البحر وبعدها عن الحصون الجبلية التى تدبر فيها المؤامرات غالبا .

هذا بالرغم من أن الثورة الكبرى التى قام بها بربر طرابلس وبرقة بين سنتى (٥٤٥ - ٥٤٦ م) ضد البيزنطيين قد انتظمت كامل الجهة من برقة إلى قابس ؛ قال حسين مؤنس فى كتابه (فتح العرب للمغرب) نقلا عن كتاب (البربر) لمرسى ، متحدثا عن العهد الذى تلا الثورة المذكورة : « وظهرت دويلات وطنية لها قوانينها وأديانها وحكامها الذين كادوا أن يكونوا مستقلين فكانت لواتة التى تحتل الساحل من برقة إلى قابس ومعها :

(١) المصدر السابق ص ١٢٨ .

هواره ونفوسة على جانب عظيم من القوة وكان في استطاعتها بعد ذلك بسنوات قلائل أن تجمع نحواً من ستة عشر ألف مقاتل» (١) .

لقد كانت الثورات تنتظم هذه الجهة الواسعة ولكننا نستبعد أن تنال من العواصم المحصنة والمليئة بالجيوش البيزنطى كطرابلس وقابس .

بقي السؤال الذى لم نجد له جواباً لحد الآن وهو هل كانت قابس في هذا العهد مركز ولاية ؟ وهل جعل منها عامل منطقة الجنوب عاصمة له ؟ أم أنها كانت مدينة تابعة لمركز آخر بالجنوب ؟

والأظهر أنها كانت تابعة لمركز طرابلس مدنياً كتبعتها لها دينيا . قال حسين مؤنس نقلاً عن ديل (Diehl) في حديثه عن فتح طرابلس من طرف المسلمين : « لم يتم فتح إقليم طرابلس بسقوط صبرة إذ بقي من مدنها الكبرى جربة في جزيرة جربة (Menin) وقابس (Tacapes) على حدود إفريقية وبقي كذلك عدد من المسالحو الحصون مثل جرجيس (Girzis) (٢) . وعبارة : بقي من مدنها تدل على أن جربة وقابس وجرجيس كلها كانت تابعة لولاية طرابلس .

وعلى كل فيكفى أننا عرفنا بعض الشيء عن النظام السياسى والإدارى في المقاطعات منذ العهد الفنيقى إلى العهد البيزنطى وهو كل ما نطمح فيه من هذا التاريخ القديم .

(١) فتح العرب للمغرب ص ٥١ .

(٢) فتح العرب للمغرب ص ٦٦ - وإطلاق حسين مؤنس اسم Meninx على مدينة جربة خطأ إذ أن Meninx هى مدينة القنطرة وتقع في جزيرة جربة قرب القنطرة الحالية بينما تقع مدينة جربة القديمة بجهة (الحارة) قرب (حومة السوق) (انظر مؤنس الأحبة) بتحقيقنا .

الفصل الثاني

ولاية وثورات

فتح قابس - متن وثورات - النظام الإدارى فى هذا العهد

الفتح الإسلامى :

كان للمسلمين عيون على إفريقية توافيهم بأخبارها ، وكانوا على علم بما يجرى على صعيدها من ثورات وأحداث ضد البيزنطيين ، ويظهر أن تلك الأحداث قد حفزتهم للإغارة على إفريقية لإغارة لا يقصدون من ورائها فتحا حقيقيا وإلحاقهما بالعالم الإسلامى وإنما يقصدون جس نبضها وعجم قياتها واستطلاع طرقها ومرافقها تمهيدا لفتح كامل . ولذلك خف إليها من مصر عبد الله بن أبى سرح فى جيش لا يتجاوز عده عشرين ألفا فى سنة ٥٢٧ ، وانطلق هذا الجيش رأسا إلى جهة سيطة دون أن يتوقف فى الطريق . وتقابل مع (جرجير - أو جرجيوس) الحاكم البيزنطى فقتله ثم رضى المسلمون بالانكفاء إلى بلادهم مقابل غرامة مالية دفعها لهم البيزنطيون .

ولم يتوقف هذا الجيش فى قابس بل تركها دون فتح وتجاوزها إلى إلى سيطة ، هذا ما تكاد تجمع عليه الروايات التاريخية ، يقول حسين مؤنس : « يظهر أن جرجيوس استعد استعدادا كبيرا فى قابس لأن العرب سيتحاشونها عندما يشرعون فى غزو إفريقية فى حملة عبد الله بن سعد بل سيقتصدون إلى سيطة رأسا ، ولو قد وجدوا الاستيلاء عليها هينا لأخذوها فى طريقهم » (١) .

(١) فتح العرب للمغرب ص ٦٧ .

ثم يقول الأستاذ حسين مؤنس معللا إهمال المسلمين لفتح قابس في غزوة سييطة : « وربما حصن (جرجيوس) بعض ثغوره الشرقية كقابس لأن المسلمين وجدوها على الأهبة للقائهم حين أدركوها . وقد تحصن أهلها خلف أسوارها فلم يمكنهم الإستيلاء عليها » (١) .

ويقول في مكان آخر : « تتفق الروايات كلها على أن عبد الله (بن سعد) حاصر طرابلس (٢) في طريقه ثم استصوب أن ينصرف عنها كسبا للوقت وكذلك فعل عند قابس » (٣) .

ويقول في مكان آخر : « حين أدرك (ابن أبي سرح) قابس ، وجد أهلها متحصنين فانصرف عنها إذ أشار عليه الصحابة أن لا يشتغل بها عن إفريقية » (٤) .

إذن فقابس لم تفتح في الغزوة الأولى سنة ٢٧ هـ ، كما يزعم ياقوت معجمه ، وقد ذكرنا تفردة هذه الرواية سابقا . وهي رواية لا مستند لها ، وربما لم يطلع ياقوت على أقوال المؤرخين من قبله فاعتمد على أن قابس كانت في طريق الجيش العربي فلا يبعد أن يكون قد فتحها قبل تجاوزها إلى سييطة . والواقع أن ما فهمه ياقوت وبنى عليه - حسب الظن - تحديده لسنة فتح قابس (٢٧ هـ) هو الذي يتبادر إلى ذهن المتابع للتاريخ ، فقابس كانت من الحصون الهامة والمراكز الحربية الخطرة بصفتها واقعة على رأس خليج بحري وبوجودها في مجمع طرق هامة ، لكن فهم المؤرخ لا اعتبار له أمام النصوص .

نعم إن هذه النصوص لا تحدد لنا تاريخ فتح مدينة قابس ولكنها تتظافر

(١) نفس المصدر ص ٧٦ .

(٢) يفهم من هذا أن مدينة طرابلس انتقصت بعد فتح ابن العاص لها وتحصن فيها الروم .

(٣) فتح العرب للمغرب ص ٨٢ .

(٤) فتح العرب للمغرب ص ٨٥ .

على أنها لم تفتح سنة ٢٧ هـ ، وعللوا ذلك بأنها كانت محصنة وأن أهلها استعدوا للدفاع عنها خلف حصونهم عند مرور الجيش العربي بهم وأن هذا الجيش رأى أن فتحها سيقتضى حصاراً طويلاً وجهوداً عظيمة من الأجرى أن توجه نحو العاصمة الكبيرة لإرهابا لبقية الحصون .

إلا أنى أجد في النفس شيئا من هذا التعليل الأخر ، فابن أبي سرح كان من قواد بني أمية اللبقيين الذين اشتهروا بالدهاء وحسن السياسة مما جعل ابن الزبير يثنى عليه الثناء الجمل في خطابه الذى ألقاه بالمدينة عند قدومه على الخليفة يبشرى الفتح ، وليس من المعقول أن يترك ابن أبي سرح حصنا دفاعيا هاما مثل قابس خلف جيشه يتحكم في طريق روعه وليس عنده أمل في وصول إمدادات جديدة إليه تحمى خط رجعتة .

والتعليل المقبول لإهمال ابن أبى سرح أمر قابس هو أن المسلمين كانت لهم معلومات مدققة عن قوة البيزنطيين في إفريقية إثر الثورات البربرية ضدهم في طول البلاد وعرضها وأنهم كانوا على علم بأن الحصون التي خلصوها وراءهم مثل قابس لأهمية عسكرية لها وأنه لا يخشى خطرهما على خط رجعة الجيش وأنه كان لا يوجد فيها غير خامية ضعيفة يمكن لها أن تحمى الحصن في وجه الجيش أياما محتبئة خلف الأسوار. ولكنها لا تستطيع أن تتجاوز ذلك ، أصف إلى ذلك اطمئنان المسلمين إلى ولاء البربر لهم فلا شك أن البربر المنتسرون ما بين قابس وبرقة كانوا يساعدون الجيش الإسلامى^(١) وأنهم كانوا يحمون خط رجعتة . وقد كنا أشرنا إلى أن بربر هذه الجهة كانوا ثائرين على الحكم البيزنطى وأنهم كانوا يتحكمون في الأراضى

(١) فتح العرب للمغرب ص ٨٥ ، وقد نقل عبارة التويرى في نهاية الأرب وفسار ابن أبى سرح ويث السرايا في كل وجه وكان يؤق بالبحر والبناء والعلف . ووردت العبارة نفسها في معالم الإيمان ح ١ ص ٣١ مما يدل على أن البربر كانوا يوفرون للجيش العربى جميع المساعدات .

الواقعة ما بين برقة وقابس . وقد جاء في بعض النصوص أن الجيش الإسلامي نفسه كان يضم جماعة من هؤلاء البربر ، ثم اطمثان المسلمين أيضاً إلى عدم تلقي البيزنطيين أية نجدة من الخارج ، فقد كان جرجير انفصل عن بزنطة نهائياً وأعلن استقلاله عنها وليس له من القوة في الداخل ما يساعده على مقاومة الجيش العربي الغازي لعاصمته من جهة ، وإرسال نجدات للحصون الشرقية تستطيع الخروج من الأسوار وقطع خط الرجعة على المسلمين من جهة ثانية .

فقايس حينئذ لم تفتح سنة ٢٧ هـ ، ولكن متى فتحت ؟ هذا هو السؤال الذي لم نجد له جواباً مطمئناً إليه النفس ، إذ أن النصوص الموجودة تحت اليد لم تتعرض لهذا الأمر :

والمعروف أن المسلمين في إفريقية لم تستقر أقدامهم طيلة السنوات التي عقببت الغزوة الأولى أي من سنة ٢٧ هـ إلى تغلب حسان بن النعمان على الكاهنة حوالي سنة ٨٢ هـ ، وقد تحللت هذه السنوات عدة غزوات متعاقبة ، وفي كل مرة كان المسلمون يضطرون إلى فتح جديد وجهود جديدة بسبب النجدات البيزنطية التي كانت تتوارد على إفريقية محاولة حمايتها من رسوخ أقدام المسلمين فيها مع ما ينضم لهم من عملائهم البربر .

فنحن نعرف أنه لم يكند الجيش العربي الأول يتراجع إلى مصر حتى خرض البيزنطيون ضريبة ثقيلة على السكان تساوى ما غرموه للعرب^(١) .

فتار البربر وطرردوا عامل بزنطة واضطرت الفتن بين الروم والبربر ، وجاء معاوية بن حديج لإفريقية على رأس جيش عربي سنة ٣٤ هـ^(٢) .

(١) نفس المصدر ص ١٢٠ .

(٢) يذكرو غالب المؤرخين المغاربة أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث مرات سنة ٣٤ هـ ، سنة ٤٠ هـ ، سنة ٥٠ هـ ، وهي رواية أقدم المؤرخين العرب ابن عبد الحكم ، ولكن الإستاذ

(١٠ - قاييس)

واستقر بجهة القيروان واضطر للاقاة جيش بزنطى جديد فى سوسة فتغلب عليه قائده عبد الله بن الزبير .

ونجد معاوية بن حديج فى إفريقية سنة ٤٥ هـ ، بعد استقرار الحالة فى الشرق وحمود الفتن بموت على بن أبى طالب (رضى الله عنه) واستتباب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ، فبقى بن حديج يكافح البربر والروم فى الشمال بينما فتح عامله على طرابلس رومع بن ثابت جزيرة جربة سنة ٤٧ هـ .

ولم تكذبتم الفتوحات الكبيرة فى عهد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ ، حتى ثار البربر بمساعدة الروم تحت قيادة الزعيم البربرى كسيلة . واستطاعوا أن يطردوا العرب إلى ما وراء حدود إفريقية ، وعلى إثر هذا الزعيم تولت أمر البربر الكاهنة فارتكبت أكبر خطأ عرفه التاريخ بإحراق غابات الزيتون والأشجار فى إفريقية مما أثار ضدها الروم وكثيراً من البربر فأنحازوا إلى العرب ومدوا حسان بن النعمان بمساعدتهم وأعطوه طاعتهم حتى تمكن من التغلب عليها سنة ٨٢ هـ ، واستتب الأمر نهائياً للمسلمين . قال حسين مؤنس نقلاً عن نهاية الأرب للنويرى : « فلما قرب حسان من البلاد لقيه

حسين مؤنس شك فى صحة هذه الرواية ورجح أنه غزا إفريقية مرة واحدة سنة ٤٥ هـ ، معللاً ذلك بأن ابن حديج من أنصار عثمان وأنه وجد فى مصر سنة ٣٥ هـ ، على رأس أنصار عثمان وأن سنة ٣٤ هـ ، كان فيها الهيجان شديداً ضد عثمان فلا يعقل أن يكون ابن حديج قائداً لجيش مصر بعيداً عن مسرح الحوادث ، وفى سنة ٤٠ هـ لم يستقر الأمر بعد لمعاوية ولم يشتغل المسلمون بالفتوحات ، وفى سنة ٤٥ هـ ، كان ابن حديج معزولاً عن قيادة جيش مصر الخ .

والظاهر أنه لا مبرر لهذه التعليلات ما دامت الروايات مطبقة على تحديد السنة وقد يكون ابن حديج جاء إفريقية سنة ٣٤ هـ ، وبقى بعيداً عن مسرح الفتن لم يتصل به إلا بعض الفترات كان يضطر فيها للتقدم على مصر ، وأنه استمر مشغولاً بإفريقية حتى عزل عن القيادة .

« وأن الرأية التالية التى تجعل غزوة ابن حديج لإفريقية سنة ٤٥ هـ ، قد تكون هى الغزوة التى تمكن فيها ابن حديج من الفتوحات العظيمة فى الشمال »

جمع أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة فسره ذلك وسار إلى قابس فلقية أهلها بالأموال والطاعة» (١).

وقد يفهم من هذه العبارة (وسار إلى قابس فلقية أهلها بالأموال والطاعة) أن قابس فتحت في هذه العزوة (سنة ٨٨٢ هـ) ولكن هناك اعتبارات أخرى تجعلنا نستبعد ذلك وتصطرننا للتكهن بأن فتحها كان ما بين سنتي ٣٤ هـ و ٥٠ هـ ، في عهد معاوية بن حديج أو في أول عهد عقبة بن نافع .

١ - لأن ابن حديج جعل « مسيره على مقربة من الساحل فتقدم حتى أفضى إلى سهل تونس » (٢) ، ولاشك أنه افتتح الحصون التي جاءت في طريقه .

٢ - لأنه أسس في مكان القيروان (قيروانا) ابنتي بها دورا وحفر بها آبارا تسمى آبار حديج (٣) .

٣ - لأن أبا لبابة الأنصاري دفين قابس تنفق الروايات أنه مات سنة ٤٠ هـ ، ودفنه بقابس يدل على أنها كانت إذ ذاك بلدا إسلاميا أو أن الجيش الإسلامي قد طرقتها في تلك السنة وفتحها أو حاول فتحها (٤) .

٤ - إذا ذهبنا على أن فتحها كان على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ ، فالفتاح لها لم يكن عقبة نفسه وإنما هي إحدى سراياه التي كان يرسلها لمختلف الجهات أثناء توغله في إفريقية ، لأن عقبة قدم إفريقية من فزان على

(١) فتح العرب للمغرب ص ٢٥٢ .

(٢) فتح العرب للمغرب ص ١٢٠ .

(٣) الخلاصة النقية ص ٥ ومعالم الإيمان ح ١ ص ٤٢ .

(٤) انظر ص ١١ لبابة الفصل الأول من الباب السادس فهناك ذكرنا الخلاف

الواقع في شأنه .

طريق غدامس فنزواة والجريد ثم توغل من هناك إلى جهة القيروان (١) .
 وزعمنا بأن قابس لم يتأخر فتحها عن سنة ٥٠ هـ ، اعتمادنا فيه على
 أن عقبة بن نافع أسس مدينة القيروان في تلك السنة ولا يمكن أن يؤسس
 عقبة مدينة ستصبح مستقر الجيش الفاتح ويلذهب منها فاتحاً إلى المحيط
 الأطلسي بالمغرب الأقصى وتبقى قابس حصناً للعدو ويظل على مجمع
 طرق إفريقيا وهي باب إفريقية ونقطة الاتصال بطرابلس .

هذا وإننا لانزعم أن قابس فتحت من طرف أحد هذه الجيوش
 الكبيرة ، جيش ابن أبي سرح سنة ٢٧ هـ ، وجيش ابن حديج
 سنة ٣٤ أو ٤٥ هـ ، وجيش عقبة سنة ٥٠ هـ ، بل قد يكون فتحها من
 طرف إحدى السرايا الصغيرة التي كان يرسلها عمرو بن العاص وعبد الله
 ابن أبي سرح في زمن ولايتهما على مصر إلى إفريقية للإغارة
 والاستطلاع .

قال ابن عبد الحكم (٢) : « كان عبد الله بن أبي سرح أمير مصر يبعث
 المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من
 أطراف إفريقية ويغنمون ، فقد تكون إحدى هذه السرايا التي كانت
 تصل إلى قابس وما حوالها قد تمكنت من فتحها وقد يكون أبو لبابة
 الأنصاري مات في إحدى هذه الغارات ، ولكن الفتح لم يستقر إلا في إحدى
 الغزوات الكبرى .

فترة مجهولة :

وكما جهلنا تحديد السنة التي وقع فيها فتح قابس كذلك نجهل التطورات

(١) ابن عبد الحكم ص ٦٢ .

(٢) فتوح مصر وإفريقية ص ٤٢ .

والأحداث التي مرت على قابس من ذلك العهد حتى استقرار الفتح نهائيا سنة ٨٢ هـ، ونجهل هل بقي المسلمون مستقرين بقابس أثناء الزخوف التي وقعت بين المسلمين والبربر والروم أم أنهم غادروها عند تغلب كسيلة على عقبة وطردها المسلمين إلى ما وراء الحدود ، وعند تغلب الكاهنة على حسان في غزوته الأولى ؟ وكل ما نعرف أن بعض المسلمين اختار البقاء في إفريقية حين أمنهم كسيلة وحامهم من عادية جيشه ، وبقيت القيروان تعج بجماعات من حتى رجع الجيش العربي منتصرا بعد ذلك .

والأقرب أن تكون قابس مضطربة السياسة أثناء هذه الفترة : يكون حكمها عربيا كلما كان للعرب نفوذ في البلاد ثم ينقلب بربريا أو روميا أثناء الفترات التي تغلب فيها هؤلاء على العرب ، ولا شك أن كثيرا من البربر كانوا معتنقين للإسلام أو مناصرين للمسلمين وعلى الأخص بربر الجنوب .

كذلك نجهل مركز قابس أثناء الفترة التي تلت استقرار الإسلام فيها أي بعد سنة ٨٢ هـ ، فلا نعرف هل كانت مركز ولاية تابعة رأسا لعاصمة القيروان أم أنها كانت ملحقة بطرابلس التي كانت مركز ولاية تابعة للقيروان ونجهل كذلك أسماء المشرفين على حظوظها في تلك الفترة حتى سنة ١٤١ هـ ، حين أصبحت إحدى الولايات التابعة لخليفة نفوسة الأباضي .

تورات وفتن :

أشرنا فيما سبق إلى مساعدة بعض القبائل البربرية للمسلمين أيام الفتح انتقاما من البيزنطيين وتشبثا بالنزعة الاستقلالية المشهورة عند البربر وأعقب الفتح الحقيقي زمن حسان بن النعمان فترة من الهدوء والراحة سكنت فيها الفتن واستسلم البربر للواقع اطمئنانا إلى التعاليم الإسلامية التي

تجعل الناس سواء لا مزية لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى (كلكم لآدم وآدم من تراب) .

ولكن هذا السكون لم يدم إلا فترة معينة كان فيها التمسك بالتعاليم الإسلامية هو دستور حكام إفريقيا حتى ظهرت النزعة العربية المتمسكة بالنعرة الجنسية أيام الأمويين ، هذه النزعة التي تجعل السيادة للعرب وحدهم ، فلم تكف تظهر هذه النزعة في إفريقيا حتى تملأ البربر وتحركوا لشن الفتن والثورات وجعلوا من المذاهب الدينية الجديدة المتطرفة في تعاليمها كالصفيرية والأزارقة والأباضية^(١) التي ظهرت في إفريقيا مع بزوغ القرن الثاني للهجرة جعلوا منها مطية لمقاومة السلطة العربية وتسروا بها لتلبية نداء النزعة الاستقلالية في نفوسهم ، وأشهر ثوراتهم ثورة (عكاشة الصفري) على الأمير حنظلة بن صفوان الذي استطاع التغلب على الثورة سنة ١٢٤ هـ وإثر ذلك قام (عبد الرحمن بن حبيب الفهري) من أحفاد عقبة بن نافع مطالباً بالولاية لنفسه فقام معه ثوار البربر وتغلبوا على القيروان سنة ١٢٩ هـ ولكن عبد الرحمن وإخوته وأبناءه من القهريين لم يستقم لهم حال إذ كان الثوار البربر ينازعونهم السلطة ويشعلون حولهم حروباً وفتناً عمياء^(٢) .

وأثناء هذه الفتن نجد قابس ممرأ لكثير من هذه الجيوش يدخلها هذا ليخرج منها فيحل محله الآخر ، وهكذا تحملت هذه الجهة أكثر ما تحمته جهة أخرى من إفريقية بسبب مركزها الموجود على طريق النجدات والقريب من منازل القبائل البربرية القوية في نفوسة ودمر ونفزاوة ومن الصحراء حيث يلتجئ غالباً بعض الثوار إثر هزائمهم فنجد مثلاً أن عبد الرحمن بن حبيب الفهري مرفى جيوشه بقابس وذهب إلى جبل نفوسة سنة ١٣١ هـ ، ليقتل

(١) انظر خلاصة تعاليم هذه الفرق في تمهيدنا لكتاب (مؤنس الأعبة في أخبار حرب) .

(٢) خلاصة تاريخ تونس ص ٥٥ .

الثائرين الأباضيين عبد الجبار بن قيس المرادى والحارث بن تليد الحضرمي ويقضى على ثورتها ، فيقوم اسماعيل بن زياد إمام الأباضية مطالباً بثأرها ويحتل قابس سنة ١٣٢ هـ (١) ، وأن (حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب) لما وتب على عمه إلياس أمير القيروان فقتله وأخذ مكانه هرب عمه عبد الوارث إلى قبيلة ورهجومة البربرية لاجئاً إلى زعيمها عاصم بن جميل ، فحاربهم حبيب فهزموه فأنحاز إلى قابس وزحف البربر إلى القيروان فامتلكوها ثم نغزوا إلى حبيب بقابس فهزموه واحتلوا المدينة ثم التحقوا بحبيب في جبال أوراس فكانت الدائرة عليهم وكانت هذه الوقائع حوالى سنة ١٣٨ هـ (٢) .

وهكذا كانت قابس أثناء هذه التورات تنتقل من يد إلى يد كغالب مدن إفريقية فلم تركز فيها سلطة ولا اطمأنت لراحة ودعة .

الأباضيون :

ذكرنا في تحقيقنا لكتاب (مؤنس الأحبة) أن هذه الفرقة تنسب إلى الإمام عبد الله بن أباض الذي عاصر الخليفة عبد الملك بن مروان ، وأن هذا المذهب دخل إفريقية كغيره من مذاهب الخوارج وانتشر لدى البربر خصوصاً في جهات نفوسة ودمرو وأوراس .

وقدم من الشرق أثناء الفتن الإفريقية أبو الخطاب عبد الأعلى بن أبي السمح الأباضي (٣) فأعطى له بربر نفوسة الطاعة ونصبوه إماماً لهم فحاصر طرابلس وتملكها سنة ١٤٠ هـ ، ثم انتقل بجموعه إلى قابس فاحتلها سنة ١٤١ هـ وترك فيها والياً من قبله ، وتقدم إلى القيروان فاحتلها وترك فيها

(١) مؤنس الأحبة ص ٤٤ .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٨١ .

(٣) انظر ترجمته في (مؤنس الأحبة) .

عبد الرحمن بن رستم - مؤسس الدولة الرستمية بتاهرت بعد ذلك - والياً من قبله .

وبقيت قابس تابعة لأبي الخطاب حتى قدم محمد بن الأشعث والياً على إفريقية من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٤٤ هـ ، ففضى على أبي الخطاب قرب طرابلس وواى قابس في جيشه فاطرد منها العامل الأباضى وتقدم إلى القيروان فافتتحها وشرع في تطهير البلاد من الفتن .

والظاهر أن قابس نعمت في ظل الأباضيين خلال ثلاث سنوات بشيء من الطمأنينة وكثير من العدل والمساواة فهؤلاء الناس كانوا على غاية من التشدد في الدين والتمسك بالحق والقيام على نصرته والزهد في الدنيا .

ولاشك أن هذا السكون الذى نعمت به قابس استمر كامل عهد ابن الأشعث (١٤٤ - ١٤٦) وعهد الأغلب بن سالم التميمي جد الأغالبة (١٤٨ - ١٥٠) .

وفي هذه السنة (١٥٠ هـ) ثار (أبوقرة الصفرى) في جموع عديدة من البربر فذهب الأغلب إلى حربه بالزاب فاغتم الحسن بن حرب الكندى عامل تونس الفرصة وأعلن العصيان وهاجم القيروان فافتتحها فرجع الأغلب بسرعة وكاتب ابن حرب يعظه ويعرفه فضل الطاعة ووبال المعصية فأجابه الحسن بقوله :

ألا قولاً لأغلب غير سر مغلغلة عن الحسن بن حرب
بأن البغى مرتعه وخيم عليك وقربه لك شر قرب
فإن لم تدعنى لثنال سلمى وعفوى فادن من طعن وضرب

فسار الأغلب من الزاب إلى قابس التى بقيت في طاعته ، وهناك وافاه رسول الخليفة ومعه رسالة إلى ابن حرب ينصحه بالطاعة فامتنع من الرضوخ ، فهاجمه الأغلب ففر إلى تونس ثم أعاد الكرة والتقى بالأغلب في معركة كبرى

مات فيها الأغلب^(١) ، واستشرت نار الفتن في كل مكان ويظهر من مختلف الروايات أن مدينة قابس بقيت مخلصاً لأمراء القيروان نواب الخلافة على إفريقية بعد الأباضيين في عهد ابن الأشعث والأغلب التميمي ، ثم في كامل عهد الأمراء المهالبة (١٥١ - ١٧٨ هـ) فنحن نجد أن الفضل بن روح المهلبى آخر المهالبة لما ثار عليه (ابن الجارود) بتونس وطرده من القيروان التجأ إلى قابس^(٢) ، ولكن جهاتها الجبلية حيث يسكن البربر بقيت تابعة إلى أئمة نفوسة ثم انتقلت تبعيتها إلى أئمة تاهرت الرستميين الذين امتد نفوذهم إلى ضواحي طرابلس وكانوا يبعثون بولايتهم إلى هذه الجهات ؛ ففي الشماخي^(٣) أن سلمة بن قطفة كان عاملاً على قابس ونواحها للإمام عبد الوهاب بن رستم (١٦٨ - ٢٠٨) .

والواقع أنه لم يمتد حكم الرستميين لنفس المدينة كما يفهم من عبارة الشماخي لما كنا ذكرناه سابقاً من أنها كانت مخلصاً لأمراء القيروان ، ويصرح الشماخي نفسه في مكان آخر بقوله^(٤) : « أرسل الإمام عبد الوهاب إلى قابس قطعان بن سلمة الزواغي فحاصرها حوالى سنة ١٩٦ وكان خارج قابس - مطاطة - وزنزفة ودمروزواغة وغيرهم تحت ولايته » .

النظام الإدارى فى عهد الولاية :

كان النظام العرنى من عهد الفتح إلى عهد الاستقلال أيام الأغالبة يتلخص فى إناطة إفريقية بعهدة ولاية يعينهم خليفة المسلمين نواباً عنه ولهم النظر الأعلى على الدواوين الحكومية وأكبر هذه الدواوين ثلاثة :

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٨٧ .

(٢) خلاصة تاريخ تونس ص ٦٠ .

(٣) كتاب السير ص ٢٠٣ .

(٤) نفس المصدر ص ١٦١ .

١ - ديوان الجند (الحربية) ٥

٢ - ديوان الخراج (المالية) .

٣ - ديوان الرسائل (الخارجية والأخبار) .

أما المسائل العدلية والشرعية فكانت لنظر قضاة مستقلين لهم السلطة القضائية المطلقة حتى على الأمراء أنفسهم والأمن كان لنظر رئيس الشرطة الذى يعينه الوالى :

وكانت البلاد مقسومة إلى مناطق كل منطقة لها عامل يقوم بالإشراف على الحماية وعلى الخراج وعلى الأمن ويستقل القاضى بالقضايا الاستحقاقية والشرعية .

والظاهر أن قابس كانت فى هذا العهد تابعة لمنطقة طرابلس إذ أننا لم نجدها ضمن المناطق المعروفة فى ذلك العهد وهى خمسة :

١ - تونس ويمتد نظر عاملها على بلدان الشمال كبنزرت .

٢ - الراب وقاعدته (طينة) وتمتد المنطقة إلى جنوب قسنطينة .

٣ - قسطيلة وهى بلاد الجريد وقفصة ونفزاوة وقاعدتها (توزر) .

٤ - طرابلس وتمتد منطقتها إلى برقة .

٥ - المغرب ويشمل المغرب الأقصى والسوس (١) .

(١) عن خلاصة تاريخ تونس ص ٦١ - ٦٢ بتصريف .

الفصل الثالث

في ظل دولة إفريقية

في ظل الأعمالة - والماطيين - والصنهاجين - إلى الاستقلال

مع الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦):

بقيت قابس في عهد الدولة الأغلبية التي كانت أول دولة استقلت بإفريقية عن الخلافة الشرقية ، ولم تبق مرتبطة بها إلا الارتباط الروحي ، والتبعية الاسمية التي تقتصر على أمور شكلية كعهد الولاية الذي يرد من الخليفة إلى كل أمير جديد وتقديم مبلغ من المال ترسله إفريقية سنوياً للخليفة ، بقيت قابس في هذا العهد مخلصه لأمير القيروان ، لم تشارك في الأحداث والفن ناعمة بالهدوء والسكون والازدهار الذي عم إفريقية في ذلك العصر فلم تشارك في ثورة الجند التي اندلعت في تونس ضد زيادة الله الأول (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) بقيادة منصور الطنبلي (١) سنة ٢٠٨ هـ ، والتي عمّت غالب البلاد واحتلت عاصمة القيروان وحصرت زيادة الله في العباسية (القصر القديم) لم تشارك فيها قابس وبقيت مخلصه لزيادة الله حتى تغلب على الثورة . قال ابن عذارى متحدثاً عن هذه الثورة (٢) : « لم يبق بيد زيادة الله من إفريقية كلها إلا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس فإنهم تمسكوا بطاعته ولم ينقصوه شيئاً من جبايته ، وملك منصور جميع عمل زيادة الله وضرب السكة باسم نفسه الخ » .

(١) نسبة إلى طنبلة وكانت في مكان (المحمدية) اليوم قرب (أودنة) من أحواز

تونس .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ١٣٠

ولقد تغيرت حال إفريقية بعض الشيء في هذا العهد الاستقلالي وانصرف الأغلبة إلى تمصير البلدان وتوسيع العمران وتقوية وسائل الدفاع وتنظيم المصالح الإدارية والقضائية مما جعل إفريقية تأخذ بنصيب وافر من الحضارة والتمدن .

فقد بنى الأغلبة سلسلة من الحصون والرباطات على كامل الساحل البحرى في عهد أبي إبراهيم أحمد (٢٤٢ - ٢٤٩) .

وفي عهدهم بنيت مدينة العباسية المسماة بالقصر القديم على ٣ كم من القيروان سنة ١٨٥ هـ . في عهد إبراهيم الأول (١٨٤ - ١٩٦) ، ومدينة رقادة على ثمانية أميال جنوب القيروان سنة ٢٦٤ هـ . في عهد إبراهيم الثانى (٢٦١ - ٢٨٩) ومصرت مدينة صفاقس على يد قاضيا على بن سالم تلميذ سحنون ونائبه بصفاقس في عهد محمد الأول (٢٢٦ - ٢٤٢) وأبى إبراهيم أحمد (٢٤٢ - ٢٤٩) .

وفي عهد هذا الأمير بنيت غالب المؤسسات الدينية والمعالم العمرانية والمصانع والقناطر والمعازل والقلاع والقصور .

وفي عهدهم أيضاً نظمت المصالح الإدارية والقضائية ووزعت الاختصاصات ، فوجد الإمام سحنوننا (رضى الله عنه) عمدا حين تولى قضاء القيروان سنة ٣٣٤ هـ ، إلى الاستعانة بقضاة آخرين وتوزيع الأعمال بينهم في نفس العاصمة من بينهم قاض للحسبة أو أحكام السوق ، ويرجع إليه النظر في الأسعار ونظافة البلاد الخ . فدائرته كانت أشبه شيء بالبلديات اليوم ، وهذه الخطة كانت موجودة من قبل إلا أنها كانت من مشمولات قاضى البلد .

مع الفاطميين (٢٩٦ - ٣٦٢) :

امتلك الفاطميون القيروان سنة ٢٩٦ هـ ، وانتشرت جيوشهم تغزو بقية البلاد ، وأسسوا المهديّة وانتقل إليها عبيد الله المهدي سنة ٣٠٥ هـ ، ولم تنص المراجع التي بين أيدينا إلى سنة امتلاكهم لقابس ولكن الظن أنهم دخلوها في أول عهدهم قبل بناء المهديّة بدليل أنهم أرسلوا جيشاً لفتح مصر سنة ٣٠٧ هـ ، بقيادة ولي العهد أبي القاسم القائم ، ومعنى ذلك أن الطريق إلى مصر كان ممهداً قبل ذلك ، ولم ينص المؤرخون إلا على جزيرة جربة التي احتلها سنة ٣١١ هـ ، وكان تأخر فتحها ناتجاً عن عصبية أهلها من الأباضية ضد الشيعة ولضعف الأسطول الفاطمي في أول عهده عن اقتحامها .

وفي هذا العهد كانت قابس مركز ولاية ، وكان يتداولها (بنو لقمان الكتاميون) عمالاً للفاطميين ، قال النيجاني^(١) : « كانت ولاية قابس في أيام الشيعة مترددة في بني لقمان الكتاميين ، وفي بعض أمرائهم يقول الشاعر :

لولا ابن لقمان حليف الندى سل على قابس سيف الردى »

ومن بين هؤلاء علي ابن لقمان ذكره ابن عذارى في حوادث سنة ٣١٠ هـ ، حين تحدث عن خلاف بربر نفوسة الأباضيين على المهدي : « فأخرج إليهم علي بن سلمان الداعي (الذي فتح جربة في السنة الموالية) في جمع كثير ، فلما قرب منهم بيتوه فقتلوا كثيراً من أصحابه وانهمز الباقون وتفرقوا عن علي بن سلمان ، فسار علي إلى طرابلس وأخبر المهدي فكتب إلى علي بن لقمان عامله علي قابس بأن يقتل كل من يمر به من المنهزمين ، فقتل منهم جماعة وأمد المهدي علي بن سلمان بالجيوش وأخذ في حصار نفوسة^(٢) .

»

(١) الرحلة ص ٩٦ .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٣ .

ولعل الشاعر صاحب البيت (لولا ابن لقمان الح) يمدح علياً هذا ولعله يقصد هذه الواقعة .

ثورة ابن كيداد :

وفي عهد عبيد الله المهدي طهر بجهة الجريد رجل من زناتة من فرع (بنى يفرن) يدعى أبا يزيد مخلد بن كيداد كان مؤدب صبيان من غلاة الخوارج النكار^(١) يدعو ضد الشيعة ، فأمر عامل (توزر) بالقبض عليه وأحس أبو يزيد بذلك فخرج هارباً للشرق سنة ٣١٠ هـ .

ورجع إلى الجريد مستخفياً سنة ٣٢٥ هـ فقبض عليه العامل وسجنه فثار ابنه وبعض أعوانه على العامل وتمكنوا من إخراجه من السجن وفر إلى جبل (أوراس) وأظهر دعوته هناك وجمع جيشاً جراراً دخل به ملك الفاطميين وانتصر عليهم انتصارات متوالية لموالاة السكان له خصوصاً الفقهاء السنيين بسبب كرههم للشيعة ، وانحصر ملك الفاطميين في مدينة المهديّة التي امتنعت عن أبي يزيد بحصونها المنيعة ، ودامت هذه الفتنة حتى تمكن المنصور ابن القائم الفاطمي (٣٣٤ - ٣٤١) من الانتصار على أبي يزيد وقتله سنة ٣٣٥ هـ .

وكانت قابس من جملة المدن التي احتلها أبو يزيد في ثورته وترك فيها عماله ، والظاهر أن احتلاله لها كان حوالي سنة ٣٣٠ هـ ومنها ارتحل إلى جزيرة جربة فاحتلها سنة ٣٣١ هـ وبقيت تحت حكمه بقية ملك القائم الفاطمي ، أي من سنة ٣٣٠ إلى ٣٣٤ هـ وفي عهد ابنه المنصور واثراً انتصاراته على أبي يزيد رجعت قابس لحكم الفاطميين .

(١) انظر ترجمة أبي يزيد وقواعد المذهب الأباضي وسبب تسمية هذه الفرقة منهم بالنكار في كتاب (مؤنس الأحبة) بتحقيقنا .

مع الصنهاجيين إلى الاستقلال (٣٦٢ - ٤٩٠ هـ) :

وانتقل الفاطميون إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، وقلدوا ولاية إفريقية (بلقين بن زيرى الصنهاجى) وسموه (يوسف) وجعلوا الولاية من بعده لأبنائه وأضافوا له ولاية طرابلس بطلب منه سنة ٣٦٧ هـ (١) ، فاستقل بلقين بإفريقية وأخلص للفاطميين ولم يغير شيئاً من بدعهم المدهبية وأنظمتهم الإدارية والسياسية .

وكرّرت في هذا العهد ثورات البربر فشغل الصنهاجيون بإخمادها غالب أيامهم وعلى الأخص بالمغرب الأقصى والأوسط وطرابلس .

وبقيت قابس في عهدهم مركز ولاية تداولها عمال كثيرون ، قال التيجاني (٢) : « ترددت ولاية قابس في صنهاجة وعبيدهم فولها في أول الأمر بنوعامر ، ثم وليها إبراهيم بن يوسف بن زيرى وهو أخو باديس ثم منصور ابن ماواس ثم توالى بعد في أقوام من برغواطة ولاهم المعز بن باديس « ٤ والمفهوم أن بنى عامر تولوها في عهد بلقين بن زيرى (٣٦٢ - ٣٧٣) وكامل عهد ابنه المنصور (٣٧٣ - ٣٨٦) وفترة من عهد باديس بن المنصور يتوارثونها ، ذكر منهم ابن عذارى (٣) وابن خلدون (يوسف بن عامر) عامل قابس في سنة ٣٩١ هـ ، وذكر ابن عذارى أيضاً من عمالها في سنة ٣٩٣ (عطية بن جعفر) (٤) .

وجاءها بعد ذلك إبراهيم بن بلقين بعهد من ابن أخيه باديس بن المنصور (٣٨٦ - ٤٠٦) ولاندرى كم بقي فيها كما لا تعرف مدة منصور ابن ماواس ، وكل ما عرفناه من النصوص التي بأيدينا أن العامل على قابس

(١) ابن خلدون ح ٢ ص ٣١٨ ط بيروت .

(٢) الرحلة ص ٩٦ .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٣٦١ .

(٤) البيان المغرب ج ١ ص ٣٦٨ .

أيام زخفة بنى هلال كان يسمى (ابن وانمو الصنهاجي) ونجد (المعز بن محمد الصنهاجي) عاملا على قابس في عهد تغلب الأعراب على المعز بن باديس وانتقاله إلى المهديّة سنة ٤٤٩ هـ .

عيسى رضى :

وقبل أن نمضى في تعداد عمال قابس إلى سنة ٤٩٠ ، يجب أن ننبه إلى أن قابس كانت أثناء هذا العهد هادئة تنعم بما نعمت به إفريقيا من تقدم وترف في العصر الصنهاجي وعلى الأخص في عهد المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٣) الذى أثمرت فيه ما زرعه الأغلبية والفاطميون من بذور التقدم المادى والعلمى والأدبى والازدهار العمرانى والزراعى والتجارى^(١) .

ولا نشك أن قصر العروسين الشهير بقابس ببنى فى بنائه أثناء هذا العهد، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً . وكانت حياة الأمراء بالخصوص حياة بذخ وترف ظهرت آثاره فى مدائح الشعراء والمنتجين لمنحهم وأعطياتهم ، وكانت قصورهم موثلى الموائد والضيافات ومصدر الغرائب والأعاجيب .

حكى البكرى فى مسالكة^(٢) « أخبر أبو الفضل جعفر بن يوسف الكلبي ، وكان كاتباً لمؤنس صاحب إفريقيا (مؤنس بن يحيى) أنهم كانوا فى ضيافة ابن وانمو الصنهاجي صاحب مدينة قابس فأتاه جماعة من أهل البادية بطائر على قدر الحماسة غريب اللون والصورة ذكروا أنهم لم يروه قبل ولا عهدوه ، كان فيه من كل لون أجمله وهو أحر المنقار طويله ، فسأل ابن وانمو من حضره من العرب والبربر وغيرهم : هل رآه أحد منهم ؟ فلم يعرفه أحد ولا سماه ، فأمر ابن وانمو بقص جناحيه وأرسل

(١) انظر خلاصة تاريخ تونس ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) ص ١٨ - ١٩ .

في القصر ، فلما جن الليل جعل في القصر مشعل نار فما هو إلا أن رآه ذلك الطائر فقصده قصده وأراد الصعود إليه فدفعه الخدام وجعل يلح في التكرار على المشعل فأعلم ابن وانمو بذلك فقام وقام من حضر معه - قال جعفر : « وكنت فيمن حضر فأمر ابن وانمو بترك الطائر وشأنه فصار في أعلى المشعل وهو بتأجج نارا واستوى في وسطه وجعل يتفلى كما يفعل سائر الطير في الشمس ، فأمر ابن وانمو بزيادة الوقود في المشعل من خرق طران وغير ذلك فزاد تأجج النار والطائر فيه على حالته لا يكثر ولا يبرح ، ثم وثب من المشعل بعد حين يمشى لم يربه ريب^(١) . وأخبر قوم من أهل إفريقية أنهم سمعوا خبر هذا الطائر بمدينة قابس والله أعلم بحقيقة ذلك » . وإهداء الأعراب مثل هذا الطائر العجيب لعامل قابس يدل على أنهم يعلمون سلفا ما عليه العمال من البذخ وما يقدمونه من الجوائز لأصحاب الهدايا والمدايح .

والظاهر أن قابس لم ينلها شيء من الثورات البربرية التي حدثت في أيام المنصور وباديس والمغر سوى حصارها من طرف فلقل بن سعيد النائر على باديس سنة ٣٩١ هـ في عهد عاملها (يوسف بن عامر) .

وأصل الواقعة أن فلقل بن سعيد^(٢) هذا كان عاملا لباديس على طينة عاصمة الزاب فحدثت بينهما وحشة آلت إلى حرب انهزم فيها فلقل ببسيط مرماجنة (قرب نالة) سنة ٣٨٩ هـ ، وطاردته عساكر باديس بجهات الزاب فانتقل إلى إفريقية واستولى على أحواز قابس وحاصر المدينة فقاومه عاملها يوسف بن عامر فتركها فلقل وتقدم إلى طرابلس وكان جعفر بن حبيب أحد قواد باديس محاصرا لها إثر تغلبه على يانس الصقلي وقتله .

(١) هذا الطائر معروف بالهند يسمى طائر السمئو ، وكانوا ربما اتخذوا من ريشه أررا تق من يرتديها من النار وقد اشتهر أن ريشه لا تعمل فيه النار .

(٢) انظر ترجمته في (مؤنس الأحبة) بتحقيقنا

في زنزور^(١) ووردت إلى جعفر رسالة من عامل قابس ينذره بتحريك
فلفل إلى طرابلس ففك جعفر عنها الحصار وتحامى طريق فلفل راجعاً إلى
إفريقية فدخل فلفل طرابلس ومنها بعث بطاعته إلى الخليفة الفاطمي ، فأرسل
هذا إليه يحيى بن علي بن الأندلسي والياً على طرابلس وقابس فسلم له فلفل

(١) في واقعة يانس الصقلي هذا خلاف بين التيجاني وابن خلدون يحسن بنا أن ننبه إليه ،
قال التيجاني في رحلته (ص ١٨٢) عن هذه الحادثة . « إن باديس بن المنصور كان والياً على
إفريقية وكانت طرابلس مستثناة عليه لا يليها أحد من قبله بل تعين ولائها من مصر فأحب والي
طرابلس إذ ذاك أن يرتحل إلى مصر فكتب إلى الحاكم (الفاطمي) يطلب ذلك منه ليكون بين
يديه في حضرته وأن يوجه إليه من يتسلم البلد من يده فوجه إليه يانس المذكور وكان والياً
على برقة فلما وصل إلى طرابلس توجه واليها إلى مصر وأمكته من البلد فلما علم بذلك باديس
وجه إلى يانس يستفهمه عن سبب وصوله ويستدعي منه سجلاً إن كان بيده الولاية فبحث إليه
إنما بعثت نائماً عن أمير المؤمنين ومثلي يكبر عن أن يولي بسحل ، فحيث وجه باديس جعفر بن
حبيب . . لقتاله فأقام بقرية (أجاجس) متلوماً عليه وبعث إليه في أثناء تلك المدة يخبره في
واحدة من ثلاث ، إما نعت السحل إن كان بيده ، وأما القدوم على باديس ليفاوضه فيما
وصل إليه ، وإما المجازة بالحرب ، فعاد حوانه إليه يقول « أما الوصول فلا سبيل إليه وأما
سحل الولاية فأنا أكره من ذلك إذ كنت خليفة أمير المؤمنين على ما هو أعظم من طرابلس ،
وأما الثالثة فأنا أوافيك عن الحركة إلى وأحيثك إلى موضعك فأقاتلك به ، فتحرك إليه جعفر بن
حبيب متوجهاً إليه فزول عرى زنزور ودرل يانس بالجانب الشرق منها والزيتون بينهما ثم
التقيا فكانت الهزيمة على يانس وقتل أكثر جنده وأخذ هو أسيراً فطلب من أسرته أن يحملوه
إلى جعفر فأبوا من ذلك واحزوا رأسه ثم حملوه إلى جعفر ونجا فلل المنهزمين فلجأوا إلى
مدينة طرابلس ، ، فأق أهل طرابلس من تمكين جعفر من البلد ومن اللاجئين إليها إلى أن
وصل إليهم فلعل بن سعيد الزناتي فكانوه من البلد » ، ومادكره التيجاني هنا من أن طرابلس
كانت مستثناة على باديس لا يليها أحد من قبله بل تعين ولائها من مصر مخالف لما جاء في ابن
خلدون (ح ٦ ص ٣١٨ ، ط - بيروت) من أن طرابلس أضيفت إلى حكم يوسف بن زيري
(جد باديس) سنة ٣٦٧ هـ ، وكلام ابن خلدون هذا أولى بالقبول إذ لو لم تكن طرابلس
تابعة لحكم الصحابين^٣ لما أمكن لباديس أن يستغرب تولية يانس عليها وأن يطالبه بالاستظهار
بسحل الولاية ولما امتنع ناجزه بالحرب وقتله . وكلاهما وال تابع لخليفة مصر فالقول إذن
أن تكون طرابلس تابعة للصحابين فلما تعين لها وال من مصر طالوه بإظهار سحل الولاية
لشكهم في صحة مدعاه .

طرابلس سنة ٣٩٣^(١) وارتحل معه في جيشهما إلى قابس فحاصرا فيها عاملها عطية بن جعفر ، فامتنعت عليهما فرجعا عنها إلى طرابلس ولما رأى يحيى بن علي اختلال الحال عليه ولم يجد ما يعطى لرجالها عاد ببقيتهم إلى مصر واستبد فلفل بطرابلس^(٢) .

قابس الثائرة :

كنا أشرنا في الباب الرابع إلى الزحفة الهلالية وأسبابها وإلى الحصام الذي شب بين المعز بن باديس ومؤنس بن يحيى الصبري زعيم قبيلة رياح وكيف أصبح مؤنس في مقدمة الزعماء العرب المتألبين ضد المعز والجالبين عليه . ولما حقت الهزيمة على جند المعز في حيدران سنة ٤٤٤ هـ ، انتشر الأعراب في قابس وجهاتها مما جعل عاملها يداريهم بالمعاملة والإكرام اتقاء لشهرهم كما سبقت الإشارة إلى ذلك في حادثة (طائر السمندو) التي قصها البكري نقلا عن كاتب مؤنس بن يحيى الذي كان حاضراً للحادثة ضيفاً على العامل وعلى إثر تخريب القيروان وانتقال المعز للمهدية سنة ٤٤٩ هـ . وأصبح مؤنس بن يحيى هو الحاكم المسيطر على تلك الجهة مع بقاء العامل الصنهاجي وهو إذ ذاك (المعز بن محمد بن ولموية الصنهاجي) على قابس خاضعاً لمؤنس وليس للصنهاجين إلا الاسم . وصادف أنه كان للمعز بن محمد هذا أخوان يقودان نخيل المعز بن باديس وهما إبراهيم وقاضي . فغضب عليهما المعز وربما كان هذا الغضب ناتجاً عن تقصيرهما في قتال الهلاليين وصرفهما عن القيادة فالتحقا بأخيهما عامل قابس وتأمرا معه على العصيان والتمرد وصرف طاعتهم إلى مؤنس بن يحيى الرياحي أمير العرب وقطع كل علاقة مع أمير المهديّة وأعلنوا ذلك فتولى إبراهيم بن محمد ولاية قابس نيابة عن مؤنس

(١) يحملها التيجاني ص ١٨٢ سنة ٣٩٠ هـ .

(٢) البيان المغرب ح ١ ص ٣٦٨ وابن خلدون ح ٧ ص ٣٩ وما بعدها ط بولاق .

ابن يحيى بدل أخيه المعز الذى أخذه مؤنس لمحلته حتى توفى هناك ، ولاندرى السبب فى نزاع ولاية قابس من يد المعز وتولية أخيه وربما كان السبب فى ذلك تردده فى قبول ما عرضه عليه أخواه فى أول الأمر ونخشية مؤنس من انتفاضه . ومنذ حكم إبراهيم قابس فقدت هذه المدينة النائمة على تخوم الصحراء الراحة والهدوء فهى زيادة عن أخذ الأعراب بنخاقها منذ زحفهم إلى إفريقية أصبحت عرضة لثورات وفن وحركات جيوش لا تهدأ إذ عزم الأخوان الثائران إبراهيم وقاصى على الاستعداد لمنازلة المهديّة مغتنمين فرصة انتغال تميم بن المعز (٤٥٣ - ٥٠١) بثورة حمون ميسل البرعواطى بصفاقس (١) وقيام التمرد والثورات فى كل مكان وانتزاع عمال الأطراف على ما تحت أيديهم ، وقد انضم لهما كثير من الأعراب مؤملين بذلك التغلب على عاصمة المهديّة وفعلا سار قاضى بن محمد على قول ابن خلدون (٢) الذى يجعل ولايته على قابس سابقة لسنة ٤٧٤ هـ . سار هذا العامل المتمرد صحبة جموع من الأعراب يقودها مالك بن على الصخرى إلى المهديّة وحاصروها سنة ٤٧٦ هـ ، فهزمهم تميم ورجع الجيش المملوب إلى قابس وهربت فلول الأعراب إلى القيروان (٣) .

(١) ذكره التيجانى فى رحلته (ص ٧٠) وقال إنه قتل ابن عمه منصور البرعواطى عامل المعز على صفاقس غدرأ فى الحماة سنة ٤٥١ هـ ، واستقل بصفاقس وجاهر بالعصيان إثر موت المعز وطمع فى توسيع ملكه فاحتل بعض القرى المجاورة ثم هاجم المهديّة نفمها بإعانة قبائل عدى والأثيخ سنة ٤٥٦ هـ ، وحاصرها فاستنجد تميم بأصدقائه من العرب من زغبة ورياح فهاجموا ابن مليل من الخارج وخرج إليه تميم من الداخل فانهمز ورجع إلى صفاقس وفى سنة ٤٧٤ هـ حاصر تميم مدينة صفاقس « وعاث عسكره فى أجنحتها المعروفة بالغابة وأفسدها » كما قال ابن عذارى فى البيان المغرب (ص ٤٣١) ثم أفرج عنها وعاود تميم حصارها والتضييق عليها سنة ٤٧٩ هـ مع حصاره لقابس فى « زمن واحد بما لم يسمع بمثله » حسب عبارة البيان المغرب ولكنه لم يتمكن من التغلب على ابن مليل هذا واحتلال صفاقس إلا فى سنة ٤٩٣ هـ وهرب ابن مليل إلى قابس حيث أقام ضيفاً مكرماً لدى صاحبها مكى بن كامل بن جامع حتى مات بها .

(٢) ح ٦ ص ٣٢٧ ط - بيروت .

(٣) البيان المغرب ح ١ ص ٤٣١ والكامل لابن الأثير .

ورأى تميم أن لا بد له من حسم هذا الداء وإخضاع قابس المتمردة فقام إليها في جيش كثيف سنة ٤٧٩ هـ ، وحاصرها حصاراً شديداً في نفس الوقت الذي كان محاصراً فيه اصفاقس كما ذكر في تعليق سابق فامتنعت عليه فعاود الكرة سنة ٤٨٦ هـ فحاصرها حتى تمكن من فتح ربضها^(١) وذلك بعد أن صالح أهل (جنوة) الذين هاجموا المهديّة في أسطول عتيد سنة ٤٨٠ هـ ونزلوا بجنانها وأحرقوا بعض جهاتها حتى اضطر تميم لمصالحتهم على مبلغ من المال ليفرغ لتسكين الفتن بمملكته^(٢) ، وفي سنة ٤٨٩ هـ ، ثار سكان قابس على صاحبهم (قاضي بن محمد الصنهاجي) فقتلوه لسوء سيرته وأمروا بدله (عمر بن المعز بن باديس) أخا تميم وكان مغاضباً لأخيه ، فنهض إليه تميم وحاصره في قابس حتى تمكن من احتلال المدينة والقضاء على ثورتها^(٣) وسكت المؤرخون عن مصير عمر بن المعز صاحب قابس . ويظهر من عبارة ابن عداري في هذه الحادثة « وأخرج منها عمر بن المعز أخاه » أنه هرب من قابس ولم يتمكن منه أخوه .

وفي احتلال تميم لقابس يقول أحد الشعراء^(٤) :

ضحك الزمان وكان قدماً عابسا لما فتحت بجد سيفك قاسا
الله يعلم ما حويت ثمارها إلا وكان أبوك - قبل - الغارسا
أصدقت عذرتها نكاحاً جائزاً سمر القنا وبواتراً وفوارسا^(٥)
من كان بالبيض القواضب خاطباً حلت له بيض اللاد عرائسا^(٦)

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٤٣٢ .

(٢) حلاصة تاريخ تونس ص ٩٦

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٤٣٤ ورحلة التيجاني ص ٩٧ وابن الأثير ج ٨ ص ١٨٠ .

(٤) نسبها ابن الأثير ج ٨ ص ١٨٠ لابن خطيب سومة ، ولم نتوصل لمعرفته واقتصر

التيجاني على ذكر ثلاثة أبيات منها في رحلته ص ٩٧ .

(٥) هذا البيت ذكره التيجاني وأغمله ابن الأثير .

(٦) في هذا البيت اختلاف بين روايتي التيجاني وابن الأثير .

فاشتر تميم بن المعز بفتكة تركتك من أكناف قابس قابسا
ولوا فكم تركوا هناك مصانماً ومقاصراً ومخالدأ (٢) ومجالسا
فكأنها قلب وهن وساوس جاء اليقين فناد عنه وساوسا
ولكن هذا الانتصار لم يسفر عن نتيجة في مثل ذلك الخضم من الفتن
والثورات وسيادة الفوضى على كل مكان ، فبعد قليل من انصراف تميم إلى
المهدية ثار أهل قابس وأعلنوا العصيان وتملك المدينة العرب وطهرت فيها
أسرة بنى جامع الذين استقلوا بحكم قابس نيفاً وستين سنة كما سيأتى في
الفصل التالى .

وما سبق يمكننا أن نضع قائمة ولاية قابس من بداية عهد الصنهاجيين إلى
انتصاب أسرة بنى جامع كما يلي :

- ١ - بنو عامر ، آخرهم يوسف بن عامر كان والياً سنة ٣٩١ هـ .
- ٢ - عطية بن جعفر ، كان والياً سنة ٣٩٣ هـ .
- ٣ - إبراهيم بن يوسف بن زيرى .
- ٤ - منصور بن ماواس .
- ٥ - ابن وانمو - أيام الرحفة الهلالية .
- ٦ - المعز بن محمد بن ولموية حوالى ٤٥٠ .
- ٧ - إبراهيم بن محمد بن ولموية .
- ٨ - قاضى بن محمد بن ولموية قتله أهل قابس سنة ٤٨٩ .
- ٩ - عمر بن المعز بن باديس سنة ٤٨٩ .

الفصل الرابع

عهد الاستقلال (٤٩٠ - ٧٩٦ هـ)

سو جامع الرياحيون - بو مكي الوائون

- ١ -

بنو جامع

(٤٩٠ - ٥٥٥ هـ)

ذكر ابن خلدون أن بني جامع أسرة من دهمان من بني علي من قبيلة رياح الهلالية ، وهذه القبيلة كان زعيمها لأول عهد دخولهم (مؤنس بن يحيى) . وقد ذكرنا سابقا أن عمال قابس كانوا يدارونه أول الأمر ثم أعطوه الطاعة ووضعوا أنفسهم تحت سلطته منذ أيام المعز بن محمد الصنهاجى :

فقابس التى استقلت عن الصنهاجين فى منتصف القرن الخامس أصبحت تابعة لسلطان العرب من رياح ولو أن عمالها بقوا صنهاجين فعهد الاستقلال إذن يبتدىء من استيلاء الرياحيين عليها نهائيا حوالى سنة ٤٩٠ هـ . ولا ندرى كيف خلصت قابس لبني جامع دون بقية إخوانهم من الأسر العربية ، والظاهر أن بني جامع هؤلاء كانوا من الأسر الظاهرة المتزعمة وأن امتلاكهم لقابس كان برضى الأسر الأخرى التى تفرقت تغزو وتملك شيالا وغربا .

ولا نعرف بالضبط الظروف التى مكنت بني جامع من التملك على قابس فهل أنهم اغتتموا فرصة ثورتها على تميم فنزوا عليها ؟ أم أن سكان قابس

هم الذين استدعواهم للحكم؟ أو أن الأسر العربية اقتسمت تركة الصنهاجيين فكانت قابس من نصيب بنى جامع؟

كما أننا لانعرف بالصبب أول من تملكها من بنى جامع ، وكل ما ذكره المؤرخون أن أول من عرف من هذه الأسرة ، وقد يكون أول من ملك منها هو :

١ - مكى بن لامل بن جامع :

ظهر هذا الأمير بعد ثورة قابس على تميم بن المعز ، ولم يذكر المؤرخون متى ثارت قابس ولا متى تملكها مكى هذا ، ولكنهم ذكروا أنه كان موجوداً فى سنة ٤٩٣ ، ونحن نعرف أن تيميا تغلب على قابس وطرد منها أخاه عمر سنة ٤٨٩ ، فقدرنا أن تكون قابس ثارت أواخر ٤٨٩ أو أوئل ٤٩٠ ، وفرضنا أن مكى بن كامل كان أول من ملك من بنى جامع فتكون بداية ملكه لقابس حوالى سنة ٤٩٠ هـ .

وفى سنة ٤٩٣ هـ استجار به حمو بن مليل البرغواطى هاربا من صفاقس التى احتلها جيش تميم - وقد كنا أشرنا إلى أن حمو كان ثائراً بصفاقس - والتحق بقابس أيضاً المثنى بن تميم عاصياً لأبيه ، فرأى مكى أن مركزه قد تعزز بهذه الفئة المغاضبة للأمير المهديّة ، ويظهر أن الجماعة وجدت منه أرضاً طيبة لقبول بدور الإغراء والتحريض على مناوأة تميم ، فأظهر مكى عزمه على مهاجمة المهديّة ، بعد ما تكفل له المثنى بمصاريف الغزوة .

قصة المثنى بن تميم :

ذكر ابن الأثير أن السبب فى غضب المثنى على أبيه وفراره إلى قابس ، هو أن والده كان رشحه لولاية العهد أيام أسر أخيه يحيى بصفاقس عند

حمو بن مليل ولما أطلق يحيى من الأسر ورجع إلى المهديّة حرم المثنى من الولاية التي كان ينتظرها فحقد على أبيه وفر إلى قابس^(١) ، وقصة أسر يحيى سردها التيجاني في رحلته^(٢) وملخصها أن أميراً تركيا يسمى (شاه ملك) قدم على تميم فأكرمه ورتب له جراية فلم تعجبه ، وخرج يوماً صحبة يحيى ولى العهد إلى الصيد فقبض عليه وفر به إلى صفاقس فخاف صاحبها ابن مليل أن يميل السكان إلى يحيى ويملكوه فكاتب والده طالباً منه إرسال عائلات الأتراك وأموالهم مقابل إطلاق ولده إليه ففعل ورجع يحيى إلى المهديّة .

أما ابن الأثير فيقول عن (شاه ملك) إنه أمير تركي هرب من بلده إلى مصر بسبب حادث فحاه صاحب مصر وأخرجه إلى طرابلس فللكها فحاربه تميم وأسره وقدم به إلى المهديّة الخ ، ويجعل ابن الأثير فرار المثنى إلى قابس سنة ٤٨٨ هـ ، وهو غلط واضح ما دام هو نفسه (أى ابن الأثير) يقول وصاحبها (أى قابس) مكى بن كامل ، والمعروف ، أن مكى هذا لم يتول أمر قابس إلا بعد طرد عمر بن المعز عنها سنة ٤٨٩ كما ذكرنا ذلك سابقاً .

ونرجح أن التحاق المثنى بقابس كان بعد سنة ٤٩٣ هـ ، التي التحق فيها حمو بن مليل بقابس أيضاً - ولعله قدمها معه - ندليل أن ابن الأثير نفسه يقول إن المثنى حرض مكى بن كامل على مهاجمة صفاقس ويصرف هو على الجند فلم يحصلوا منها على طائل فذهبوا للمهديّة فهزمهم يحيى بن تميم وكان قائداً للجند ، وكان في هذه الحملة شاه ملك التركي^(٣) . وإذا صدقنا ابن الأثير في رواية مهاجمة صفاقس وعدم الحصول

(١) الكامل ج ص ١٧٤ .

(٢) ص ٧٠ - ٧١

(٣) الكامل ج ٨ ص ١٧٤ .

منها على طائل ، فمن الواضح أن ذلك كان بعد خروج ابن مليل منها سنة ٤٩٣ هـ إذ لا يمكن أن يهاجم مكى صفاقس وفيها صاحبه ابن مليل ، ويخلق لنفسه عدوين قوين تميا وحمو .

أما ابن خللون فيقتصر في هذه الواقعة على القول بأن المتنى لحق بمكى ابن كامل « مغاضبا لأبيه فهاجم معه المهديّة فلم يفعل شيئا واطلع مكى على خباثت المتنى فرجع عنها »^(١) . والأقرب عندنا أن يقال إن حمو بن مليل لما قدم قابس فارا من صفاقس كان في صحبته شاه ملك التركي والمتنى ابن تميم أو أن هذا الأخير التحق بهم بعد ذلك واجتمعت الجماعة على إغراء مكى بن كامل بمهاجمة صفاقس والمهديّة فأصغى مكى إلى إغرائهم وهاجم المهديّة ولكنه انهزم أمام جيش تميم ، وكانت هذه الهزيمة رادعة لمكى عن إعادة الكرة ومناوشة تميم حتى مات بقابس في سنة لم يجلدها المؤرخون ، إلا أننا نرجح أنه مات بين ٤٩٥ - ٩٤٨ ، لأنه هاجم المهديّة بعد ٤٩٣ ولا بد أن تحضيرات الهجوم استغرقت زمنا ، كما نجد رافعا ابنه قد أتم بناء باب بقصر العروسين سنة ٥٠٠ هـ ، فيكون حينئذ قد تولى قبل ذلك بزمن كما مات بقابس حمو بن مليل . ولا ندرى ما كان مصير شاه ملك والمتنى .

٢ - رافع بن مكى :

تولى الحكم بقابس إثر وفاة والده مكى وقد نهدت نار الفتن إلى حين ، ويظهر أن العلاقات قد كانت طيبة بينه وبين صاحب المهديّة يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ) ، قال التيجاني^(٢) : « توفى تميم ورافع متولى قابس ثم ولى يحيى بن تميم ، فصالحه وداراه طول حياته ثم توفى يحيى وولى بعده ابنه

(١) ح ١ ص ١١٤ ط الجزائر .

(٢) الرحلة ص ٩٧ .

على فأنف من مصالحة رافع الح « وهذه الفترة من الهدوء في أوائل ملك رافع والتي دامت من أواخر القرن الخامس إلى سنة ٥١٠ تقريباً مكنت رافعاً هذا من الاشتغال بإظهار أهبة الملك فيسط كفه للشعراء ، فانتالوا على بلاطه ، وتلفت لاستكمال بناء (قصر العروسين) وقد أشرنا سابقاً إلى أننا نرحح بأن بداية بنائه كانت في عهد الصهاجيين ، وأن بنى جامع هؤلاء استكملوه فبنى منهم رافع هذا جانباً وأكمل الباقي الأمير رشيد بن جامع بعده ، كما أشرنا إلى الباب الذي ذكره التجاني في رحلته^(١) وقال إنه وجد عليه كتابة جاء فيها « أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع بن أمير الأمراء مكى بن كامل بن جامع في رجب سنة ٥١٠ هـ » وفي الحين نفسه أمر ببناء نواة لأسطول بحرى وحرص على بناء سفينة ضخمة بساحل قابس أمده يحيى بن تميم بما احتاجه من مواد لبنائها فكانت هذه السفينة سيباً في نكبته إذ اشتعلت نار الفتنة بينه وبين على بن يحيى بن تميم صاحب المهديّة (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) الذي أنف أن يكون لأمر من أجواره أسطول يشاركه في البحر.

السفينة المسؤومة :

ذكر التجاني قصة هذه السفينة فقال^(٢) :

كان يحيى يحتمل لرافع أموراً منها « أن رافعاً أنشأ بساحل قابس سفينة أعدها لما يعرض له في البحر من الأمر فلم يد يحيى إنكاراً لذلك بل أعانه عليها وأمده بما احتاجه إليه فيها فلما ولي (على بن يحيى) أنف عن ذلك وكره أن يقاومه أحد من أهل إفريقيا في إجراء السفن في البحر فأنفذ أسطولا إلى ساحل قابس لمنع هذه السفينة من الإقلاع ، وأخذها إن أفلعت ، وعلم بذلك رافع فكتب لأجّار صاحب صقاية يسأله الإعانة على (على) ويخبره أنه إنما أنشأ تلك السفينة لبعث هدية يجب أن يهديها إليه فبعث لبحار إلى قابس

(١) ص ٩٥ .

(٢) الرحلة ص ٩٨ .

أسطولاً ضخماً لنصرة رافع . فلما بلغ ذلك علياً جمع رجال دولته واستشارهم في ذلك فكلهم أشار عليه باسترجاع أسطوله والتغاضي عن رافع في هذه المسألة حفاظاً لما بينه وبين بخار من المصالحة ، فرأى علي في ذلك وهما عليه فأمر ببقية أسطوله فأخرج للبحرين ، ووجهه إلى قابس فوجد الروم قد نزلوا من قطعهم لضيافة أعداء رافع فلم يراعهم إلا وصول الأسطول فبادروا إلى قطعهم فغلبهم المسلمون على أكثرها وقتلوا منهم جماعة كبيرة وكان ذلك من أشد الأسباب في الوحشة التي وقعت بين بخار وعليّ وابنه الحسن بعده حتى أدت إلى تغلب الروم على المهديّة وانقراض دولة بني ساد منها »

إذن فقد كانت هذه السفينة سبباً في محنة قابس والمهديّة معاً ، ويظهر أن رافعاً كان من الذين لا يملكون وازعاً وطنياً ولا دينياً فلم يكذب ينكر عليه علي بن يحيى بناء السفينة حتى استنجد بلجار صاحب صقلية وعدو إفريقية الألد . وأعطى الطاعة لهذا الأمير الإفريقي وطلب حمايته وكان روجار ينتظر مثل هذه الفرصة ليثبت قدمه على سواحل إفريقية فأرسل أسطوله لحماية قابس واستقبل رافع الإفريقي بالفرح والسرور وأعد لضباط الأسطول مائدة ضيافة بقصر العروسين فكانت النتيجة أن أسطول المهديّة فاجأهم بساحل قابس وهزمهم هزيمة شنيعة وملك قطعاً من أسطولهم ، وفي هذه الواقعة يقول محمد بن عبد الله الكاتب^(١) ، يمدح علي بن يحيى من قصيدة « :

ليهن المعالي ان تملك رقها علي بن يحيى بالحجا والتكرم
جوى وجرى صيد الملوك فيهمم إلى غاية في المجد لم تتقدم

(١) ذكر صاحب الخريدة أنه من كتاب الدولة الحمادية بجاية وأورد له رسالة عن يحيى بن العزيز الحمادي المتولى سنة ٥١٥ هـ يستنجد فيها بعض أمراء العرب بولاية بجاية لمقاومة جيش عبد المؤمن بن علي الزاخف على بجاية سنة ٥٤٤ هـ (انظر الخريدة نسخة الأحمدية عدد ٤٦٣٣ ورقة رقم ١١٤ وجه ٢) .

وصمم تصميم الحسام مبادراً لإطفاء نار آذنت بالانصرم
تعدى على الإعلاج في بحر قابس وسار إليهم في الخميس العرمم
فولوا على الادبار كلا وأجفلوا بنات نبا عنهم وظفر مقلّم^(١)
وقال محمد بن عبد الصمد بن بشر التنوخي^(٢) يصف أسطول المهديّة
الذى هاجم قابس وانتصر على أسطول صقلية :

وأعددت للأعداء كل مصم صم يسير إليهم قاصداً وهو أهوج
كثل الرواسى منعة غير أنها على ثبج ادماء تردى وتولج
كان القنا والنبل في جنباتها سبال بأكفاف الهضاب وعوسج
يعيد مضىء الجوا أقم حالكا دخان لظى من نارها يتوهج ...
إذا نضضت من السن لهبية بمارج نار يستقل ويعرج
رأيت صلالاً أخرجت من جهنم تحرق أكباد العداة وتنضج

وفي هذا الأسطول المنتصر يقول ابن حمديس الصقلى^(٣) من قصيدة طالعتها :
نعيمك أن تزف لك العفار عروسا في خلائقها نفار
ومنها يخاطب على بن يحيى :
لقد أضحى على دين النصارى لدين المسلمين بك انتصار

(١) نقل هذه الأبيات التجاني ص ٩٩ - والحلل السنسية ص ١٥٦ .

(٢) من أدباء المهديّة في النصف الأول من القرن السادس ومن شعراء بلاط على بن يحيى الصنهاجى قال العماد الأصهبانى في الحريدة (ورقة رقم ١٢٣ - وجه ١ - مخطوطة الأحمدية بجامع الزيتونة) هو من معاصرى أمية بن عبد العزيز .. وأورد له أمية أشعاراً في كتابه (الحديقة) وكان أمية يخاطبه بأشعار كثيرة .

(٣) أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأردى الصقلى ، ولد وتعلم بصقلية ورحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ هـ فنجح المتمد بن عباد وانتقل إلى إفريقية سنة ٤٨٤ هـ فنجح يحيى بن تميم وابنه عليا وحفيده الحسن الصنهاجيين ، ثم رحل إلى الأندلس متوفى بميورقة سنة ٥٢٩ هـ عن ثمانين عاماً ، وديوانه مطبوع وقيل إن المطبوع تماذج منه (انظر الوفيات ح ١ ص ٣٠٢ وتكلمة الصلة ص ٦٣٧ - والأعلام للزركلى ح ٤ ص ٤٧) .

حيث ذماره برا وبحرا
 أراك الله في الأعلاج رأيا
 رأوا حربية^(١) ترى بنفط
 كان المهل في الأنبوب منه
 إذا ماشك نجر العالج منه
 وكان منافس البركان فيها
 نحاس ينبرى منه شواظ
 وما للماء بالإطفاء حكم
 فرد الله بأسهم عليهم
 وخافوا من مناياهم وفروا
 وقد جعلوا لهم شرع الشواني
 بمرهفة بها يحى الذمار
 لهم منه المذلة والصغار
 لإخاد النفوس له استعار
 إلى شىء الوجوه له ابتدار
 تعالى بالحمام له خوار
 لأهوال الجحيم بها اعتبار
 لأرواح العلوج به بوار
 عليه لدى الوقود ولا اقتدار
 فريجتهم بصفقتهم نخسار
 فدافع عن نفوسهم الفرار
 مع الأرواح أجمحة وطاروا

* * *

لك الفلك التى تجرى بسعد
 تهب لها الرياح مسخرات
 يدور به لك الفلك المدار
 وتسكن فى تحركها البحار
 ورجح أطول المهديّة عن قابس ظافرا منتصرا ، ويظهر أن على بن يحيى
 رأى أن يحسم الداء قبل استفحاله باحتلال قابس وطرده رافع منها ، فأعد
 الأساطيل لمهاجتها سنة ٥١١ هـ ، ولم يجد رافع نصيرا « فأرسل جماعة من
 وجوه قومه راعبا فى المصالحه فلم يجبه على إليها ، فرأى أنه ليس له قبل بقتال
 على فقصد إلى القيروان^(٢) . ويشير ابن الأثير^(٣) إلى أن رافعا هاجم المهديّة

(١) أسطولا حربية .

(٢) رحلة النحاش ص ٩٩ ويهيم من هذه العبارة أن الحرب لم تقع بينهما وأن رافعا
 فر إلى القيروان خوفاً ، ولكن ابن خلدون يقول ج ١ ص ٢١٤ ط - الجزائر - أن عليا
 « هاجم رافعا ومعه العرب فصر رافع إلى القيروان » ومعنى ذلك أنه فر منهزما وهو ما يقوله
 ابن الأثير .

(٣) الكامل ج ٨ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

فانكسر وانهمز إلى القيروان ، وجاراه على ذلك ابن عذارى^(١) فقال : « نزل رافع على المهديّة . . ووقعت الحرب بين الفريقين . . ثم أفسد على عليه ثلاثة أحماس العرب فصعد رافع ثم ولى قاصداً القيروان » ولكن ابن خلّون والتجاني لم يشيرا إلى هذا وإنما اتفقا على أن عليا هو المهاجم لقابس وأن رافعا أجبر على الفرار إلى القيروان .

وعلى كل فإن رافعا بعد انهزامه إلى القيروان ، اجتمع شيوخ دهمان واقتسموا البلاد بينهم وسلموا له الإمارة على مدينة القيروان ولكن على بن يحيى لاحقه بالعرب هناك بعد ما وزع عليهم الأموال فأنشبوا القتال مع رافع وأقلقوا راحته وكادوا يتغلبون عليه ، فتدخل الأمير ميمون بن زياد الصخرى وكان من أصدقاء على وله عليه دالة لأنه كان وجهه لجبل وسلات فأخذ فتنته وقضى على الشريفه ، تدخل هذا الأمير بالصلح بين على ورافع ، ورجعت قابس لبنى جامع^(٢) فللكها رشيد بن مدافع بن كامل بن جامع كما جاء في التجاني^(٣) . ويسكت المؤرخون عن مصير رافع بعد تملكه للقيروان ، عدا ابن الأثير الذي ذكر أن رافعا قد دخل القيروان بعد قتال نشب بينه وبين أهلها وأن على بن يحيى قد طرده منها ، وإثر ذلك وقع الصلح ويقضى برجوع رافع إلى قابس^(٤) . وإذا ذهبنا مع هذه الرواية وليس لدينا ما يجمع من اعتمادها فالظاهر أن رافعا قد توفى بقابس إثر رجوعه وخلفه رشيد ابن عمه . وفي انتصار على بن يحيى على رافع وفرار هذا إلى القيروان يقول محمد بن عبد الصمد بن بشير :

سل رافعا ما الذى أجرى تنصره وهل نبي الدل عنه من به وتقا

-
- (١) البيان المغرب ج ١ ص ٤٤٢ .
 (٢) ابن خلّون ج ١ ص ٢١٤ ط الجزائر .
 (٣) الرحلة ص ١٠٠ .
 (٤) الكامل ، ح ٨ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

لو لم ير الروم أهلا والصليب أبا لم يشك من عيشه في قابس رنقا
 إنفاقك المال في العلياء ألحقتَه بالقبروان التي يعتدّها نفقا
 أبدت له عزة للجاهلين به وكان ستر عليه قبل فانخرقا
 لله فعلك لا للمال تجمعه وكيف ذلك وقد شئتَه مزقا
 وكل مال تشاد المكرمات به أشد ما هو توفيرا إذا محقا^(١)

٣ - رشيد بن مدافع بن طامل :

قال التجاني هو مضموم الراء^(٢) تولى أمر قابس بعد ابن عمه رافع وآثر الصلح مع علي بن يحيى القاضي ببقاء بني جامع بقابس سنة ٥١١ هـ أو ٥١٢ هـ على الأكثر ، وقد استتب الأمن في أيامه وحصر أعماله في تنظيم ولايته وتشديد البناءات وإظهار أهبة الملك وبسط العطاء للرعية فأصبح منتج الشعراء والأدباء ، مدحه ونهم جماعة في مقلدتهم ابن حمديس الصقلي بقصيدة روى منها التجاني بيتا واحداً وهو :

أفلا يجالفي الرشاد وهمتي قصدت بعزم للأمير رشيد

وبحثنا عن القصيدة في ديوان ابن حمديس فلم نعثر عليها .
 وأكمل بناء العروسين حسبنا أشرنا إلى ذلك سابقا ، وضرب السكة باسمه فساها ابن خلدون بالسكة الرشيدية وذكر أستاذنا حسن حسني عبد الوهاب أنه يوجد بإسبانيا قطعتان من نقود بني جامع أصحاب قابس .

وتوفي رشيد هذا سنة ٥٤٢ هـ ، على قول ابن الأثير^(٣) . بعدما نعمت قابس في أيامه بفترة من الهدوء والعظمة والازدهار .

(١) نقلها التجاني ص ٩٩ - ١٠٠ والحلل السندسية ص ١٥٦ .

(٢) الرحلة ص ٩٥ .

(٣) الكامل ج ٩ ص ١٦ .

٤ - محمد بن رشيد :

تولى الإمارة إثر موت أبيه والمفهوم من أقوال المؤرخين أنه كان رجلاً ضعيفاً سلم تصريح الأمور وحفظ الدولة إلى مولاه يوسف ، فاستبد بالأمر دونه وتناول على أهل القصر والسكان ، ولم يكفد يخرج الأمير محمد من قابس لشأن من الشؤون لم يوضحه ابن خلدون . وذكر التجاني أنه خرج لحرب عدو له ، لم يكفد يخرج الأمير لهذا الشأن ويترك ولدأ له صغيراً نائباً عنه حتى استبد يوسف على هذا الولد فطرده من القصر واستولى على الإمارة مستجيراً بروجار صاحب صقلية واضعاً نفسه تحت حمايته فأرسل له روجار الخلعة والولاية مرحباً بطاعته له واحتجائه به .

هذا ما يقوله التجاني وابن خلدون^(١) ، أما ابن الأثير فيزعم أنه إثر وفاة رشيد استبد مولاه يوسف بالأمر وبايع ابنه الصغير محمداً وهرب ابنه الكبير (معمر) إلى أخواله (بنى قرة) وأن يوسف اعتدى على حرمان سيده فأشتكت (القرية) إلى إختونها فطلبوها منه فامتنع وذهب معمر إلى حسن الصنهاجى مستجيراً به ، فخطبته الحسن فى تسليم المرأة فامتنع ، فهاجمه الحسن والعرب وثار عليه أهل قابس وقتلوه ، وتولى الحكم معمر بن رشيد بنو قرة أختهم الخ^(٢) .

ولعل معمر الذى ذكره ابن الأثير قد مات فى هذه الفتنة أو تنازل لأخيه مدافع أو لعله هو الأمير (مدافع بن رشيد) الذى تولى بعد أخيه محمد بن رشيد إثر هذه الواقعة وقد أطلق عليه اسم (معمر) خطأً فىكون الأقرب للصواب أن يقال إن رشيدا أوصى بالإمارة لابنه الصغير محمد دون

(١) ابن خلدون ج ١ ص ٢١٤ ، ط الجزائر ، ورحلة التجاني ص ١٠٠ :

(٢) الكامل ج ٩ ص ١٦

أخيه الكبير مدافع ، فلما استبد يوسف بالأمر هرب مدافع إلى العرب وإلى
الحسن الصنهاجى مستنجداً بهم .

ويسكت المؤرخون الثلاثة عن مصير محمد بن رشيد ، والأرجح عندنا
أن يكون قد مات في هذه الأحداث أو خلع عن الإمارة بسبب ضعفه
أو صغره وظهور رافع في الدفاع عن كيان البلاد ضد روجار وصنيعته يوسف
فتولى الأمر برغبة السكان وهو أقرب للمعقول .

وعلى كل فقد كانت نتيجة ثورة يوسف وانهائه إلى روجار أن العرب
هاجموه بمساعدة الحسن الصنهاجى وثورة السكان غضبا من انهائه لروجار
وحاصروه في قصر العروسين حتى استسلم ، فقتلوه ومثلوا بجثته وقطعوا
مذاكيره ، ووضعوها في فمه ، انتقاما لما شاع عنه أنه اعتدى على
حرمات سيده .

وهرب من قابس إثر هذه الواقعة عيسى أخو يوسف الناصر وولد ليوسف
وقصدا صقلية مستنجدين بروجار مدعين أن ما جرى ليوسف إنما كان بسببه
انهائه لطاعته .

فغضب روجار وأرسل أسطولا بحريا لقابس فحاصرها مدة ثم رجع
عنها دون طائل وخلصت قابس للأمير مدافع بن رشيد ولكن روجار لم
يسكت عن هذه المزيمة ، فأعاد الكرة بأسطول ضخم وجهه إلى المهديّة
فاستولى عليها سنة ٥٤٣ هـ ، وأطرد منها الحسن الصنهاجى وقضى نهائياً على
دولة بنى زيرى الصنهاجين .

وهذه الأحداث كلها وقعت في سنة واحدة إذا صدقنا ابن الأثير أن
رشيداً مات سنة ٥٤٢ هـ ، إذ أن أسطول روجار هاجم المهديّة واستولى
عليها سنة ٥٤٢ هـ ، وذلك بعد فشله في محومه على قابس إثر ثورتها
على يوسف .

٥ - مدافع بن رشيد :

قال عنه التجاني^(١) « كان شاعراً حافظاً للسيرة والأخبار عالماً بالأنساب » وقد جدد رسوم الملك وفتح العطاء للشعراء والمنتجين على عادة أسلافه فعمر بلاطه بهم وأصبح قصر العرويين من أعظم النوادي الأدبية التي تضم نخبة شعراء البلاد .

وفي مقدمتهم وزير الأمير مدافع وصديقه وصاحب سره والقائم بأعباء دولته . سلام بن فرحان ، وسنذكر في الباب السادس ترجمة هذا الوزير وتراجم بعض عائلة بني جامع والمتصلين ببلاط مدافع من شعراء مثبتين لهم نماذج من شعرهم .

واستطاع مدافع أن يندارى صاحب صقلية ويسالنه بدليل أن الصقليين لم يناوشوه ولم يحاولوا الاستيلاء على بلده كما استولوا على المهديّة وصفاقس وغيرهما من السواحل في ذلك العهد .

افراض دولة بنى جامع :

وظهرت دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وقويت شوكتها في عهد عبد المؤمن بن علي الذي اكتسح المغرب الأقصى والأوسط ودخلت جيوشه الأندلس فظفرت وأرعبت الإفرنج واتجهت الأنظار إلى هذه القوة الإسلامية الجديدة فاستصرخت إفريقية التي كانت تخوض المعارك الطاحنة ضد الاستعمار الإفريقي الرابض على شواطئها والمختل لعواصمها البحرية العاهل الموحدى ليساعدها على طرد العدو الأجنبي ، واتصل صاحب المهديّة الشريف

(١) الرحلة ص ١٠١ .

الحسن بن علي الصنهاجي بموحد إفريقيا عبد المؤمن واستنجد به لإنقاذ بلاده ، فجهز الجيوش والأساطيل لإفريقية وطرده الإفرنج من سواحلها واحتلت جيوشه عاصمة المهديّة سنة الأحماس (٥٥٥ هـ) .

وسمع عبد المؤمن بهذه الدولة العربية المنتصبة بقابس وهذا الأمير العربي المشرف على حطوطها فأراد أن يستميه ليستعين به على طرد الإفرنج من السواحل « فلاطفه واستدعاه بأشعار خاطبه بها وتلوم عليه فامتنع من جوابه ، فلما وصل إلى حصار المهديّة أنفذ إليه عسكرياً^(١) . بقيادة ولده عبد الله بن عبد المؤمن ؛ وفوجي مدافع بقوة لا طاقة له بمقاومتها فلملم نفسه وأخذ أمواله وعشيرته وفر من قابس سالكا طريق طرابلس ولكن جيوش عبد الله لحقت به قريبا من قابس فقاومها مدافع ساعات ثم انهزم . وهنا يظهر وزيره (سلام بن فرحان) في ميدان التضحية ، فوقف في جماعة يحمي ساقه مليكه حتى يشغل جيوش الموحدين عن الالتحاق به ، وبالرغم من شيخونته فقد تمكن من المقاومة في عزم وثبات وبطولة نادرة ، حتى قتل في المعركة . وكان يقاوم وهو يعرف عدم جدوى المقاومة وهو على يقين أيضا من أن مصيره الموت ، فكان يخوض الصفوف ويردد قوله :

أكدنا أموت وما بلغت مرادى بين الصوارم والقنا الميساد
حيث العيون لوامح وطوامح ما بين أحباب وبين وأعادى^(٢)
وكان ذلك اليوم آخر العهد بدولة بني جامع .

وهرب مدافع بن رشيد إلى طرابلس فاستجار بأعرابها من بني سليم فأجاروه (فلما أتى عليه عامان طريدا شريدا استشار عشيرته في اللحاق

(١) رحلة التجاني ص ١٠٠ .

(٢) رحلة التجاني ص ١٠١ - والحلل السندسية ص ١٥٨ .

بعبد المؤمن فأشاروا عليه بذلك فسار إليه فلقبه بمدينة قابس فرضى عنه وأسكنه هناك فتوفى بها وقد ناهز التسعين^(١) . ويذهب ابن خلدون أنه (لحق بعبد المؤمن في المغرب فأكرمه)^(٢) .

وأمن بعض عائلة بنى جامع في الهرب إلى الشرق وتفرقوا في بلدانه ،
مزم : أبو ساكن عامر بن محمد بن عسكر (أو بن مكي) بن كامل بن جامع
الذي استوطن دمشق وندب ملكهم بقابس بقصيدة مطلعها :
يا جار طرفي غير هاجع والدمع من عيني هاجع^(٣)

ملاحظة : جاء في هذه القصيدة قوله :

ولقد ملكنا (قابسا) بالمشريات القواطع
تسعين عاما لم يكن أحد لنا فيها منازع
والتسعون عاما التي ذكرها لا يؤيدها التاريخ الذي ذكرناه
من أن بنى جامع انتصبوا بقابس من (٤٩٠ - إلى ٥٥٥) أي خمسة
وستين سنة ، إذن فلا مندوحة من تعليل عدد (التسعين) هذا بوجه من
الوجوه التالية :

١ - أن يكون الشاعر ذكر (ستين - أو سبعين) مثلا والغلط
من الناسخ .

٢ - أن يكون مبالغة من مبالغات الشعراء .

٣ - أن يكون الشاعر اعتبر ملكهم يبتدىء منذ صرف العمال
الصنهاجيون طاعتهم للعرب .

(١) الرحلة ص ١٠١ .

(٢) ابن خلدون ج ١ ص ٢١٤ ط الجزائر .

(٣) سئبتها في ترجمته بالباب السادس .

- ٢ -

نكسة

وهكذا خسرت قابس استقلالها بعناد أميرها (مدافع) وألحقت بالولاية العامة للموحدين بعاصمة تونس وأصحت مقاطعة من المقاطعات الصغيرة مثل المهديّة وقفصة وغيرهما يحكمها عمال من قبل الوالي الموحدى بالعاصمة . وعلى إثر ارتحال عبد المؤمن إلى المغرب بدأت الفتن والثورات فى إفريقيا إذ ورد لها مغامران فوضويان من أشد ما عرف فى التاريخ من هذا النوع بطولة وقسوة وحبا للمعامرة والقتل والتخريب ، أحدهما من الغرب وهو المعروف بالميورقى ، والثانى من الشرق وهو المعروف بقراقوش . ونظرا لاتصالهما بقابس وأحداثها وتعرضها فى زمنهما للمنحن والفتن لا ترى بدا من التعرض لحياتهما وحركاتهما باختصار .

١ - الميورقى (١) :

ويلقب باين غانية نسبة إلى جدته (عانية) من نسل أمراء المرابطين ملوك مراكش وجدّ أبناء الميورقى هؤلاء هو محمد بن على بن يحيى المسوى عامل جزيرة ميورقة من قبل على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) صاحب مراكش والأندلس . ولما ظهرت دولة الموحدين بالمغرب عهد محمد بالحكم على ميورقة إلى ولده عبد الله واعتزل هو الحكم بعد عشر سنين قضاها فيه فنافس إسحاق بن محمد أخاه عبد الله وحقد على أبيه فغدر بهما وقتلها سنة ٥٤٦ هـ ، واستقل بالأمر وأظهر المسالمة والطاعة للدولة الموحدين الجديدة حتى هلك سنة ٥٨ هـ ، تاركا اثني عشر ولدا ذكورا هم (محمد ، وعلى ، ويحيى ، وعبد الله ، وسير ، والمنصور ، وجبارة ، وتاشفين ، وطلحة ، وعمر ، ويوسف ، والحسن) .

(١) انظر ابن خلدون ج ٦ ط بولاق من ص ١٩٢ إلى ١٩٧ ومن ٢٤٢ إلى ٢٤٩ .

فتولى بعده ولده (محمد) وأرسل بطاعته إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدى (٥٥٨ - ٥٨٠) ، فأرسل هذا أحد خواصه يختبر طاعة صاحب ميورقة . فقامت قيامة إخوة محمد واعتبروا هذا العمل من صاحب مراكتش إهانة لهم وتدخلًا في شؤونهم فقبضوا على أخيهم محمد وولوا مكانه أخاهم (عليًا) ، وفي هذه الأثناء توفى أبو يعقوب صاحب مراكتش وولى مكانه ولده يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥) فترك على ميورقة لأخيه طلحة ورحل في أسطول مجهر بالجيوش ومعدات الحرب إلى بجاية فاستولى عليها سنة ٥٨١ هـ ، ثم تحول إلى الجزائر فاستولى عليها أيضا وتقدم إلى مليانة وقسنطينة يملك وينخرّب ، فقام إليه المنصور الموحدى بجيوش جرارة واسترد البلدان التي استولى عليها بالمغرب الأوسط وطارده ، ففر إلى الصحراء ثم نازل قفصة فاستولى عليها وحاصر توزر فامتنعت عليه ، ولما سمع بقرب جيوش الموحدين هرب إلى طرابلس ، وهناك سمع أن أخاه محمداً المسجون تمكن من الهرب إلى الموحدين وأن المنصور أرجعه واليا على ميورقة فتمكن منها وأزاح عنها أخاه طلحة فأرسل على أخاه عبد الله من طرابلس في قطع من الأسطول لاسترجاع ميورقة فوجد أن أهالي الجزيرة ثاروا بأخيه محمد وولوا أخاه (تاشفين) ووصل عبد الله فسلم زمام الجزيرة سنة ٥٨٣ هـ .

وفي هذه الأثناء التقى الميورقي بالمغامر الشرقي قراقوش ، فالتحق معه على الموحدين وأرسل لها المنصور جيشا التقى بهما في (عمرة) قرب قفصة فانكسر جيش الموحدين فتحرك إليهما المنصور من تونس والتحم بهما قرب حامة قابس فأوقع بهما هزيمة شنيعة وطاردهما إلى توزر فامتنعا منه بالصحراء ورجع المنصور إلى قابس فاستسلمت له وقبض فيها على أهل وشيعة قراقوش الذي كان مالكا لها - كما سيأتى - بعد أن تحصنوا بقصر العروسن يومين - فأرسلهم المنصور إلى مراكتش وبعد تمهيد البلاد عقد

المنصور للسيد أبي زيد من شيوخ الموحدين على تونس ورجع هو إلى المغرب في سنة ٥٨٤ هـ ، وفي هذه السنة مات على الميورقي من أثر سهم أصابه في واقعة حربية مع نفزاوة وأخذ مكانه أكبر مغامر عرفه التاريخ التونسي أخوه يحيى الميورقي الذي تجهز إلى بسكرة - فاحتلها بعد أن قطع عابرة نخلها وفتح بعض البلدان الأخرى من المغرب الأوسط ثم يم تونس فاحتل الجريد ونفزاوة ووقع تعير بينه وبين صاحبه قراقوش - وكان في ذلك الوقت بطرابلس - فالتحق به هناك وتغلب عليه واحتل طرابلس ومنها رجع إلى قابس فاحتلها سنة ٥٩١ هـ ، وسيأتي تفصيل ذلك .

وحدث شر بينه وبين محمد بن عبد الكريم صاحب المهديّة^(١) نجراً معه هذا على محاصرة قابس فلم يفلح والتحق به الميورقي إلى المهديّة فافتكها منه سنة ٥٩٩ هـ ، وفي نفس السنة احتل تونس وأسر الوالي الموحدى ثم احتل القيروان وصفاقس وأصبحت تونس كلها تقريباً تحت حكمه يخطب فيها للخليفة العباسى ونهض إليه من المغرب أمير المؤمنين الناصر بن المنصور الموحدى (٥٩٥ - ٦١١) فافتك منه تونس والمهديّة وقابس سنة ٦٠١ هـ ، وفر الميورقي إلى طرابلس فأتبعه شيخ الموحدين أبو محمد بن الشيخ أبي حفص في جيش كثيف فلحق به (بتاجرا) قرب (مدنين) فانكسر الميورقي وفر بأهله وحشمه تاركا أمواله وأثقاله غنيمة للموحدين . (روى المؤرخون أنها ثمانية عشر ألف حمل من المال والمتاع والآلة) . وطارده الموحدون في طرابلس وجبالها فرجع إلى المغرب وظهر بسلاجسة ثم بالمغرب الأوسط ثم بطرابلس كره أخرى والتقت به جيوش الشيخ أبي محمد بن أبي حفص بجبل نفوسة - سنة ٦٠٦ هـ ، فانهمز أمامها وحاصره الموحدون

(١) ثار بالمهديّة سنة ٥٩٥ هـ وقتله الميورقي بها سنة ٥٩٩ هـ . - انظر ترجمته كاملة في

رحلة الصحاح ص ٣٥٠ وما بعدها .

في ودان جنوب طرابلس ففر إلى الزاب فنزلته جيوشهم ببسكرة.
سنة ٦٢١ هـ .

وأخيراً مات يحيى الميورقي حريصاً حوالي سنة ٦٣١ في عهد
استيلاء أبي زكرياء الأول^(١) على تونس بعد ما حير الموحدين والحفصيين
نحو نصف قرن قضاها في المغامرات الخطيرة التي لو توجه كاتب لجمعها
لكانت أعظم مما ترويه الروايات الخيالية عن المغامرين ، ومن الغريب أن هذا
الرجل يموت بمكان مجهول من جنوب الجزائر ويعنى على قبره . وفي آخر
لحظة من حياته يأمر بإرسال بناته إلى عدوه الألد أبي زكرياء الأول صاحب
تونس ويجعله وصياً عليهن ويوصيه بعضلهن عن الزواج وهي فكرة عرفت
عن أمثاله من المغامرين وربما يرجع أصلها إلى غيرتهم الجنونية من أن
تصبح نساؤهم زوجات للرجال - وقد أكرمهن أبو زكرياء وأفرد لهن
قصرأ عرف بقصر البنات - وبه سمي باب البنات - بتونس العاصمة
حيث عشن عوانس طول حياتهن .

ويقال إن ابن عم لهن خطب إحداهن بواسطة أبي زكرياء فلما خاطبها
بدلك أجابت « لو كان ابن عمنا ما كفلنا الأجانب » .

قال ابن خلدون « أخبرني والدي أنه أدرك واحدة منهن في سني
العشر والسبعائة تناهز التسعين من السنين وكانت من أشرف النساء نفسا
وأسراهن خلقاً وأزكاهن حالاً » .

وقد اشتهر الميورقي في حروبه بالبطولة الحارقة التي تصل إلى درجة
التهور أحيانا وبسرعة الحركة التي أعجز بها الجيوش اللاحقة وكان يظهر
كل حين بمكان يحتاج البلدان كالعاصفة فيقتل ويخرب ويغنم الأموال

(١) وقال أستاذنا في خلاصة تاريخ تونس ص ١٠٧ ، « ظفر به أبو زكرياء وقتله » .

والذخائر حتى إذا أحس بقرب المطاردين وعرف أنهم أقوى منه ارتحل إلى مكان آخر ، وكان جيشه يتكون من عناصر غريبة من العرب والبربر المغامرين وكان جل اعتماده على مغامرين من فرسان بني سليم المنتشرين في إفريقيا ، وكان له كاتب أندلسي من أبرع ما أنجبت الأندلس من شيوخ الأدب ونوابغ الكتابة شعرا ونثرا هو (عبد البر بن فرسان) وسنورد^١ ترجمته ونماذج من شعره ونثره في الباب السادس .

٢ - قراقوش^(١) :

هذا هو المغامر الثاني الذي ظهر في هذا العهد وحير حكومات إفريقيا من تونس إلى المغرب ، ذكر عن أصله التجاني ما خلاصته^(٢) أن صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر أحس بوحشة من طرف أميره نور الدين زنكي صاحب الشام سنة ٥٦٨ هـ ، فخافه على نفسه وعزم أن يتخذ لنفسه مكانا للهرب أمامه إن هاجمه فتكفل له أخوه توران شاه بفتح بلاد اليمن وتكفل له ابن أخيه تقي الدين بن شاهن شاه بفتح بلاد المغرب وشرع تقي الدين في التأهب لذلك ثم عدل عن عزمه فلم يرض بذلك مماوكة قراقوش الأرمني واتفق مع مغامر آخر من زملائه يسمى إبراهيم بن قراتكين أحد أتباع الملك المعظم أخى صلاح الدين فهربا بطائفة من الجند إلى المغرب وافترقا على أن ينهرد كل منهما بما يفتحه من البلاد ، فأما إبراهيم فقد عزم على اللحاق بالموحدين ولكن شيوخ العرب من بني سليم صدوه عن ذلك وساروا معه إلى قفصة فلحقها بمساعدة بني الرند أصحابها وخطب فيها

(١) قال عبد الواحد المراكشي في المعجب في أخبار العرب ص ١٩ « هو غير بهاء الدين قراقوش صاحب صلاح الدين » المشهور في مصر والذي يضرب بحمكه المثل (حكم قراقوش) .

(٢) الرحلة ص ١٠٣ وما بعدها .

للخليفة العباسي والسلطان صلاح الدين بعده وهناك قبض عليه المنصور الموحدى وقتله سنة ٥٨٣ هـ .

وأما قراقوش فقد قصد بلاد الفزان فاحتل سنترية وزلة وأوجلة وزويلة بنى خطاب وقضى على دولة بنى خطاب هؤلاء وخطب في البلاد لصلاح الدين الأيوبي ، ومن هناك انتقل إلى جبل نفوسة فاحتاه بما اجتمع معه من الأعراب ثم استولى على طرابلس ومنها سار إلى قابس فاحتلها واتفق مع الميورقي على قتال الموحدين . ولما هزمها المنصور الموحدى بالحامة سنة ٥٨٣ هـ ، ووقعت عائلته بقبضة المنصور إثر احتلاله لقابس في هذه السنة أعلن قراقوش الإنابة والطاعة للموحدين سنة ٥٨٦ هـ واجتمع بالسيد أبي ريد بن أي حفص والى تونس من قبل المنصور وأقام عنده زمنا ثم عاوده الحين إلى المغامرة ففر من تونس ورجع إلى قابس في طائفة من أصحابه ودخل المدينة محادعة وحيلة واستولى عليها وقتل جماعة من أعيانها ثم استدعى سبعين فارسا من أعيان عرب دباب سكان الجهة فجاءوه غافلين فقتلهم ورمى رؤوسهم في بئر بقصر العروسين . قال التجاني^(١) : « ومن جملة من قتل منهم محمود بن طوق بن بقية وإليه تنسب الحميد ، وحميد بن جارية وهو أبو الجوارى في سبعين من كبارهم وذلك بداخل قصر العروسين في موضع منه معاوم إلى الآن .

وأخبرني أبو صبيرة مسعد بن الأزرق الضريسى أن الدعى بن أبي عمارة لما تغلب على قابس سنة ٦٨٢ هـ ، أمر بحفر ذلك الموضع لبناء أحب أحداثه هناك ... فوافق الحفر موضع دفنهم فرفعوا منه بين أيدينا شيئا وستين رأسا فأمر الدعى بنقلها إلى غير ذلك الموضع فدفنت به » .

(١) الرحلة ص ١٠٤ .

ثم انتقل قراقوش إلى طرابلس فاحتلها - وقد كانت تحت حكمه وانتقضت عليه - وهماك لحق به الميوقى كما سبقت الإشارة إلى ذلك - فانهزم قراقوش ، وكانت هذه الواقعة بموضع يعرف بمحسن ، جاء ذكره فى شعر عبد البر بن فرسان كاتب الميوقى وهو قوله :

ألا لاسقى الرحمان (محسن) قطرة ولا زال مغبر الجوانب محسن
وخيب (قطيسا) من الغيث كله ولا ابتل فيه للركائب فرسن (١)

واستقر قراقوش بعد ذلك بודان - جنوب طرابلس - حتى وصله الميوقى فى جمع من فرسان دباب من بنى سليم الذين كانوا يتحرقون إلى الانتقام منه تاراً لآبائهم الذين قتلهم بقابس ، فحاصروه حتى فنى طعامه فاستسلم لهم وشرط أن يقتلوه قبل ولده فأجابوه لذلك ، وصلبه الميوقى بظاهر ودان وذلك سنة ٦٠٩ هـ (٢) .

قال التتخا : « فلما خرج هو وولده إليهم قال له الولد : يا أبت إلى أين يروحوا ؟ بنا ؟ فقال : إلى حيث رحنا بأبائهم » (٣) .

قابس فى هذه الفترة :

كان هذا العهد أتعس فترة عاشتها قابس من حياتها وتعرضت فيها إلى أحداث وحن هلك أتناءها كل شىء وعاش أهلها فى رعب مستمر ونهب للأموال والأنفس والثمرات ، وتوالت عليها من الولاة وجوه مختلفة [السياسة والمشارب متباينة الأغراض والأهداف ، فلم تكند تستقر بها أقدام الموحدىن الذىن دخلوها على أثر بنى جامع سنة ٥٥٥ هـ ، حتى فاجأها

(١) عن رحلة التجانى ص ٢٤٤ .

(٢) الرحلة ص ١١٠ .

(٣) الرحلة ص ١١٠ .

قراقوش الأرميني في العقد الثامن من القرن السادس أي بعد نحو عشرين سنة من استقرار الموحدين بها ففرض عليها الجبات الباهضة حتى يتمكن من القيام بحروبه مع الموحدين .

وفي سنة ٥٨٣ ، دخلها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن . وقبض على شيعة قراقوش بعد حصارها في قصر العروسيين وترك بها عاملاً من قبله ، ولكن شر قراقوش لا يزال يتبعها كأنما ارتطت به حظوظها ، ففي أواخر هذا العقد دخلها قراقوش مرة ثانية إثر فراره من تونس .

يقول التجاني « رجع قراقوش إلى قابس وخذاع أهلها حتى دخلها ، فقتل جماعة منهم وأظهر الرجوع على الإنابة ، واستدعى أشياخ العرب الدبايين فقتل أعيانهم بقابس . . الخ»^(١) .

والمفهوم من هذا أن قراقوش دخلها بعنوان كونه تابعاً ومطيعاً للموحدين وأنه أظهر العصيان بعد تمكنه من الدخول إليها وبفضل كتابته للعصيان تمكن من خداع أهل قابس حتى دخل البلد .

وفي قابس اليوم يوجد مكان يسمى (ظهرة قراوش) والظهرة في لغة الجنوب الربوة أو المكان المرتفع ، وهذا المكان موجود شرقي سوق جارة . وبه يوجد ضريح سيدي أبي إسحاق ، ويزعم أهل قابس أن سبب تسميتها بظهرة قراوش هو أن صبيانهم كانوا في القديم يتعلمون القرآن بسيدي أبي لبابة وكلما خرجوا من الكتاب ورآهم الناس مجتمعون في تلك الربوة يقولون (قراو وجاو) أي قرأوا وجاءوا ، فسميت ظهرة قراوش ، وهو تعليل بعيد لسبب التسمية .

والظاهر عندي أن المكان مضاف إلى اسم (قراقوش) صاحبنا ، وأنه

كان نزل هناك عند دخوله لقابس وقبل احتلاله لقصر العرويين ، ففسبت الربوة إليه وسميت (ظهرة قراقوش) وحررها العامة فأصبحت (ظهرة قراقوش) .

ولما اختلف قراقوش مع يحيى الميورقي ، أرسل هذا إلى عرب بنى سليم المساندين لقراقوش يعبرهم بالانتفاء إلى رجل أرمني لاخلاق له ... ويناشدهم صلة الرحم ويدعوهم إلى التخلي عن مناصرة قراقوش والمحاق به هو قصيدا من نظم كاتبه ابن فرسان :

يا أيها الراكب السارى لطيته	على عذافرة تشقى بها الأكم ^(١) .
بلغ سليما على بعد المزار لها	بيني وبينكم الرحمان والرحم.
يا قومنا لا تشبوا الحرب إن حدثت	واستمسكوا بعرى الإيمان واعتصموا
يقودهم أرمنى لاخلاق له	كأنه فيهم من جهلهم علم
الله يعلم أنى ما دعوتكم	دعاء دى ترة يوما فينتقم
ولا بلأت لأمر يستعان به	من الأمور وهذا الحق قد علموا
لكن لأمر رسول الله عن رحم	ينمى إليه وترعى تلکم الذم.
فإن أتيتم فحبل الود متصل	وإن أبيتم فعند السيف نحتكم

ولست أدري ما هي الرحم التي ياشد بها الميورقي بى سليم وهو بربرى من قبيلة مسوفة وهم عرب من العدنانية ، اللهم إلا أن تكون الصلة القديمة التي بين العرب والبربر بصفقتهم من أرومة واحدة حسبما ذهب إليه ابن خلدون أو أن الميورقي كان يدعى لهم أنه عربى منهم استجلانا لحميتهم ، وعلل التجانى هذا بقوله . « لأنه واياهم من سليم »^(٢) وهو غلط ، ثم التحق الميورقي بقراقوش وهزمه بطرابلس كما سبق ذكره .

(١) جمع عداور وعلوفر الشديد من الإبل . وكلمة (تشقى بها الأكم) رواية التجانى وفق الحلل السدسية ص ١٦٦ (يشى بها الأكم) .

(٢) الرحلة ص ١١٥

ووصلت الأخبار إلى تونس ففر عامل قراقوس من قابس والتحقت
بمحكم الموحدين ، وأرسل لها الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص الوالى الموحدى
على تونس عاملا من قبله يسمى (بن تافراجين) .

ولم يكذ يستقر هذا العامل بقابس حتى داهمه جيش الميورقي القادم
من طرابلس - وقد كان حاصرها إثر انهزام قراقوش - فاحتلها بعد مقاومة
شديدة بدأها عامل قراقوش . واستراح الجيش بقربة رريق على ١٨ كم
جنوب قابس ، ووجد البلد مستعدا لمقاومته فأرسل الميورقي لأهل قابس
إنذاراً من تحرير كاتبه عبد البر ابن فرسان جاء فيه (١) :

« ولما عزمنا على قرع بابكم ، والحلول بيجنا بكم ، رأينا تقديم الإنذار
إليكم ، وإيراد النصيحة عليكم ، والكف عنكم ثلاثة أيام لا تمد لكم فيها
يد ، ولا يتقدم إليكم بالإضرار أحد ، لنعلم ما عندكم ، وتبين غيكم
أو رشدكم ، فإن آثرتم الطاعة وتبعتم الجماعة ، مددنا لكم أكناف
العدل ، وأتبعنا فيكم كريم القول وصحيح الفعل ، وإن أبيتكم إلا خلافا
فقد أبلينا النفس عدرا ، وأتينا بالتبرئ من أمركم برا ، ولا تغتروا
بأهل طرابلس فإوكان لهم سواد يقطع ، أو مياه تصد وتمنع ، بلجروا إلى
الطاعة ، وحملوا أنفسهم منها فوق الاستطاعة » .

ولكن أهل قابس رفضوا إنذاره وتهديده ، وتخويفه ووعيده وعزموا
على مقاومته مهما كانت النتيجة ، فلما انفضى الأهل الذى حدده لهم تحرك
إليها يجموعه وشرع فى قطع أشجار غابتها وتخريب وإحراق ما بها من
المساكن والمنازل حتى لم يدع فى الغابة إلا نخلة واحدة لتكون عبرة لمن
اعتبر ، وجد فى حصارها وقتالها ، ونصب حولها المجانيق وآلات

(١) عن رحلة التجاني ص ١٠٥ .

التخريب حتى فاتحه السكان في التسليم وشرطوا «مسألة واليهم ابن تافراجين وأن يتوجه بأهله وماله في البحر» (١) .

فأجابه الميورقي لذلك وخرج ابن تافراجين من قابس بأهله ودخلها الميورقي وفرص على أهلها مائة ألف دينار غرامة ، ولما عجزوا عن دفعها أنقصها إلى ستين ألفا فدفعوها وهم كارهون . وكان هذا الاحتلال حسبما جاء في الرسالة التي كتبها ابن فرسان إلى أهالي طرابلس على لسان الميورقي يبشرهم بفتح قابس أواخر رمضان سنة ٥٩١ هـ ، والرسالة المشار إليها من أبداع ما كتب ابن فرسان ، سلك فيها طريقة السجع الرائجة في ذلك العصر ورصعها بأنواع من البديع والاستعارات ، ووصف فيها الواقعة وصفا دقيقا يناسب أن نقل منها النماذج التي نقلها التجاني في رحلته (٢) ، وذكر أنه [نقلها بدوره من حط شيخه فقيه طرابلس وعالمها أبي فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبيد (٣) .

من رسالة الميورقي لأهل طرابلس

تحرير عبد البر بن فرسان

« الحمد لله الذي أعاض من النصب راحة ، وأضاء بإشراق الدعوة الدعوة العباسية (٤) حمة من هذه المدينة كانت مظلمة وساحة ، بعد الحاجة شيطانها ، ومكابدة قطانها ، وتضييق أعطانها بمجانيق مسامنة لمبانها ، على توانها ، لا تبلى أهلها ريقا ، ولا نجد لهم للمدافعة طريقا ، فريقا ترهب على البعد وتقتل فريقا ، وكنا قبل وضع تاجها ، وخلع رتاجها ، وكسر غايتها ، والتوغل في غابتها ، خاطبنا جمهورهم ،

(١) . رحلة التحاف ص ١٠٦ .

(٢) . الرحلة ص ١٠٦ .

(٣) انظره رحلة التجاني ص ٢٥٤ .

(٤) كان الميورقي يتظاهر بانتهاه للخلافة العباسية ببعداد .

واستزلنا معمورهم للطاعة ومغمورهم رغبة في الإبقاء عليهم ، وإنذاراً لم يكن بد من تقديمه إليهم ، فرفعوا عواءهم ، وركبوا أهواءهم واستنهضوا غويهم فنصبوا للشقاوة لواءهم ، وكان فيها رجال الدرق ، ورماة الخدق ، غناء أسندوا إليهم طهورهم فانقصمت ، وتمسكوا بعراهم فانقصمت ، وغوغاء استنفروها ركدوا بعد الهبوب ، وعرفوا سهم تلك الجنوب .

ومنها في وصف الحصار وتخريب الغابة واستسلام السكان .

« فأخذهم هول الحصار ، وأحاطت الخيام بالأسوار ، حتى كانت المدينة معها كالزند في ضمن السوار ، وكالعتق تحت محيط الأزرار ، وكالمركز للفلك الدوار ، وكما لاحت في هالتها أجسام الأقمار ، لا ينبسون إلا على أذن واعية ، ولا يتسللون إلا على عين مراعية ، فضجوا من ثلاث ، ساقتهم إلى التشجب^(١) سوق احتثاث بعد القسوة ، وانصداع عصا الأسوة ، والعجز عن حماية الثغر والأولاد والنسوة ، ولما سقط في أيديهم ، ولم يجلدوا راحا يعصمهم ممن يؤذيهم ، سلكوا للطاعة طريقه ، وتظاهروا بها مجازاً أو حقيقة ، فقبلت على حكم التسليم والتفويض ، والقيام بعبء وظيفة المال والنهوض ، وانتقلوا من الحرم إلى الحل ، ومن الحرور إلى الظل ، وقصر عن العدو حد السيف المطل ، وتفقدوا سوادهم فوجدوه طامس الآثار ، مجتث الأشجار ، مغور المياه الغزار ، لا منورا أبتت الأيدي منه ولا منثورا ، يقول ناظره متعجبا ومعتبرا ، وكان الله على كل شيء مقتلرا . »

ومنها في شروط الصلح وتنفيذها :

« وإذ تقرر على الشرط حكم الاصطلاح ، وبجرد المسترزق منهم

(١) الملك والموت أو الحزن .

والمبتطوع من ملابس السلاح ، وحمل غويهم^(١) والمؤمن في نفسه وأهله مع من اختار صحبته من جنده الخاسر على ذات الدسر والألواح ، فرضنا عليهم مائة ألف دينار عددا ، لم نفسح لهم في اقتضاها أمدا ، فعجزوا واستكانوا ، وتضاعلوا بذلك كأنهم غير الذين كانوا ، فوسعهم التفات ديني ، ونظر على الرحمة ميني ، خفض المتون ، فأضحت المائة وهي ستون ، وهم في شأنها مفيضون ، وعمما عداها معرضون ، فخطبناكم بهذا الفتح^(٢) الذي أشرقت من جانبيه شمس النجح ، لتأخذوا من المسرة بحظ من تبين لعيه تبلج الصبح ، فقد تقرر لدينا مما تعتقدون من الاعتماد علينا والاقتصار ، ومزيد النظر كل حين في أحكام الطاعة والاستبصار ، ما عضد خبره بالاحتبار ، ولم يرتفع منه إلا ما وقع بالموافقة وجاء على الاختيار .

ويقول ابن فرسان في هذه الواقعة نفسها يمدح مخلومه الميورقي^(٣) :

أجل إنه النصر المهناً والفتح	طواه الدجى وقتاً وبينه الصبح
عصوا ثم جاءوا طائعين إمامهم	عماية غي كان آخرها النجح
هدوا للهدى بعد اقتحام مضلة	بأوجههم من منح ^(٤) ضرائها لفتح
عموا عن سبيل الرشد ثم أبصروا	وقد كان نشوان الضلالة لا يصحو
وفاعوا على حين اقتراح ^(٥) سمائمهم	إلى غرة قد كان مهم بها قرح
أجالوا قداح الرأي أثناء عزمهم	فحين أنابوا فاز بالأمل القرح
وما أدعنوا للشرط حتى أراهم	ردى فهم في كل حرب لهم برح

(١) المقصود ابن تاراجين والى قابس للموحدين .

(٢) الخطاب موجه لأهل طرابلس .

(٣) عن رحلة التجاني ص ١٠٩ والخلل السندسية ص ١٦٢ .

(٤) في الخلل (من قح) . ولعل الصواب (من فيح) .

(٥) في الخلل (وعس حين اقتراء) .

فأوريت منهم زناد استكانة
 جتوا لقبول العمو في مجلس الرضا
 فأوسعهم عفواً وخففت عنهم
 وهبت الذي لوطن غيرك أنه
 وما المال إلا للنفوس وقاية
 تقود الجيوش الدهر^(٤) برا وبلجة
 تنازل من عاداك في عقر داره
 وتضرب بالحق الصحيح كلى العدى
 وتطلع فجر العدل في مشرق الهدى
 وتسرد من آى العلى سورا لها
 تقوم لها في المكرمات^(٥) دلائل
 فلا زالت فتاح البلاد ممهدا
 ودان لك الدانى وقص من الذى
 من الشر حتى حك في سمها^(١) القلح
 على بذل مال بان عنهم به الشح
 من المال ما لولاه أدهم القلح^(٢)
 يعوزه لم ينجهم عندها الصلح
 خسارته في جنب^(٣) ما يتقى ربح
 ففي سبب واحد وفي بلجة سبب
 فتنزله لو كان منزله الصرح
 إذا كان حظ البطل من غيرك الجرح
 إذا امتد من ليل اعتداء العدى جنح
 براهين لا ينجيها أبدا شرح
 كما قلم عن مستودع الروضة النفع
 جوانبها ما التاح من بارق لمح
 قصا^(٦) طاغياً ريش وح^(٧) له ذبح

واستكانت قابس للميورقى بعد هذه النكبة واتجه السكان لتجديد غراسه
 غابتهم التي خربت وغورت مياهها وأفسدت مزروعاتها ، إلا أن الأحداث

-
- (١) في اللل (في سها) .
 (٢) في اللل (ادهم العتج)
 (٣) في اللل (في حب) .
 (٤) في اللل (الدهم)
 (٥) في اللل (بالكرمات) .
 (٦) في اللل (بنى) وقصا بمعنى بعد .
 (٧) في اللل (وصح) .

لم تمهلهم ، فقد وقعت خصومة بين الميورقي وبين ابن عبد الكريم صاحب المهديّة فهاجم الأخير قابس طامعا في طرد الميورقي منها ، « فلما أشرف عليها ، هاله أمرها وعلم أن لا طاقة له بها فارتحل عنها إلى قفصة » (١) . وكان ذلك في سنة ٥٩٧ - فلما استقر ابن عبد الكريم بقفصة تحرك إليه الميورقي من قابس وهزمه في قصور (لالة) قرب قفصة ثم التحق به إلى المهديّة وحاصره فيها واحتل البلد وقبض عليه وقتله في نفس هذه السنة .

وقد اضطرت هذه الأحداث الخليفة الموحدى محمد الناصر بن المنصور إلى أن يقصد تونس في جيوش كثيفة لحسم الفتن والثورات ، فوصل إلى قابس سنة ٦٠١ وحاصر الميورقي حتى خرج منها واحتلها الموحدون وتبعته الجيوش الميورقي إلى تاجرا قرب مدين فكسرتة كسرة شنيعة وفر الميورقي هاربا بنفسه إلى جهة طرابلس .

واستراحت قابس من أهوال الفتن والفواجع واعتنى عمالها من الموحدين بحالة الاقتصادية والزراعية ، فاهتم الناس بذلك تبعا لسياسة ولائهم ، فنجد غابة (كتانة) قد غرست زيتونا في عهد ولاية أبي زكرياء الأول الحفصي على قابس سنة ٦٢٤ (٢) .

وانتهى عهد النكسة بقابس سنة ٦٢٥ - عندما انتصب أبو زكرياء يحيى ساطانا على تونس واسترجعت قابس استقلالها الكامل تارة والمنقصة أحيانا تحت حكم عائلة بنى مكى اللواتين .

(١) رحلة التجاني ص ٣٥٣ .

(٢) الرحلة ص ١١٩ .

نومكى (٦٢٥ - ٧٩٦)^(١)

أصلهم :

من قبيلة لواتة البربرية وجدهم مكي بن فرج (أو فرح) بن زياة الله بن أبي الحسن (أو الحسين) بن محمد بن زياة الله بن الحسين اللواتي .
وكانت هذه العائلة من أعيان عائلات قابس ذات الشهرة والثروة الواسعة ، ولا نعرف من الذى نزل قابس جدودها أولا .
اتصلت هذه العائلة بأبي زكرياء الأول الحفصى زمن ولايته على قابس سنة ٦٢٣ هـ ، من قبل أخيه أبي عبد الله الملقب بـ(عبو) بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الوالى الموحدى على تونس .
ومن المعروف أن الشيخ أبا محمد عبد الواحد الحفصى جد الحفصيين قد ولاه الناصر الموحدى على تونس سنة ٦٠٣ هـ ، حيث بقى إلى أن توفى سنة ٦١٨ هـ ، فبايع الناس ابنه عبد الرحمن ولكن الخليفة الموحدى المستنصر بن الناصر (٦١١ - ٦٢٠) عزله وأولى مكانه عمه إدريس فلم تطل مدته وتولى مكانه (عبد الله عبو) الابن الثانى للشيخ أبي محمد سنة ٦٢٠ هـ ، فعقد لأخيه أبي زكرياء يحيى على قابس ، وشاء القدر أن تحدث خصومة بين الأخوين فجهز كل منهما الجيوش لقتال أخيه وظهرت فى هذه المحنة عائلة بنى مكي التى تقدمت لإعانة أبي زكريا وأمدته بالمال والرجال والمعدات وصاحبه فى حربه كبيرها عثمان بن مكي ، واستنكر جيش عبد الله هذه

(١) جمعنا هذا الفصل عن رحلة التجانى ص ١٧٨ ، وابن خلدون ، الفصل الخامس بينى مكي آخر الجزء السادس من طبعة بولاق ، والتاريخ الباشى من ص ١٧٢ - ١٨٢ (مخطوط) ، ودائرة المعارف الإسلامية مادة قابس .

الحرب ففر أغلبه إلى أبي زكرياء عند اللقاء قرب القيروان وتمكن بذلك من احتلال تونس والقبض على أخيه ، وكانت دولة الموحدين في المغرب تلفظ أنفاسها فأعلن أبو زكرياء الاستقلال عنها سنة ٦٢٦ هـ ، ونازعها السلطة واستولى على بلاد الجزائر وجاءته بيعة سجلماسة وسبتة وطنجة ومكناس وخطب له بنو مرين في المغرب^(١) وبذلك حقق وحدة المغرب العربي التي انثلت أواخر عهد الموحدين .

ووى أبو زكرياء لعائلة بني مكى فأفرد كبيرهم بالأمر في قابس لإقرارا بالجميل .

١ - عثمان بن أبي القاسم بن مكى :

تفرد بالأمر في قابس إثر استقرار أبي زكرياء الأول بتونس سنة ٦٢٥ هـ ، فضبط أمورها وقضى على العائلات المنافسة له وأصبح الحاكم المتصرف في حظوظها يدين بالطاعة للحفصيين طيلة عهد أبي زكرياء وابنه المستنصر المتولى ٦٤٧ هـ ، وحفيده الواثق المتولى ٦٧٥ هـ ، ثم لانعرف عنه شيئا أيام الفتنة بين الواثق وعمه أبي إسحاق إبراهيم الأول المتولى سنة ٦٧٨ هـ ، والأرجح أن بني مكى كانوا من أنصار الواثق بدليل قيامهم مع الدعوى ابن مرزوق^(٢) عند ظهوره وادعائه بأنه ابن الواثق ، ونجهل كذلك سنة وفاة

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١٠٧ .

(٢) هذا الرجل كان يحترف الخياطة ، وكان له طموح وآمال ، فالتقى بمولى من موالى الواثق الحفصي كان فر من تونس إلى جهات طرابلس - وكان في الذي شبه من أحد أولاد الواثق - فاغتم المولى الفرصة وادعى أنه ولد الواثق وحرص العرب على مساعدته لاسترجاع ملك أبيه المنتصب فتحزوا معه لذلك ، فاستولى على جهات طرابلس ثم زحف على قابس وامتلكها ومنها تحرك إلى ققصة والجريد والقيروان وتونس .

عثمان هذا ، ونعتقد أنه مات قبل وصول الدعي إلى قابس سنة ٦٨١ هـ ، حيث نجد صاحبها في تلك السنة .

٢ - عبد الملك بن عثمان بن مكي (٦٨١ - ٧٠٠) :

يقوم بمساعدة الدعي ابن أنى عمارة عماله ورحاله ويصحبه في حروبه حتى دخل معه عاصمة تونس ، وولاه الدعي خطة الجباية فاستبد بأمور الدولة يولى ويعزل .

وضجر أهل تونس من سوء سيرة الدعي ففر أعداؤه والتحقوا بأبي حصص عمر بن أبي زكرياء الذى كان مرابطاً إذ ذاك بقلعة سنان وبايعوه وأعانوه على حرب الدعي وانضم لهم كثير من الأعراب وزحفوا إلى تونس فتلقاهم جيش الدعي فهزموه ودخل أبو حصص تونس سنة ٦٨٣ هـ وقبض على الدعي وسلمه إلى الشيخ أبي محمد عبد الله بن يغمور فعذبه وقتله بسيف كان أهدها له الدعي زمن ولايته . وفر عبد الملك بن مكي إلى قابس وتحصن بها ودافع الحفصيين متظاهراً بالطاعة الاسمية حتى تمكن من تثبيت مركزه ثم جاهر بالعصيان والتمرد والاستقلال بقابس سنة ٦٩٣ هـ .

و في سنة ٦٩٧ مات ابنه أحمد بن عبد الملك الذى كان عمده ويده اليمنى فلأزم عبد الملك الحزن إلى أن توفى سنة ٧٠٠ هـ .

ويظهر أن حادثة حصار قابس من طرف أبي يحيى زكرياء اللحياني التي ذكرها التجاني في سياق حديثه عن دار عبد الملك هذا كانت بسبب تمرد عبد الملك واستقلاله عن الدولة بقابس ، ولا ندرى السنة التي وقع فيها هذا الحصار بالضبط إلا أن الظاهر أنه وقع في أيام مكي حفيد عبد الملك قبل سنة ٧٠٦ التي بدأ فيها التجاني تقييد رحلته - وعلى كل فقد كانت نتيجة الحصار استسلام مكي للحياني ،

٣ - مكي بن أحمد بن عبد الملك (٧٠٠ - ٧١٨):

تولى بعد وفاة جده عند الملك سنة ٧٠٠ هـ ، وكان طفلاً صغيراً فكفله ابن عمه يوسف بن حسن وصرف الكافل أمور قابس وسياستها نيابة عنه ، حتى هلك يوسف هذا وانتقلت الكفالة إلى أحمد بن ليدان من عائلات قابس ذات النفوذ والتي لها مصاهرة مع بني مكي .

وفي عهد هذا الكافل وصلت قابس جيوش السلطان الحفصي محمد أبي عصيدة (٦٩٤ - ٧٠٩) بقيادة شيخ الدولة الحفصية ومقدمها أبي يحيى زكرياء بن اللحياني^(١) ، وكان من أمره في قابس ما ذكرناه سالفاً ، وحين عاد اللحياني من الحج وأعلن الثورة على سلطان الحضرة وخرج من قابس قاصداً تونس يجموعه اصطحاب معه أصدقائه بني مكي هؤلاء فأسكنهم بالحضرة مع بقاء قابس تحت نفوذهم ، وربما كان هذا النقل خوفاً من انتقاضهم .

وفي سنة ٧١٧ هـ ، حين رجع بن اللحياني إلى قابس تاركا السلطنة لابنه محمد المعروف بأبي ضربة أرجع معه بني مكي إلى قابس . قال ابن خلدون : « والثالث أمرهم (أي بني مكي) بمهلك يوسف (وهو يوسف بن

(١) مغلوم عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة ، وقد نزل ابن اللحياني عند مسيره إلى الحج بدار بني مكي هؤلاء (انظر رحلة التجاني ص ١٧٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٠ ط بولاق) ، وبعد رجوعه من الحج أعلن الثورة بجهة طرابلس والتف حوله زعماء الأعراب وارتحل إلى قابس سنة ٧١١ ، ومما انتقل إلى العاصمة حيث مكث سلطاناً إلى سنة ٧١٧ ، وعندما سمع بتحرك ابن عمه صاحب الثغور الغربية إليه باع كل ما في القصور السلطانية حتى خزانة الكتب وترك الحكم لانه أبي ضربة وتحويل إلى قابس ومكث هناك يراقب الأحداث ، وعند استشهاده سنة ٧١٨ هـ ، ارتحل إلى الإسكندرية فات ما سنة ٧٢٧ هـ ، عن ستة وسبعين سنة ، وكان شاعراً عالماً محدثاً ومؤلفاً .

حسن كافل مكى) فنقلهم السلطان ابن اللحياني إلى الحضرة وأقاموا بها أياماً (٢) ثم ردهم إلى بلدهم أيام تجافيه عن تونس وخروجه إلى ناحية قابس .

وفي أثناء هذه الفتن مات مكى بن أحمد وترك صبيين صغيرين هما عبد الملك وأحمد في كفالة ابن ليدان المذكور الذي تصرف في أمور قابس نيابة عنهما حتى شبا ، فاستقلا بالأمر تحت الطاعة الاسمية لسلطان بني حفص .

٤ — عهد الملك وأحمد ابنا مكى :

تولى عبد الملك بعد أبيه كما ذكرنا وأقره السلطان الحفصي الجديد أبو بكر الثاني (٧١٨ — ٧٤٧ هـ) وأصدر أمره بتولية عبد الملك وتسمية أخيه أحمد رديفا له ، فكان شريكه في حكم قابس ، وكان أذكى وأقدر على تصريف شؤون الولاية من أخيه فكان الوالى اسميا عبد الملك والمتصرف الحقيقي هو أحمد الذي قال عنه ابن خلدون : « كان له حظ من المال والأدوات ونفس مشغوفة بالرياسة والشرف ، وكان يقرض الشعر فيجيد ، ويرسل فيحسن ، وكان خط كتابته أنيقا ينحو به منحى الخط الشرقي شأن أهل الجريد فيمتع ما شاء » (١) .

ولم يكادا يستقلان بالأمر ويخرجان من حجر الكفالة حتى ظهر نبوغ أحمد هذا في السياسة وتاقت نفسه للاستقلال عن صاحب الحضرة نهائيا . ولو أن قابس كانت مستقلة واقعياً ليس للسلطان الحفصي غير ذكر اسمه في الخطب الجمعية .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٥٢ ط بولاق .

في سنة ٧٣٣ ، رجع من الشرق عبد الواحد بن أبي يحيى اللحياني بعد موت أبيه بالإسكندرية مطالبا بالسلطنة فرفع الأخوان ابا مكى راية العصيان معه و طاهرا على طلبه معتمنين فرصة الفس والثورات التي قامت بنواحي قفصة والجريد وانشغال السلطان بتسكين الثغور الغربية فدخل ابن اللحياني تونس مع بني مكى ولكنه لم يلبث إلا نحو نصف شهر وغادرها إلى قابس لرجوع السلطان من الغرب عند سماعه بما أحدث عبد الواحد وابنا مكى بعده ، ولما وصلت الأخبار لابني مكى باحتلال السلطان أبي بكر لقفصة وعزمه على منازلة قابس خرجا منها هارين . فأما عبد الملك فقد احتفى بإحدى القبائل العربية ، وأما احمد فقد قصد أبا الحسن المريني (٧٣٢ - ٧٤٩) الذي ظهرت شوكته بالمغرب الأقصى وعانت جموعه في نواحي المغرب الأوسط . فأرسل أبو الحسن إلى السلطان أبي بكر يتشفع في ابني مكى ويرجو إرجاعهما إلى ولايتهما ، فقبل أبو بكر الشفاعة وأرجع لهما ولاية قابس على ما كانا عليه . وجمعت إحدى المناسبات بين أحمد بن مكى وبين أبي العباس أحمد بن أبي بكر الحفصي ولي عهد السلطنة والوالى لأبيه على جهات قفصة والجريد ، فأعجب ولي العهد بابن مكى وتمكنت بينهما علاقة ودية وصداقة متينة جعلت ولي العهد يتوسط لدى أبيه لتولية أحمد بن مكى جزيرة جربة فلبى طلبه وولاه الجزيرة بعد عزل مخلوف بن الكهاد الذي كان افتكها من النصارى سنة ٧٣٨ بأمر من السلطان أبي بكر نفسه . وانتقل أحمد إلى جربة واستقل عبد الملك بقابس . ولما توفي أبو بكر الحفصي سنة ٧٤٧ هـ ، ظهر للحاجب (ابن تافراجين) (١)

(١) من شيوخ الموحدين الدهاة ، تولى مشيخة الموحدين سنة ٧٤٢ هـ ، ثم الحجابة للسلطان أبي بكر المتوفى سنة ٧٤٧ هـ ، وعند اندلاع الفتنة بين أبي حفص وأبيه أبي العباس فر إلى المغرب ملتجئاً بأبي الحسن المريني وحرصه على غزو تونس فاحتلها سنة ٧٤٨ هـ ، ولما انكسر أبو الحسن أمام الحفصيين قرب القيروان سنة ٥٧٠ هـ ، فر ابن تافراجين إلى

أن يأخذ البيعة لأبي حفص عمر بن أبي بكر دون أخيه أبي العباس فتمت بيعته واستبد ابن تافراجين بالأمر ، فغضب أبو العباس ولى العهد وتحرك إلى تونس في حشود كبيرة واستنجد بأحمد بن مكى صديقه فقدم عليه وولاه رديها لحاجبه ، ولكن قدوم أبي الحسن المريني من المغرب - معتمدا فرصة الفتن القائمة بين بني حفص - جعل حدا لهذه الخصومات واستولى أبو الحسن على تونس وقتل صاحبها أبا حفص عمر سنة ٧٤٨ .

وهنا نجد اني مكى في مقدمة أصحاب أبي الحسن المريني ، اعترافا بجميله حيث تداخل سابغا في إرجاعهما إلى ولاية قابس على أنهما فوجئا بتولية عبد الواحد اللحياني الملتجئ إلى المرينيين على قابس وطرابلس وجربة وصفاقس من طرف أبي الحسن المريني وأمرنا بطاعته والالتزام بأمره فسقط في أيديهما وغضبا لهذه المفاجأة من طرف أبي الحسن فأضمر العصبان ، إلا أن الأحداث لم تمهلها لإظهار هذا العصبان .

فلم يكده يصل عبد الواحد الوالي الجديد إلى جربة حتى مات فيها بالوباء سنة ٧٤٩ هـ ، ووصلت الأخبار من المغرب بوثوب أبي عنان بن أبي الحسن المريني على ملك أبيه ، ويتحرك أبو العباس الفضل الحفصي صاحب بونة (عنابة) إلى تونس فاغتنم ابنا مكى الفرصة وامتدت يد أحمد بن مكى إلى تركة عبد الواحد فرجع إلى جربة مقر ولايته القديم . واكتفى عبد الملك بولاية قابس وبايعا الفضل الحفصي صاحب بونة ،

وحاول أبو الحسن المريني أن يقاوم الحفصيين ولكنه انهزم أمامهم هزيمة

= المشرق ثم رجع وأعلن الثورة على الفضل الحفصي وتمكن من قتله ونصب أخيه أبي إسحاق إبراهيم سنة ٤٥١ هـ ، وعند وصول أبي عنان المريني إلى تونس سنة ٤٥٨ هـ ، هرب ابن تافراجين إلى المهديّة ثم رجع إلى تونس وقاوم الثورات والفتن واستتب له الأمر إلى أن توفي بتونس سنة ٧٦٦ .

شنيعة . وكان السبب في ذلك انحراف زعماء البلاد عنه كبنى مكى للسبب الذى ذكرناه، وكابن تافراجين لأنه لم يجد عنده ما كان يؤمله ، وانتقال زعماء الأعراب ضده (الذين كان لهم في الدولة نفوذ عظيم ومكانة كبرى ، فإنه ضرب على أيديهم بعضا من حديد ، وعبث بمقوقهم ، فأنتقت نفوسهم هذه المعاملة وأصروا على الثورة) (١) ،

ودخل أبو العباس الفضل تونس سنة ٧٥٠ إثر فرار المريثي منها ، فأقر بنى مكى في ولايتهم لأنهم أول من بادر بمبايعته ومساعدته ، لكن الفصل لم يهنأ بملكه الجديد فقد رجع الحاجب ابن تافراجين من الحج سنة ٧٥١ وطلب من الفضل إرجاعه لخطة الحجابة فامتنع ، فدبر ابن تافراجين مؤامرة في الخفاء وجاء بأخي الفضل الصغير (أبي إسحاق إبراهيم) بن أبي بكر إلى القصبية وأجلسه على كرسي السلطنة وحمل الناس على بيعته وقبض على الفضل وقتله واستبد بأمر الدولة .

وأغضب هذا الصنيع بنى مكى أصحاب قابس وجربة للوفاء لسلطانهم الشهيد ، ولكن كرها لابن تافراجين فقد كانت بينه وبين أحمد بن مكى منافسة وعداء خطير ، فأعلن بنو مكى العصيان والثورة مستعينين بأولاد مهلهل من الكعوب ، وأولاد حكيم من علاق ، والنواودة .

ولما أحسوا أن ليس لهم من القوة ما يمكنهم من مناوأة ابن تافراجين والتغلب عليه ذهب أحمد بن مكى إلى قسنطينة محرضا صاحبها أبا زيد الحفصى على غزو تونس فخرج إليها سنة ٧٥٣ :

وأولى أحمد بن مكى حجابته ، وحاصر مدينة تونس فوجد منها مقاومة عنيفة نظمها ابن تافراجين . واضطر أبو زيد لرفع الحصار عنها والرجوع

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١١٧ .

إلى قسنطينة مسرعا لعلمه باقتراب المرينيين منها ، تاركا أخاه أبا العباس أحمد مع بني مكى الذين رجعوا إلى أماكنهم متربصين الفرصة الساححة للانتقام من ابن تافراجين وتوسيع ولاياتهم .

ابن مكى فى طرابلس :

وفى سنة ٧٥٥ هـ ، استولى النصارى الجنويون على طرابلس فهاوضهم أحمد بن مكى صاحب جربة فى تسليمها إليه مقابل فدية مالية فطلبوا (خمسين ألف دينار) ذهابا عينا ، فأرسل بالخبر إلى أبى عنان المرينى يستعينه على جمع هذه الفدية ، وأعجله الأمر عن انتظار جواب أبى عنان فجمع ما عنده واستعان بأصحاب الخير من سكان قابس والحامة وقفصة والجريد وجربة . ودفع المبلغ للنصارى فخرجوا من طرابلس وتسلمها أحمد منهم ، وإثر دفع الفدية وصله المبلغ كاملا من أبى عنان المرينى راغبا منه لإرجاع الأموال المجموعة إلى أصحابها ليتفرد هو بالثواب وحده ، ولكن بعض المساهمين رفض استرجاع ما دفعه احتسابا لله ، وانتقل أحمد بن مكى إلى طرابلس يصرف أمورها ويشرف على حظوظها مع بقاء جربة لنظره .

وفى سنة ٧٥٨ هـ ، وصلت جيوش أبى عنان (٧٤٩ - ٧٥٩) المرينى إلى تونس وفر ابن تافراجين إلى المهديّة وبادر بنو مكى على عادتهم بمظاهرة أبى عنان ومساعدته والدعوة له ، وراذ ذلك فى حقد ابن تافراجين عليهم . فلما رجع لتونس إثر رجوع أبى عنان إلى المغرب جهز أسطولا ضخما وأرسله إلى جربة بقيادة ولده فحاصر حصن القشتيل^(١) مدة حتى استسلم

(١) هذا الحصن يقع داخل مياه البحر بالجهة القبلية من جزيرة جربة ، وقد بناه النصارى عند احتلالهم لجربة سنة ٦٨٨ هـ ، وأطردهم منه أبو بكر الحفصى سنة ٧٣٨ هـ ، على يد مخلوف ابن الكناد أحد أعوانه .

له بإعانة سكان الجزيرة الذين سثموا ظلم ابن مكى وترك ابن تافراجين كاتبه (محمد بن أبى العيون^(١)) واليا على جربة .

وبقى أحمد بن مكى مستقلا بطرابلس حتى مات بها سنة ٧٦٦ هـ ، فتولى أمرها ابنه الذى أنزعها منه نهائيا الأمير عمر بن أبى العباس أحمد الثانى والى صفاقس بأمر من أبيه .

وفى أثناء هذه الفتن كلها أى منذ استبداد ابن تافراجين بتونس وبنو مكى مستقلون استقلالاً كاملاً عن السلطنة الحفصية بالحضرة .

ولما هلك أحمد بن مكى بقى أخوه عبد الملك مستبداً بقابس حتى اتسق الأمر لأبى العباس أحمد الثانى (٧٧٢ - ٧٩٦ هـ) ، ونهض لقطع دابر الفتن والضرب على أيدي الأعراب ، فحافه عبد الملك على نفسه وأطهر له الطاعة ولكنه تكاسل عن القدوم عليه فحرض عليه السلطان نبي أحمد من عرب سليم وأنجدهم الأمير أبو بكر بن أبى العباس والى قفصة ومحاصروا قابس ، ودافعهم ابن مكى عنها بشدة وحزم ، وقبض على بعض السكان متهما إياهم بالحيانة وموازرة العدو ونكبهم فاشتد حق السكان ضده ، وأحس ابن مكى بالخطر وبيوادر الثورة ، فمال إلى الحيلة والدهاء وأعرى بعض المغامرين من قبيلة أولاد على من سليم بمبالغ من المال هبتوا العسكر المحاصر للمدينة وكسبوه ليلا فحلت به الهزيمة .

وبلغ خسر الهزيمة إلى السلطان أبى العباس فنهض فى عساكره إلى قابس سنة ٧٨١ هـ ، ومعه أولاد مهلهل والحاميد ، فتظاهر ابن مكى بالطاعة

(١) بقى ابن أبى العيون فى منصبه هذا حتى ذلك الحاجب ابن تافراجين سنة ٧٦٦ هـ ، فاستند بالأمر وتمرد على السلطان الحفصى حتى حلصها منه أبو العباس أحمد على يد ولده عمر سنة ٧٧٤ هـ ، وقبض على ابن أبى العيون وسجنه فمات بسجنه ٧٧٦ هـ .

ثانيا وراوغ السلطان حتى تمكن من جمع ذخائره وهرب بأهله وأمواله- واستجار بأحياء دباب فأجاروه ومات عندهم ، ولحق ابنه يحيى وحفيده عبد الوهاب بن مكى بطرابلس ، فنعتها صاحبها (ابن ثابت) من دخولها فتحولوا إلى (زنور) ونزلا في جوار بني جاربة من قبائل دباب ، أما قابس فقد رجعت ولاية تابعة لسلطان الحضرة وعرفنا أن واليها الحفصي كان يسمى (يوسف بن الأبار) الذي قتله عبد الوهاب بن مكى كما سيأتي .

ويقول ابن خلدون إن الأخوين عبد الملك وأحمد كانا حيرين عادلين فقيهين شاعرين كاتبين وعلى الخصوص أحمد ، ووصفهما بالحيرة والعدل يناقض ما جاء في بعض فقرات منه من ضيق سكان قابس وجربة بظلمهما .

٥ - عبد الوهاب بن مكى :

ولم تبق قانس تابعة للحفصيين إلا نحو السنة ثم استرجعت استقلالها .
 في سنة ٢٨٢ رجع عبد الوهاب بن مكى من زنور إلى جبال قابس وشن عليها الغارات مع جماعة من العرب محاولا امتكاكها أثناء معيب عمه يحيى في الحجج . حتى تمكن من احتلالها بإعانة فرسان القبائل العربية وبعض صنائعهم من سكان قابس الذين سثموا سيرة واليهم يوسف بن الأبار ، وقتل الوالى يوم فتحها واستقل عبد الوهاب بالأمر فيها حتى رجع عمه من الحجج وقدم مع أعوانه إلى قابس محاولا زحزحة ابن أخيه عنها فلم يتمكن من ذلك ، ونزل ضيفاً على صاحب الحامة فانصل عبد الوهاب سرآ بصاحب الحامة وبذل له فدية مالية عظيمة فخان الضيافة ودفع يحيى لابن أخيه فاعتقله بقصر العروسين وبقى يراوغ السلطان أبا العباس أحمد يظهر

له الطاعة من جهة ويحرض أعراب الجنوب على التمرد والعصيان من جهة ثانية ، حتى ضجر السلطان من تلاعبه فنهض إليه في عسكر جرار سنة ٧٨٩ وحاصر قابس وقطع غابتها حتى أعلن عبد الوهاب الطاعة وصالح السلطان على أن يبقيه واليا على قابس ويرهن عنده ابنه ضمانا لطاعته ، فتم الصلح على ذلك وبقى عبد الوهاب في ولايته إلى أن قتله عمه يحيى سنة ٧٩٠ هـ .

٦ — يحيى بن عبد الملك بن مكي :

تمكن يحيى من الفرار من ميجنه بقصر العروسين واستجار بصاحب الحامة وكان من بني وشاح ، فأجاره وأنجده بالفرسان والمال ، فهاجم قابس مرارا حتى تمكن من احتلالها وقتل ابن أخيه عبد الوهاب سنة ٧٩٠ كما مر واستقل بالأمر عن الحفصيين فتحرك إليه الأمير عمر بن أبي العباس الحفصي وإلى صفاقس بأمر من أبيه . ويظهر أن العلائق قد ساءت بين ابن مكي وصاحب الحامة ، فاغتم الأمير عمر هذه الفرصة وخطب صاحب الحامة في إعانتة فأنجده مسرعا وبذلك تمكن من الاستيلاء على قابس وقتل يحيى بن مكي سنة ٧٩٦ هـ^(١) ، وبوته انقرض أمر هذه العائلة نهائيا من قابس ، وأصبحت ولاية تابعة للعاصمة إلى اليوم .

وقد كانت قابس أثناء حكم هذه العائلة التي عاشت في ظروف مليئة بالفتن والثورات والمغامرات ، كانت قابس تعاني ما تعانيه تونس كلها من هويلات ، وانتشر الفساد والفقر في كل مكان ولم تسرّج شيئا من الاستقرار إلا في زمن أبي العباس أحمد الثاني الذي قضى على فساد الأعراب وعلى زعامة العائلات ، على أن الحالة الاقتصادية لم تتحسن نهائيا إلا في زمن أبي فارس عزوز (٧٩٦ — ٨٣٧ هـ) .

(١) في ابن حلدون سنة ٧٩٩ وهو لا يتماشى مع ما ذكره ابن خلدون نفسه من أن حكمة بن مكي كانت من طرف السلطان أبي العباس أحمد الذي توفي في سنة ٧٩٦ هـ .

الفصل الخامس

عهد التبعية (٧٩٦ - إلى اليوم)

من الحصص إلى الجمهورية

- ١ -

ولاية حفصية (٧٩٦ - ٩٤٢ هـ)

يظهر أن قابس قد استنامت إلى الهدوء والسكينة إثر القضاء على المغامرين والولاة المنتظمين الذين كانت الظروف تغريهم بالثورات على الحكومة المركزية وتكوين ولايات طائفية ، على غرار ما ظهر في نفس الوقت بالأندلس والسبب الفعال استنامة قابس وغيرها من الولايات النائرة للهدوء هو ظهور سلطة مركزية قوية تمثل في شخصية رئيس الدولة .

وقد قلنا سابقا أن أبا العباس أحمد الحفصي الثاني (٧٧٢ - ٧٩٦) الذي حكم نحو ربع قرن كان رجلا قوى الشكيمة سديد السياسة شمر من أول حكمه على ساعد الجهد للقضاء على الفوضى والتمن وعلى الإقطاعيين الأعراب الذين كانت لهم اليد الطولى في تلك الفتن والذين كانوا ينعمون في عهد السلاطين قبله بإقطاعات ضخممة كانوا يتجاوزونها إلى نهب وسلب من حولهم وشن الغارات على أطرافهم وينتهزون فرصة قيام كل ناعق ليحوضوا المغامرات الخطيرة إلى جانبه .

حسم أبو العباس شوكة هؤلاء الأعراب فاستعان ببعضهم على بعض ووفى الجزاء للمخلص منهم وضرب على أيدي الباغي والمناق ، ثم توجه إلى (١٤ - قابس)

تخطيم العائلات المتركرة في بعض العواصم كبنى مكى بقابس فقضى على حكمهم سنة ٧٩٦ هـ ، كما ذكرنا ، واستراحت البلاد من الشر والفتنة والناس على دين . ملوكهم كما يقولون . فعلى غرار أبي العباس سار ولاته وعماله فكان هو يحسن الاختيار وكانوا هم يحسنون السياسة من جهتهم .

ومات أبو العباس أحمد في السنة التي قصى فيها على عائلة بنى مكى بقابس سنة ٧٩٦ هـ ، واعتلى السلطنة بعده أبو فارس عزوز (٧٩٦ - ٨٣٧) أقوى سلاطين بنى حفص شكيمه وأعدلهم وأفضلهم سياسة وحكمة ، فهو « درة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية . سار يعدل وتديبر ، وسياسة فازدهرت إفريقية في أيامه وبلغت شأواً بعيداً في الثورة والعمران (١) » .

سلك هذا السلطان مسلك أبيه في القضاء على الفتن وتخفيض شوكة الأعراب الذين حاولوا أن يززعوا ملكه بمساعدة بنى مرين بالمغرب والأمير الحفصي ببجاية فتحرك لهم في جيوشه وأوقع بهم الهزيمة وشتهم سنة ٨١٢ هـ . وقتل صاحب بجاية ومهد بلاد الجزائر كلها فأعطته الطاعة ، تم تحوّل إلى المغرب للانتقام من المريني ولكن الأخير جنح للسلم وطلب الصلح . فأعطى له وبلغت شهرة أبي فارس أطراف إفريقيا الشمالية والأندلس فجاءته بيعة المغرب والأندلس وبذلك توحد المغرب العربي كله تحت سلطنة واحدة .

وبالرغم من أن قابس في عهد هذا السلطان كانت ولاية حصصية إلا أن أطرافها حيث يوجد الأعراب كانت لاتزال مركزاً للفوضى والفتن فسار أبو فارس في جيوشه إلى قابس وقصى على أوكار الفساد بجهاتها وجهات

قصة والجريد، وفي هذه الرحلة التفقدية، سمع أبو فارس بدخول الإسبان إلى جربة فأسرع إليها وأوقع بهم سنة ٨٣٥ هـ، وفي هذه الواقعة أمر أبو فارس ببناء القنطرة البحرية بين جربة وجرجيس حيث توجد القنطرة الجديدة اليوم^(١). وبقيت قانس على حالتها بعد أبي فارس سوى نشوب ثورات الأعراب في الجهات الجنوبية والغربية، ولكن أنا وعمرو عثمان الحفصي (٨٣٩ - ٨٩٣ هـ) قصى عليها وأرجع للبلاد عزها وازدهارها الذي رآته أيام حده أبي فارس

وفي أيام أبي عبد الله محمد الحفصي (٨٩٩ - ٩٣٢) قدم إلى تونس القرصان التركي المشهور (خير الدين بربروس) وأخوه (عروج) فسمح لهما باستعمال الموانئ التونسية كالمهدية وجربة وحلق الوادي على أن يكون له خمس ما يغنانه من عرواتهم للإفرنج، ونعتقد أنهما لم ينزلا بقباس ولم يستعملا مرساها لأنها غير صالحة لإرساء سفنهما الكبرى.. إلا أننا لا نستعد دحول قابس تحت حكم خير الدين حين هاجم تونس من الجزائر واحتلها سنة ٩٣٥ هـ، وهرب منها صاحبها الحسن الحفصي (٩٣٢-٩٤٢ هـ) بالرغم من أن السلطان الحفصي هرب إلى الأعراب الذين جاءوا إلى مجده من الجهات الغربية والجنوبية، لأن قابس رفاً بحري فلا يبعد أن يكون خير الدين احتلها وترك فيها حامية من قبله حتى لا يستطيع الحسن أن يأوى إليها.

وعلى كل فقد كانت الأحداث أثناء هذا العهد غامضة بالنسبة لقاباس على الخصوص والمعروف أن الحسن الحفصي جمع الأعراب فشتهم خير الدين بمدافعه فالتجأ الحسن للاستنجاد بملك إسبانيا (شارلكان) فأنجده

(١) انظر (مؤنس الأحبة) بتحقيقنا.

بعمارة قوية أرسى بميناء حلق الوادى ونزل منها الإسبان واحتلوا تونس سنة ٩٤٢ هـ ، واضطر خير الدين للالتجاء نحو الجزائر .

- ٢ -

الإسبان (٩٤٢ - ٩٨١ هـ)

انتصبت الحماية الإسبانية على البلاد فى سنة (٩٤٢ هـ - ١٥٥٣ م) بمقتضى معاهدة بين قائد الحملة الإسبانية وبين الحسن الحصى المستنجد بهم تحول لهم التصرف فى عابىة وبزرت وحلق الوادى والنزول حيث شاعوا من بلدان المملكة والمشاركة فى حكم البلاد وغير ذلك من شروط القوى على الضعيف ، فلم ترق هذه الشروط المحجفة للسكان فتأمروا مع أحمد بن الحسن عامل عابىة وثاروا بالإسبان وأخرجوهم من العاصمة واستولى أحمد على الحكم فى نفس السنة (٩٤٢) ، ولكن الإسبان استطاعوا أن يتحصنوا بطرابلس وجربة والمهدية والمستير ولم يذكر المؤرخون ماذا كان موقف قابس فى هذه الفترة ، فهل بقيت خارج الاحتلال الأجنبى أم أنها كانت من ضمن البلدان المحتلة .

وفى سنة ٩٧٧ هـ ، قدم لتونس على باشا الوالى التركى على الجزائر يعبد خير الدين فى جيش تركى قوى واحتل العاصمة التونسية وألحقها بالخلافة العثمانية وحطب فيها للخليفة سليم الثانى ، فاضطر أحمد للاستجد بالإسبان أعداء البلاد سالكا الطريق الذى سلكه أبوه وأنكره هو عليه ، وأعلن الثورة على أبيه من أحله فأجذوه بأسطول ضخم أرسى بميناء حلق الوادى ، وهناك علم احمد المسكين بأمر المعاهدة التى يريد الإسبان فرضها عليه وتقتضى مقاسمته فى الحكم وفى الجباية فأنف من قبولها وندم حين لا يقعه الندم ، وأبحر حالا إلى صقلية حيث توفى هناك سنة ٩٨٠ هـ غربيا عن وطنه .

وقبل أخوه محمد الشروط الإسبانية ، وتقدم الجيش الإسباني فاحتل تونس ونصب محمداً على السلطنة الاسمية سنة ٩٨٠ هـ ، وعاث الإسبان في البلاد سلباً ونهباً وظلماً وطغياناً « ولقد لاقى التونسيون في تلك المدة من جور العساكر الإسبانية وتعليهم بأنواع المظالم ما حمل السكان على الفرار إلى البادية فتفرقوا أيدي سباً واختفوا بالكهوف ونالهم من الحطب وضروب الهوان ما لا يوصف وزاد الطين بلة ، تطاول المتغلبين على المعالم الدينية التي أهينت وهتكت حرماً حتى قيل إن الخيول ربطت بجامع الزيتونة وألقي ما فيه من نفائس الكتب في الطرقات وسبق البعض منها إلى مكتبة الفاتيكان برومة : ولا تزال تشهد هناك (١) . ولانشك أن قابس قد نالها ما نال أخواتها من عواصم البلاد من ظلم الإسبان وجورهم وطغيانهم .

ويق السكان يتجرعون الغصص وينتظرون الفرص ويستعيثون بإخوانهم المسلمين حتى جاءتهم النجدة التركية فقضت على الحماية الإسبانية وعلى الحكم الحفصي سنة ٩٨١ هـ .

— ٣ —

الأتراك (٩٨١ - ١١١٧ هـ)

بدأت أنظار الأتراك تتجه إلى تونس منذ انتصاب خير الدين بربروس بالجزائر ، فقد ذكرنا سابقاً أنه هاجم تونس وامتلكها سنة ٩٣٢ هـ ، واضطر لمغادرتها سنة ٩٤٢ أمام الإسبان .

وقدر لدرغوث باشا (٢) تلميذ خير الدين والقرصان التركي المشهور

(١) حلاصة تاريخ تونس ص ١٢٩ .

(٢) عمل في البحر مع خير الدين واشتهر في قيادة السفن وولى طرابلس سنة ٩٦٠ هـ وقبل ذلك بسنتين جاء إلى تونس فاحتل صفاقس والقيروان وتوفي محاصراً للمالطة سنة ٩٧٣ هـ

من يزور سفنه السواحل التونسية ويختبر بنفسه سوء حالة البلاد وضعف دفاعها فجاء بحملة قوية إلى صفاقس وكانت عاصمة على السلطنة الحفصية يصرف شؤونها محمد المكى الشابي فامتلكها ومنها تقدم إلى القيروان فاحتها سنة ٩٥٨ هـ ، وترك فيها واليا من قبله يسمى (حيدر باتا) مع حامية قوية فكانت هذه الحامية شوكة في جب الإسبان ومركزاً للدعاية للخلافة العثمانية ، وقويت هذه الحامية بما انضم إليها من حامية تونس التركية التي كان تركها على باشا سنة ٩٧٧ هـ واطردها الإسبان سنة ٩٨٠ هـ فنظم حيدر باشا قوة عتيقة عازما على طرد الإسبان من تونس نهائيا ، واستنجد بقائد الحامية التركية بطرابلس (مصطفى باشا) واتفقا على جمع قواتهما والهجوم على تونس ، وتحرك كل منهما في اتجاه العاصمة فالتقيا بالمحمدية وزحفا على العاصمة وحاصراها وبتشاء القدر أن يصل في نفس الوقت قسم الأسطول التركي بقيادة الوزير سنان باشا إلى المياه التونسية فوقع الاتصال بين القواد الأتراك وحاصروا قلاع حلق الوادي برآ وبجرآ ، فصر الإسبان إلى حصون العاصمة ولكنها هي بدورها لم تستطع الصمود إلا أياما قليلة وتغلب عليها الأتراك بمساعدة السكان والأعراب القادمين من الخارج وأسر السلطان محمد الحفصي وأرسل إلى الاستانة حيث مات هناك وبه انقضت الدولة الحفصية التي عمرت بتونس نحو ثلاثة قرون ونصف ، وكان هذا الاحتلال التركي سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) وأصبحت به تونس ولاية تركية . كنا نساءلنا : هل أن الأتراك عند احتلالهم لصفاقس والقيروان سنة ٩٥٨ هـ مروا بقابس وألحقوها بحكمهم ؟ أم أنهم وردوا لصفاقس من البحر وبقيت قابس خارجة عن نطاقهم ؟ والواقع أننا لانملك الجواب عن هذه المسألة ، إلا أن احتلالهم لجزيرة نجربة سنة ٩٦٠ هـ وبقائهم فيها إلى ما بعد احتلالهم لتونس سنة ٩٨١ هـ ، مع وجودهم في القيروان والمهدية وصفاقس قبل هذا التاريخ يجعلنا نرجح وصولهم لقابس

أثناء هذه الفترة أى ما بين ٩٥٨ و ٩٨١ هـ ؛ وما لاشك فيه أنهم وجدوا فيها سنة ٩٨١ هـ ، وأن عملهم تصرفوا في شؤونها منذ ذلك العهد إذ لم يكن وحودهم فيها قبل ذلك .

ومنذ انتصاب الحكم التركى لا نجد بقابس أهدائاً ذات أهمية والظاهر أنها مالت إلى الدعة والسكون ، خصوصاً وقد أخذ الأعراب بجهاتها إلى الاستكانة أمام القوة العسكرية التركية التي أرعبتهم بالسلاح الجديد الفتاك (المدافع) .

وكل ما نعرف عن قابس في هذا العهد ، وفي عهد المرادين بالخصوص (١٠٢٢ - ١١١٤ هـ) أنها كانت محل اهتمامهم فجدد مساجدها محمد باشا المرادى (١٠٨٦ - ١١٠٨ هـ) وبني مدرسته بضريح سيدى أبى لبابة رضى الله عنه ، ومسجد سيدى قناوى غربى قابس وبني حمودة باشا المرادى (١٠٦٨ - ١٠٨٦) بضريح سيدى أبى لبابة ، وانتقل الولاية من المدينة إلى قرية جارة القديمة ، داخل الغابة (١) .

ولم نعث في المراجع التي بين أيدينا على اسم أى وال من ولاية هذا العهد ، مع العلم بأنه كان بها عامل تساعده في المحافظة على الأمن فرقة عسكرية تركية يقودها ضابط بإعانة جماعة من صغار الضباط ، عدا اسم حسين بن على جد العائلة الحسينية الذى تولى عمالة الأعراض (قابس) في عهد مراد أبى بالة (١١١٠ - ١١١٤) إلى أن سمي كاهية في أواخر أيام مراد .

وفي هذا العهد نمت غابة قابس والزراعة المحلية ولو أن هذا النمو كان

(١) انظر الباب الأول .

في نطاق محدود فالأطراف البعيدة كانت لا تزال تتعرض لبعض الفوضى
وغارات الأعراب الرحل .

— ٤ —

الحسينيون قبل الحماية (١١١٧ - ١٢٩٨)

وتولى الحسينيون الحكم بتونس سنة ١١١٧ ، وذلك بمبايعة حسين
ابن علي الأول إثر موت إبراهيم الشريف آخر الدايات الأتراك ، وسارت
البلاد على النظام التركي الأول .

وفي عهد هذه العائلة توارد على قابس عدة عمال نذكر أسماء بعضهم
فيما يلي مع الأحداث التي صحبت عهودهم ، وكانت ولاية قابس من الولايات
المعتبرة في الدولة قال صاحب التاريخ الباشي : « وهي من الولايات الجليلة
التي تخفق الألوية على رأس صاحبها ، وهو أكبر القواد والعمال » .

١ - أحمد الصغير :

أحد أعوان حسين بن علي (١١١٧ - ١١٤٧) والمتقدمين في بلاطه
وهو ابن أخي محمد الغزالي عامل الكاف في ذلك العهد الذي اشتهر بمطاردة
الثائر ابن فطيمة في صحراء الجنوب حتى تمكن منه بعد مطاردة طويلة (١) .

٢ - علي السبعي :

تولى قابس أواخر أيام حسين بن علي ولما ثار علي باشا على عمه حسين
وطرده من العاصمة وانتقل إلى القيروان صحبه علي السبعي هذا وقاتل معه ،

(١) انظر التاريخ الباشي (مخطوط) .

وفي يوم استشهاد حسين بن علي وقع على السبعي في قبضة يونس بن علي. باشا فنقله مكتوفاً إلى العاصمة ودفعه إلى والده فأمر بختقه في القصبية سنة ١١٥٣ هـ ، إثر موت حسين وهروب أبنائه إلى الجزائر ، وتركت هذه الحصومة أثراً سيئاً في البلاد ، فقد انقسمت الأحياء العربية إلى قسمين حرب حسيني يؤيد حسين بن علي ومنه الهمامة وجلاص ونفات وأولاد عون وأولاد يعقوب والمرزوق الح ... وحزب باشي يؤيد علي باشا ومنه ماجر والفراشيش وأولاد عيار وورثان وأكثر الساحل ، وبقيت هذه العداوة بين الحزبين إلى ما بعد انتصاب الحماية الفرنسية - ويسمى الحزبان في العروش العربية حزب شداد - وحزب يوسف ، والظاهر أنهما اسمان لزعميين من الطائفتين وقص على بعضهم أن شداداً زعيم المثاليت ويوسف زعيم الهمامة ، وعلى كل فقد انتقلت النعرة الجاهلية من تونس إلى أجوارها في الجزائر وطرابلس .

٣ - رجب بن ماضي :

من أعوان علي باشا وأنصاره ، والظاهر أنه تولاهما في الفترة الواقعة بين (١١٥٣ - ١١٦٠) .

٤ - مصطفى بن متيشة :

تولى قابس بأمر من علي باشا سنة ١٢٦٠ هـ ، وكان هذا الوالي شديد العداوة والحقده على الهمامة لكثرة خصوماتهم مع سكان الأعراض وعلى الأخص سكان الحامة (بني يزيد) وكان من مؤيدي الهمامة وأنصارهم حتى (نفات) الواقع تحت حكم عامل الأعراض فأرهبهم ابن متيشة وفعل فيهم الأفاعيل حتى اضطروا إلى الرحيل نحو الهمامة ونزلوا عندهم فطلب ابن متيشة لإرجاعهم فامتنع الهمامة من تسليمهم بعنوان كونهم استجاروا بهم .

فقال ابن ميثثة إلى الحيلة ونقل إلى علي باشا عدة أكاذيب عن الهمامة وحرصه على تأديبهم فخرج إليهم بنفسه في جيش كثيف يصحبه ابنة يونس ، وأمر ابن ميثثة أن يلاقه هناك بمحلة الأعراض فخرج هو أيضاً وصحبه جمهور من عرب بلاده التائقين للانتقام من الهمامة . فتحصن هؤلاء منه يجالط فاستدعى ابن ميثثة مشائخهم وخادعهم بأن علي باشا لم يقدم لحربهم وإنما جاء يستمدهم طالباً منهم خمسة آلاف بعير لحاجته إليها على أن (فرحات) زعيم (أولاد معمر) أدرك خداعه فجمع أبناء عمه وهرب بهم إلى الصحراء .

ولما سمع بذلك ابن ميثثة تحول بمحلته قبلى الجبل ليحول دون فرار من بقي منهم ؛ وكان في محلته بنو يزيد وأولاد يعقوب ، والحزم ، وورغمة ، وأولاد سعيد ، والسواسى الخ .

ونزل بالقرب منه سليمان بن علي باشا في محلة ثانية ، وحوصر الجبل من جميع جهاته واستدعى علي باشا مشائخ الهمامة فامتنعوا من النزول إليه فشد عليهم الحصار حتى أهلكهم العطش فأظهروا الطاعة وطلبوا الأمان واستسلموا له فعاقبهم الباشا باغتصاب جميع إبلهم وعدتها (ثلاثة عشر ألفاً) وغالب أغنامهم وسأل عن أولاد معمر فعلم أنهم نزلوا (بكدية مانع) قرب (وادى سوف) واتهم الباشا صديقه سليمان بن أحمد المناعى (من أولاد مناع ، من دريد) بأنه هو الذى أنذر الهمامة وكان سبباً في إفلات أولاد معمر فقبض عليه وسجنه حتى مات في سجنه (١) .

وكانت نكبة الهمامة هذه من أكبر النكبات التى حلت بهذا الحى النبيل . وعاقب الله مصطفي بن ميثثة عما قدمت يدها فأت مخنوقاً بأمر سليمان بن علي

(١) التاريخ الباشى (مخطوط) : ص ٤٤٣ - ٤٤٦ .

باشا بقصبة تونس يوم ثورة أخيه يوس على أبيه متهماً إياه بزرع بذور الفتنة بين الأخوين يونس ومحمد ابى الباشا ، تلك الحصومة التي كانت السبب الأصلي في ثورة يونس سنة ١١٦٥ هـ .

٥ - إسماعيل باهية :

تولى قابس بأمر من على ناى الثانى بن حسين (١١٧٢ - ١١٩٦ هـ) .

وكان إسماعيل متزوجاً بابنة هذا الباي فتمكّن منه وتقلد المهمات العالية فغار منه محيط الباي وحاول اللساسون الليل منه ، ولكن الباي اشتهر بالعقل الحصيف والنظر البعيد فلم يأبه لهم وسد أذنيه عن الوشائيات ، فقالوا إلى ولى العهد حموده باشا وخافه إسماعيل على نفسه ففر إلى القسطنطينية وهناك تولى الخطط العالية وأرسل حاكماً على الشام ، وبقي في عز قائم وسعد دائم حتى توفى عن سن عالية .

ثورة إسماعيل باى :

وفي عهد هذا الباي حدثت ثورة قام بها إسماعيل بن يونس بن على باشا الأول وكان إسماعيل هرب إلى طرابلس إثر إخماد ثورة أبيه ، ومن المعروف أن ابني حسين بن على لما تغلوا على على باشا تتبعوا عماله وأنصاره ورححاهم عن مراكزهم وعمرا الوظائف العالية بأنصارهما - وهى شنشنة معروفة وعادة مألوفة عند المشتغلين بالسياسة - فاتصل هؤلاء المنكوبون والمعزولون والمغضوب عليهم بإسماعيل بواسطة الرسائل يحرصونه على الثورة ويعلنون له أنهم سيكونون من أعوانه ، ومن بين هؤلاء المحرضين (محمد بن عبد الكريم) شيخ قابس في عهد الباشا على .

وهرب إسماعيل من طرابلس في جماعة من الفرسان وانضم إليه جماعة من شذاذ الأعراب في الطريق حتى نزل (مارث) وقد وصلت أخباره

لجميع البلدان وتحفزت العرق العسكرية لمقاومته ، وأكرم الحمارنة لإسماعيل وصارحوه بأنهم لا يستطيعون إعانتته وهناك تلقى رسالة من (محمد ابن عبد الكريم) شيخ قابس القديم والمحرض الأول له على الثورة ينصحه فيها بأن لا يحاول الدنو من قابس ، فصبايحية الوجت وعسكر زواوة على أم أهبة للملاقاته بالقوة وأنه لا نصير له منهم ، فالمدينة كلها متحفزة مع الباي ضد كل ثورة وفتنة ، فتحول إسماعيل إلى الحمامة وهناك انضم إليه بنو يزيد والحزم من أطراف قابس واستراح بالحمامة شهراً ونيفاً يبعث الرسائل لأنصاره ويتلقى الرسائل حتى قدم عليه فرسان المثلث الدين انضموا إليه فتحرك بيجوشه إلى الساحل وجعل مركزه في قرية (جمال) ، وبعد معارك عنيفة هرب إلى جبل وسلات فحاصره على باي هناك حتى تغلب عليه وأخذ ثورته^(١).

ولا ندرى ماذا كان مصير شيخ قابس (محمد بن عبد الكريم) ويظهر أنه ندم على فعلته وانزوى ببلده ولم يحاول الخروج مع من حرصه بنفسه على الخروج حين أدرك فشل الثورة .

وفي عهد حمودة باشا (١١٩٦ - ١٢٢٩) ازدهرت قابس تبعاً لازدهار البلاد وانكب أهلها على الأعمال الزراعية والتجارية وساد الأمن والهدوء فلم تر قابس أية حركة عسكرية سوى مرور الجيش الذي أرسله حمودة باشا إلى طرابلس سنة ١٢٠٩ هـ ، لمحاربة (علي برغل)^(٢) ورد (علي باشا القرماني) إلى عرشه بطرابلس .

(١) انظر التاريخ السائى (مخطوط) من ص ١٠ إلى ١٤ .

(٢) انظر (مؤنس الأحبة) بتحقيقنا عن هذه الحملة ، والذي دفع حمودة باشا إلى هذه الحرب أن علي باشا القرماني الذي أطرده (علي برغل) من طرابلس كان صديقه وقد التجأ إليه واستنجد إليه وأن (علي برغل) انتزى على جزيرة جربة وامتلكها فأرسل له حمودة جيشاً برياً إلى طرابلس فتغلب عليه وأرسل القرماني إلى كرمي الحكم فيها وأرسل جيشاً بحرياً إلى جربة فأطرد منها أعوان (برغل) وأرجعها للحظة التونسية .

٦ - أبو محمد رشيد :

تولى قابس بأمر من أحمد باى الأول (١٢٥٣ - ١٢٧١ هـ) ولاندرى
 بنى أية سنة بالضبط بولاها إلا أننا نعرف أنه كان عاملا على قابس سنة
 ١٢٥٦ هـ ، التى صدر فيها أمر الباي بجعل الأسواق (لزمة) وقد استنكر
 الناس هذا الأمر ورأوا فيه اغتصابا لأموالهم وصرح بعضهم بأنه خروج عن
 الأحكام الشرعية فثار سكان قابس وقتلوا (اللزام) فأسرع الباي إليهم
 فى حشد عظيم وقبض على قاتلى (اللزام) فقتلهم وأغرم قابس (ستائة ألف
 ريال)^(١) وبعد إلحاحات وشماعات أسقط نحو ثلثها عن الضعفاء منهم .

٧ - محمد هزرنه دار :

كان عاملا على سوسة وضم إليه محمد باى الثانى (١٢٧١ - ١٢٧٦)
 عمالة الأعراض (قابس) سنة ١٢٧٣ هـ ، وكلفه بإنحاد فتنة الشيخ غومة
 المحمودى^(٢) بقبلى ، فسار إليه فى قوة عسكرية ففر أمامه إلى بلاد الجزائر
 واستباح بلدة قبلى وشرد سكانها وباع أرزاقهم .

٨ - الفريوق سليم :

تولى الأعراض سنة ١٢٨٠ هـ بأمر من الصادق باى (١٢٧٦ - ١٢٩٩)
 ولم يطل عهده .

٩ - أحمد زرووق :

أحد ولاية الصادق باى على الساحل تولى الأعراض سنة ١٢٨١ هـ ،

(١) انظر تاريخ ابن أبى الضياف (مخطوط) .

(٢) انظر تاريخ ابن أبى الضياف ح ٣ من ص ٧٦٥ إلى ٧٦٨ والباب الرابع من

هذا الكتاب .

لأثر ثورة العروس البلوية بقيادة (علي بن غدام) وكان السبب في هذه الثورة عمدة الباي وحكومته إلى مضاعفة الضريبة الشخصية المعبر عنها بضريبة (المجبي) ، وقد كانت في عهد محمد باي (ستة وثلاثين ريالاً) فأصبحت (اثنين وسبعين) فثار سكان البادية وشهروا السلاح وقطعوا الطرق على السابلة فقاومتهم الحكومة بقوة تم اضطرت إلى التزول عند رعبتهم فأرجعت الضريبة كما كانت .

وقدم أحمد زروق إلى قابس على إثر هذه الثورة فهرب منه أعراب الجهة وقبض على من وصلت إليه يده وأخذ الحركات الثورية بقسوه وشدته واستخلص من الناس أموالاً طائلة مما زاد في غضبهم وحقدهم ونالت قابس شدة لم تمر بها في حياتها .

١٠١ - أبو الحسين عيدر :

وصل إلى قابس عاملاً من طرف الصادق باي سنة ١٢٨٢ هـ ، ولكن الحالة الاقتصادية والصحية كانت تنذر بالخطر الداهم فلم يلبث حتى تركها في السنة الموالية ١٢٨٣ هـ .

وفي السنة التي تولى فيها هذا العامل (١٢٨٢) اكتسح البلاد مرض (الكوليرا) وكانت قابس إحدى ضحاياها مات فيها خلق كثير ، ولم يكف الناس يستريحون من هذا الخطر حتى دأهمهم خطر جديد يتمثل في مرض (حمى التيفوس) سنة ١٢٨٤ هـ . وجاءت بعده محاعة عظمى وارتفاع في الأسعار مما خرب عدة جهات كانت عامرة .

هذه المصائب والكوارث التي أصابت البلاد يضاف إليها فساد الحكومة والعبث بأموال الدولة والحيانات الوطنية تجمعت كلها لتفتح الباب للاحتلال الفرنسي لتونس سنة ١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ م (١) .

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب « معركة الحماية » من تأليفنا بالاشتراك مع الأستاذ البخيلاني بن الحاح يحيى .

الحسينيون مع الحماية (١٨٨١ - ١٩٥٦)

انتصبت الحماية الفرنسية على تونس في ١٢ ماي ١٨٨١ م ، وتحركت الجيوش الفرنسية مع السواحل تفتح البلدان ووصلت قابس في جويلية من نفس السنة ووجدت المدينة متحفزة للدفاع عن نفسها كأختها صفاقس فأرست الوحدات البحرية داخل الخليج ونزلت فرقة للبرفانتصبت عند مجمع المياه المسمى (برأس الوادي) عربي الغابة وبذلك صارت تتحكم في الماء حياة المدينة وعابتها .

مقاومة الاحتلال :

ويقص السكان أن الناس هبت للدفاع وحملت السلاح وصمد أهل قابس للقنابل والطوربيد المستهدفة حارقي المنزل وجارة . وقدمت جماعات صغيرة من أبطال بنى يزيد من الحامة ومن أبطال عروش الحمارنة والحرم وشاركوا مشاركة فعالة في الدفاع عن المدينة ، ولم يستطع الفرنسيون الاقتراب من قابس وغابتها إلا بعد براز عنيف ذهب ضحيته جماعة من الأبطال حيث سقطت منهم جماعة من الشهداء في الغابة ، ولما نزل الفرنسيون وهاجوا جارة تلقاهم المقاومون في جارة بالسلاح الأبيض مما اضطرتهم إلى احتلالها منزلا منزلا في الوقت الذي كانت فيه قتابل جيشهم الغربي وأسطولهم البحري تخرب الغابة وحارة المنزل ، ونفطن الفرنسيون لمقاومة عنيفة ظهرت من مستودع الذخائر (خزانة البارود) (١) ، وكان قد التجأ إليه جماعة من أبطال الحمارنة والحزم فاحتلوها من أجل الذخيرة ومه قاوموا المحتلين ، وأحبر الفرنسيون

(١) كانت في مكان مدرسة المنزل الابتدائية اليوم .

أسطولهم بمكان المقاومة فسلط عليه قنابله فانفجر المستودع واستشهد كل من فيه وتمزقت أجسادهم ، ولا يزال السكان يتحدثون عن تلك الفاجعة ، وإثر القضاء على المستودع ومن فيه تمكن الفرنسيون من احتلال المنزل والقضاء على المقاومة فيه بعد ما اضطر المقاومون الأحياء إلى الفرار نحو الجنوب . واستسلمت المدينة للقوة القاهرة في ٢٣ جويلية ١٨٨١ م .

وقد حاول محرر دائرة المعارف الإسلامية أن يجعل قابس من المدن المستسلمة بدون مقاومة ولكنه اضطر إلى الاعتراف بأن السكان حملوا السلاح في وجه الجيش الفرنسي فأقر بالواقع من حيث أراد إخفاء الحقيقة . فقال : « قام تشويش كبير بالجنوب التونسي غير أنه على أثر رمي صفاقس بالقنابل توجهت على جناح السرعة قوات فرنسية إلى مدينة قابس حيث تسلم الأهالي بما لديهم من الأسلحة فاستسلمت بجارة والمنزل في ٢٣ جويلية بدون مقاومة ؟ . . وأقامت القوات الفرنسية مركزاً عسكرياً برأس الوادي لحراسته والسيطرة عليه لأن مياهه تنتعش منها الواحة » (١) .

ولست أدري إذا كان السكان استسلموا بدون مقاومة أى معنى للقول بأنهم تسلموا وأية فائدة من احتلال رأس الوادي والسيطرة على الماء الذى تعيش منه الواحة والمدينة . على أن (ايڤ (Joer)) كان أصرح من دائرة المعارف حيث قال : « وضربت كل من قابس وجربة بالقنابل واحتلتها القوات العسكرية الفرنسية » (٢) . وأصرح من الاثنين (فكتوريو) الذى قال : « غير أنه وجب إطلاق بعض القنابل على حارة المنزل ، ووجب فتح حارة جارة بالطوربيد واحتلال منازلها قتالاً بالسيوف » (٣) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة (قاس) .

(٢) L'Afrique du Nord française p. 262

(٣) تاريخ الحماية التونسية ترجمة مجلة العالم الأدبي ٢٣ بتاريخ ٢٩ أوت ١٩٣٢ .

المقاومة في الجنوب :

وثار سكان الجنوب ثورة جاحجة ووقعت الاتصالات بين زعماء العروش العربية وجمعوا الأسلحة وانتقلت الأحياء إلى الحدود الطرابلسية طمعاً في الاتصال بالمساعدة من طرف السلطة التركية ، وجاءتهم الرسل تخلّطهم وتدعوهم للهدوء وتذكر لهم أن دخول الفرنسيين كان بأمر من الباي ، وأن مخالفته تعتبر خروجاً عن حدود الشرع ، فلم تؤثر هذه الدعايات إلا في الأحياء المالية للهدوء بطبيعتها ، وأعلن بقية العروش أنهم سيقاومون للدخلاء وأعوان الباي معاً وأن هذا الباي لاسلطة له عليهم وأنه كافر خارج عن حدود الشرع لأنه سمح (ببيع بلاده للنصارى) .

واجتمعت في أرض (الجفارة) ، بأقصى الجنوب عروش الهمامة قادمين من الشمال بقيادة الشيخ سديرة^(١) وأولاد يعقوب بقيادة الشيخ محمد (بالفتح) بوغلاق^(٢) ، ونفات بقيادة الشيخ علي بن خليفة^(٣) وفريق من

(١) والد البشير بن سديرة الذي ثار على السلط الفرنسية إثر الحرب العالمية الأولى وألقى راحتها وعمل فيها الأناعيل فاضطرت إلى أن ترسل إليه أحد الخونة يدعى (بلقاسم الأقرع) فالتحق به في الجبال راعماً أنه ثائر مثله وصاحبه مدة حتى تمكن منه يوماً فقتله غدراً وهو نائم وفر إلى قفصة حيث قبض جائزته من أسياده . بيته أبناء عم البشير التتيل ودخلوا عليه ليلة في مقهى وهو يلعب الورق فأردوه قتيلاً بالرصاص وكانت جماعة من الهمامة رحالا ونساء حترقة في الشوارع فلم يكذب يموت هدوم (الأقرع) حتى أطلق الرحال العيارات النارية في الشوارع وانطلقت زغاريد النساء تشق سكون الليل فأغلقت الأبواب وبانت قصعة في ليلة يسودها الخوف والرعب ومن الند أتى القنص هل جماعة كبيرة من الهمامة ومات بعضهم في السحن وصدرت عن البعض الآخر أحكام محتلمة .

(٢) زعيم أولاد يعقوب سكان (نقة) بنمزاوة وقد تزوج من بنت الشيخ علي بن خليفة السفاقي بطرابلس فأنجحت له ولده الصغير (بلقاسم) الذي لايرال على قيد الحياة وكان أبه الأكبر عبد الرحمان من أعلام فرسان الجهة .

(٣) بقى في طرابلس مبعلا مكرماً من طرف السلطة التركية إلى أن مات ودفن هناك ولما استقرت الحالة بتونس ويطس من مجاح المقاومة رجع ابن أحميه المرحوم الحاج محمد بن حليلة =

عرب مدينين بقيادة منصور الهوش^(١)، وجماعات من بنى يزيد والحمارنة والمرازيق وتطاوين وبنقردان ، الخ .

وفى أثناء حصار صفاقس من طرف القوات الفرنسية مر بقابس عرش نفات فانضم إليه من أطرافها بعض الأعراب ودخلت هذه الأحياء أرض طرابلس تراقب الحالة حتى احتلت القوات الفرنسية جبال مطماطة الثائرة وتمكنت من الثبات فى مراكز مختلفة من الجنوب وهدأت الحالة فلم ير بعض العروش فائدة من بقائها بطرابلس خصوصا وقد أهملت تركيا إعانتهم وأشارت عليهم بالرجوع إلى بلدانهم فرجعت مستسلمة للقضاء ولم يبق بطرابلس إلا الشيخ على بن خليفة فى جماعة من عرش نفات ومنصور الهوش فارس مدينين وجماعات قليلة من الذين أنفوا الرجوع إلى بلدانهم حتى لا يصبحوا تحت سلطة النصارى الأجانب .

مقاومة مطماطه :

حملت جبال مطماطة لواء المقاومة للاحتلال وحاولت الجيوش الفرنسية احتلالها بالقوة ففشلت لوعورة الجبال وضيق مسالكها واختفاء المقاومين خلف صخورها فاكتفى الفرنسيون بحصارها وقطع الإمداد عنها من الخارج ، وكان مستشار الفرنسيين وصاحب رأيهم فى هذه الجهة رجلا يدعى (يوسف اليقرو) يقال إنه من أصل جزائرى ، فكان يقول لهم « سيأتى يوم تحتلون فيه مطماطة دون أن تحسروا قتيلا » وجاء اليوم

« لولده ، فاستقبلته السلطة الفرنسية بفرح وعيئته عاملا انتقل بين عدة أعمال منها (قابس) كما عينت ابنه الصادق عاملا على صفر سنه وتقلد كثير من عائلته هذه الخطة بعد ذلك .

(١) من أعلام فرسان الجنوب المغاوير وشعرائهم النبلاء ولا تزال قصائده فى الشعر الملحون سمر أهالى الجنوب وأكثر شعره فى الحماسيات ، وأروعها فى تحريض السكان على مقاومة الفرنسيين وتوبيخهم على طاعة النصارى ، مات بأرض طرابلس غربيا رحمة الله عليه .

المنتظر متمثلاً في مطر غزير نزل على الجهة فأمرهم (الليقرو) بالهجوم لأن سلاح السكان العتيق إذا أصابه الماء فسد ولم ينطلق .

وهجم الجيش الفرنسي على منافذ الجبل وحاول الأهالي إطلاق الرصاص فوجدوا أنفسهم كمن يحمل عصا في يده لا بندقية فاستسلموا للفرنسيين وقلوبهم تنمطر غيظاً وألماً وكانت جائزة يوسف الليقرو تقليده عمل الأعراض طول حياته .

وبعد هذه البسطة عن احتلال الجنوب نستطيع أن نرجع إلى قابس وعمالها في هذه الفترة فقد تداول على الأعراض عدة عمال أولهم فيما نعلم إثر انتصاب الحماية .

١ - يوسف الليقرو :

وقد ذكرنا أن الفرنسيين ولّوه قابس نتيجة أعانته لهم على احتلال مطماطة ولكن الله عاقب هذا الرجل فطمس بصره ، ورغم ذلك فقد أبقاه الفرنسيون في وظيفته وهو أعمى إلى أن مات .

ومن عمال هذا العهد :

٢ - الحاج محمد بن خليفة :

وقد كان رجلاً شهماً قوى الشكيمة لم يستطع الفرنسيون فرض سياستهم عليه إلا بالحيله واللين واعتنام جهله وسذاجته ، وطالما تورطوا معه في خصومات عنيفة لا يقابلونها إلا بغض الطرف والتظاهر بمساندته وقصة ضربه لأحد المراقبين المدنيين مشهورة ، وكان صاحب مبرات كثيرة من أشهرها تأسيسه للجمعية الخيرية الإسلامية بتونس ، وقد أوقف عليها من أرزاقه ما بقي عوناً لها على كفالة الأيتام والمحتاجين .

٣ - عبد العزيز الجابولي :

أحد الوزراء السابقين ورئيس جمعية الهلال الأحمر التونسي اليوم .

٤ - صولته بن عبد اللطيف :

وكان آخر عمالها في عهد الحماية .

٥ - رحومة بن الهسيبة العطري :

وفي هذا العهد كان النظام الإداري في قابس يتركز على مراقب ما
'فرنسي بيده السلطة الحقيقية وعامل تونسي يصرف الشؤون في الظاهر ، و
جانبا هذا أحدث بها مركز عسكري من أهم المراكز يسيطر
كامل الجنوب .

- ٦ -

عهد الاستقلال

وقد تداول على قابس في الفترة التي مضت من عهد الاستقلال
الداخلي (٣ جوان ١٩٥٥) والنام (٢٠ مارس ١٩٥٦) إلى اليوم
(جانفي ١٩٦٢) عامل واحد وثلاثة ولايات ومعتمد مكلف بالولاية فكما
أولهم السيد :

١ - الهادي المبروك :

كان أول عامل حسب النظام القديم في عهد الاستقلال .
وتغير نظام العمال في هذا العهد فكان لكل ولاية وال يحمل محل العامل
والمراقب المدني في نظام الحماية وأول من جاء ولاية قابس في العهد
المذكور السيد .

٢- محمد الحبيب :

الذي غادر في عهده الفرنسيين الجهة نهائيا ، وعقبه على الولاية
السادة :

٣- محمد بن الأحمين .

٤- يوسف الجري :

(معتمد مكلف بالولاية) .

٥- أحمد بن اللوة :

الوالي الحالي (١٩٦٢) .

وقد حققت قابس في هذا العهد تطورا عظيما وسريعا في جميع الشؤون
الاجتماعية والتعليمية والصحية والزراعية الخ : شأن بقية بلدن الجمهورية
التونسية التي شملها تطور عارم بفضل جهود رجال جمهوريتنا الفتية ، حقق
الله فيها الآمال وأعان مسيرها على ما يبذلون من جلائل الأعمال :

الباب السادس
اعلام قابس

الفصل الأول

أعلام محليون

ظهر بهذه المدينة - في مختلف العصور - رجال أعلام في السياسة والعلم والقضاء والزهد وغير ذلك بحيث لم يخل عصر من عصورها من وجود قليل أو كثير مهم شأن بقية العواصم العامرة في العالم ، وقد تعرضنا سابقا لبعض سياسيينها من ولاة وأمراء ، وخصصنا هذا الباب لأهل العلم والقضاء والزهد ممن نبه اسمه وسجلته الكتب التاريخية مما يكون أحسن رد على العبدري الذي يقول في رحلته المشهورة عن قابس^(١) « وأما العلم عندهم فقد ركدت ربحه ، والجهل عندهم لا يوسى جريحه » .

وتقتصر التراجم على قدماء الرجال طلبا للاختصار إذ لو أردنا الكتابة عن رجال قابس الأحياء لاحتجنا إلى مؤلف آخر أضخم من هذا فقد أنجبت قابس في العصر الحديث من رجال العلم في مختلف فروعه والقضاء والمحاماة والسياسة والاقتصاد جماعة كان لهم أثر لا ينكر في تطور الحياة التونسية الحديثة .

وقسمنا هذا الباب على فصلين ذكرنا في الأول الرجال المحليين الذين ولدوا بها واتخذوها سكنا أو كان أصلهم منها ، وعاشوا خارجها - محتفظين بنسبتهم لبلدهم ، وذكرنا في الثاني الرجال العابرين الذين نزلوها زمانا محدودا ثم غادروها وكان لهم اتصال أدبي أو علمي أو سياسي بها أو بأحداتها ، وعلى سبيل التبرك نبتدئ بعلمها الأول الذي استمدت تربتها من نفحاته القلسية قداسة ، وبركة الصحابي الجليل .

(١) رحلة العبدري (مخطوطة) ص ٨٦ - ٢٨٦ في حديثه عن قابس .

أبو لبابة الأنصاري رضى الله عنه

يشك بعض المؤرخين في دفن أبي لبابة بمدينة قابس وربما أنكر بعضهم وجوده هناك ، وزعموا أن ما يرويه أهل قابس بطريق التواتر عن أجدادهم من دفن جثة الصحابي أبي لبابة بمدينةنتهم لا يستند إلى دليل تاريخي وهم يعللون هذا الشك أو الإنكار بأمرين :

١ - أنه لم يذكره ولم يشر إليه من قدماء المؤرخين أحد في القرون الإسلامية الأولى بحيث لا نجد الإشارة إلى وجود أبي لبابة بقابس إلا عند من كتبوا في القرن السابع تقريبا وما بعده .

٢ - أن هؤلاء المؤرخين القدماء يصرحون بأنه لم يدفن صحابي في إفريقية غير أبي زمعة البلوي بالقيروان .

وممن تعرض إلى ذكره في النصف الأول من القرن السابع أبو المطرف ابن عميرة قاضي قابس في إحدى رسائله التي وصف فيها قابس منها « وبالجملة فهو تام الغرابة مدهام الغابة مستأثر بسيد من سادات الصحابة » والعبدي في أواخر القرن السابع في رحلته قال « وبها قبر أبي لبابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه مسجد وهو منه في بيت مغلق » .

والتجاني في أول القرن الثامن شارحا قول أبي المطرف السابق « أشار أبو المطرف بقوله في الرسالة ... مستأثر بسيد من سادات الصحابة إلى ما يذكره أهل قابس أن أبا لبابة الأنصاري مدفون ببلدهم وقبره عندهم مزار مشهور . وبقابس مسجد ينسبونه إليه ولم أر أحداً من المؤرخين عد أبا لبابة ممن دخل إفريقية من الصحابة الخ (١) » .

وقد أجاب عن الأمر الأول من الأمرين اللذين جلنا الشك للمؤرخين التجاني نفسه بقوله^(١) « لعله إن ثبت أن قبره هناك من أغفل المؤرخون ذكره » وكم أغفل المؤرخون من أسماء وأحداث . كما أجاب عنه ابن ناجي القيرواني بقوله^(٢) . « لما وليت قضاء قابس وجدتهم يزورون قبراً في بيت نظيف داخل مسجد خارج عن البلد من غربها (؟) يسمى مسجد أبي لبابة وفي الحائط عند رأس القبر لوح مكتوب فيه . هذا قبر أبي لبابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ، وجميع من بقابس وسائر عمالها يقولون ذلك وينقلونه نقلاً متواتراً حرهم وعبيدهم ، ويعدده الناس كثيراً ويقوم بذلك المكان رجل يصح له من معدات^(٣) الناس ما يكفيه هو وعياله برفاهية فقلت لهم إن المؤرخين قالوا لم يدفن بإفريقية من الصحابة غير أبي زمعة بالقيروان فقالوا ما رأينا أحداً تردد فيما ذكرناه لك ، ثم لما وصات إلى تونس بعد ذلك سألت عن ذلك شيخنا أبا الفضل أبا القاسم الرزلي فقال لي . لما حججت زرت قبره ونقلهم فيه متواتراً ذكره المؤرخون إنما هو فيما عاينوه وذلك يدل على أن غيرهم علم خلاف ما لم يعلموه فالعمل على ما ذكره أهل قابس ولا قادح يقدر في نقلهم »

وأيد ابن ناجي العياشي في رحلته فقال^(٤) « كنت ربما لحقني فتور في العزم على زيارة (أبي لبابة) استبعاداً (لوجوده هناك) دون أن يكون منصوباً عليه ، فلما رأيت ما في (معالم الإيمان) زال ما في قلبي من ذلك وقويت نيتي في زيارته رضي الله عنه » .

وسألت أستاذنا حسن حسبي عبد الوهاب عن زعم المؤرخين بأنه

(١) نفس المصدر والصحة .

(٢) معالم الإيمان ج ١ ص ١٠ - ١١ .

(٣) المعدات هي التذود والصنقات التي يقدمها الراترون للأولياء والصالحين .

(٤) رحلة العياشي ج ٢ (مخطوط) .

لم يدفن بإفريقية غير أبي زمعة البلوى فقال « إن هذا الرعم مبنى على أنه لم يبلغ لعلمهم إلا من ذكروه وليس ذلك مجزم مبنى على تحقيق علمي لأن الواقع أن إفريقية كانت مدفنا للجماعة من الصحابة منهم أبو لبابة ، وقد جمعت أسماء نحو اثني عشر من الصحابة المدفونين بإفريقية غابوا عن ذاكرتي ولعل أعر على الأوراق التي كنت قيدت بها أسماءهم في يوم من الأيام^(١) ، ومن بين هؤلاء معبد بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما الذى استشهد بإفريقية في خلافة عثمان رضى الله عنه ، فإذا قال بعض المؤرخين أنه لم يدفن بإفريقية غير أبي زمعة فيجب أن نضيف إليها جملة (فن بلغ إلى علمهم) ومن الذين لم يبلغ إلى علمهم ولم يذكره معبد بن العباس الذى ذكره مؤرخون آخرون كالبلاذرى في (فتوح البلدان) وابن عبد البر في (الاستيعاب) ومن لم يبلغ إلى علمهم أيضا أبو لبابة الذى تواترت به أخبار أهل قابس من أقدم عصورهم وعنهم نقل مؤرخو القرن السابع وما بعده .

وزيد أستاذنا شرحا لهذا الموضوع فيقول :

« إن تاريخ هذه الفترة - فترة الفتوح - لا يزال عامضا جدا لأن المؤرخين اقتصرُوا على ذكر الغزوات الكبيرة وأهملوا ذكر السرايا التي كان المركز الإسلامى يبعثها للاستكشاف والفتح فقد كانت هذه السرايا تتوالى سنويا تقريبا على إفريقية فتصل إلى قابس وجهات نفاوة وقفصة والجريد وتعمق أحيانا في تراب إفريقية فتصل إلى الدواخل ، ولا ننسى أيضا الحاميات التي كانت تتركها الجيوش الكبرى خلفها مستندة إلى صلح مع بعض الجهات أو القبائل بحيث نعتقد أن إفريقية لم تخل من المسلمين منذ

(١) بعد تحرير هذا لم يشر الأستاذ عليها .

الغزوة الأولى سنة ٢٧ هـ فكان يموت من بعض هذه الحاميات أو السرايا رجال يحنى أمرهم على المؤرخين الذين جاءوا بعد هذا العصر .

فنحن نعرف متلا أن المسلمين في الغزوة الأولى لما قتلوا جرجير بسببلة تركوا على إفريقية واليا يزنطيا من قبلهم أعطاهم الطاعة وأخلص لهم ، فلما جاءت النجدة البيزنطية لإفريقية ورأى نفسه عاجرا عن مقاومة البيزنطيين . وتأخرت النجدة الإسلامية التي طلبها ، سافر بنفسه إلى مقر الخلافة بدمشق . وقابل الخليفة ومات هذا الوالي البيزنطى في الإسكندرية أثناء رجوعه^(١) . وعرفنا من ذلك أن نتيجة الغزوة الأولى لم تكن مجرد صلح على مال ولكن النتيجة كانت قبص مبلغ من المال ونصب الحماية الإسلامية على إفريقية . ولا شك أن الحماية هذه حولت لبعض الحاميات الإسلامية البقاء في إفريقية .

ويختتم أستاذنا حديثه لى بقوله : « إلا إنه لا أمل لنا من كشف غموض هذه الفترة من التاريخ إلا إذا ساعدنا الحظ على الاكتشاف بعض الرسائل التي كان يتبادلها قواد الجيوش و رؤساء الحاميات مع رؤسائهم في طرابلس ومصر وكانت هذه الرسائل تكتب على البردى » .

وعلى هذا يكون معبد بن العباس الذى استشهد بإفريقية والذى يقول عنه البلاذرى إنه استشهد (فى غزوة ابن أبى سرح فى خلافة عثمان)^(٢) . ويقول ابن عبد البر^(٣) إنه « قتل بإفريقية شهيدا سنة ٣٥ هـ فى زمن عثمان وكان

(١) يشير الأستاذ هنا إلى ما جاء فى الكامل لابن الأثير ح ٣ ص ٤٦ .^١ « وكان قد قام بأمر إفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم فطرده البطريق - « المرسل » من القسطنطينية » - بعد فتن كثيرة فسار إلى الشام وبه معاوية وقد استقر له الأمر معه قتل على بوصف له إفريقية وطلب أن يرسل معه جيشاً فسير معه معاوية بن أن سعيان معاوية بن حديج السكونى فلما وصلوا إلى الإسكندرية هلك الرومى ومضى ابن حديج فوصل إلى إفريقية وهى فار تصطرم وكان معه عسكر عظيم فنزل عند قموية الح » .

(٢) نتوح البلدان ص ٢٣٠ ، ط مصر .

غزاها مع ابن أبي سرح»^(١). يكون قد جاء لإفريقية مع ابن أبي سرح وبقى في إحدى الحاميات بعد رجوع الجيش للشرق واستشهد في إحدى السرايا سنة ٣٥ هـ إن صدقنا أن هذه هي سنة وفاته، وكانت وردت نجدات مع ابن حديج في هذه السنة أو التي قبلها في غزوة ابن حديج الأولى .

أما إذا ملنا إلى إهمال هذا التحديد لسنة الوفاة وفرضنا أنه استشهد أثناء العزوة التي دامت من أواخر ٢٧ هـ إلى أوائل ٢٩ هـ فيكون معبد قد مات في إحدى السرايا التي كان يبعثها ابن أبي سرح إلى الجهات . قال البلاذري^(٢) « وبث ابن أبي سرح السرايا ففرقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه » .

قلت ، وما دام قد صحح أن جماعة من الصحابة قد ماتوا ودهوا بإفريقية وأغفل ذكرهم المؤرخون القدماء لعدم بلوغ العلم بهم إليهم ، فلا يعد أن يكون ما يزرعه أهل الجنوب الشرقي - مدنين وجرجيس وبنقردان وجربة - من وجود قبور للصحابة في جهتهم صحيحا أيضا فهم يروون بالتواتر عن أجدادهم أن سبعة من الصحابة قد استشهدوا ودفنوا بمكان يسمى إلى اليوم (جرف الصحابة) بأرض تسمى أرض (الغرابيات) وتبعد عن مدنين نحو ٢٥ كم على طريق جرجيس ، وإذا صح وجود قبور للصحابة هناك فيكونون من بين من استشهد في الغزوات الأولى التي كانت تترادف وتتوالى على إفريقية من طرابلس .

(١) الاستيعاب في أسماء الأصحاب المطبوع مع الإصابة في أسماء الصحابة ح ٣ ص ٤٣٦ ، ط مصر وهو معبد بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي ، يكنى أبا العباس ، ولد على عهد رسول الله عليه وسلم ولم يحفظ عنه ، وأمه لثاء بنت الحارث أخت ميمونة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وهي أم أخوته الفضل ، وعبد الله ، وعبد الله ، وقثم ، وعبد الرحمن ، وأم حنيفة ، أبناء العباس بن عبد المطلب رضى الله عن جميعهم .

(٢) فتوح البلدان ص ٢٢٨

صه هو أبو لبابة^(١) :

اسمه بشير وقيل رفاعه بن عبد المنذر بن زر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن الأوس من قبيلة الأوس سكان المدينة المنورة أسلم ليلة العقبة بمكة المكرمة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وكان أحد النقباء الذين سماهم النبي ليلة العقبة وحضر معه غالب الغزوات منها غزوة بدر ، وقيل بل أمره النبي على المدينة في هذه الغزوة وضرب له بسهم مع المجاهدين ، وحضر معه فتح مكة وكان يحمل راية قومه بنى عمرو بن عوف وأخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا من الأحاديث وحدث بها ، روى عنه ولداه السائب وعبد الرحمان ، وعبد الله بن عمر ، وولده سالم بن عبد الله ومولاه نافع وعبد الله بن كعب بن مالك .

ذنب وتوبة :

وفي غزوة تبوك تخلف أبو لبابة عن الرحيل مع الجيش بعدد قبله النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقبله الله لأن أبا لبابة كان قادرا على الخروج مع الجيش فنزلت الآية في المخلفين فندم أبو لبابة ندما عظيما ربط من أجله نفسه في سارية بمسجد المدينة وأقسم أن لا يبرح المكان حتى يتوب الله عليه ، ورحمهم الله فنزلت آية توبتهم (وآخرون اعترفوا بدنوبهم خاطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، الآية) فلم يبرح أبو لبابة المكان حتى جاءه النبي وحل رباطه بيده . وقيل إن ذنبه هو إشارته إلى حلقه حين استشاره حلفاؤه من يهود قريظة في أمر نزولهم على حكم سعد بن معاذ في غزوة بنى قريظة بعد ما أضر بهم الحصار ، أى أن ما لكم الذبح إن نزلتم على حكمه ، فنزلت فيه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تحونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم .. الآية) .

(١) انظر عنه الإصابة ح ٤ ص ١٦٧ ، والإستيعاب المطبوع مع الإصانة في نفس.

ويرجح المؤرخون أن ذنب أبي لبابة هو ما ذكرناه أولاً وهو تخلفه عن غزوة تبوك وكانت نتيجة قبول توبته أن أعلن أمام النبي صلى الله عليه وسلم (أن من توبتي أن أهجّر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى كله صدقة إلى الله ورسوله) فقال له النبي (بجزئك يا أبا لبابة - الثلث) أى تصدق بثلاث مائة فقط ويبقى الثلثان لأهلك .

ووفى أبو لبابة بندره فلأزم الغزو والجهاد مع المسلمين في مختلف البلدان حتى مات رضى الله عنه سنة ٤٠ هـ ، في خلافة علي بن أبي طالب ، وقيل عاش إلى ما بعد سنة ٥٠ هـ والمعول على القول الأول فهى الرواية المتواترة عند مؤرخى الصحابة . والظاهر أن أبا لبابة وأمثاله من المخلصين لله ولدينه والمنقطعين للجهاد لم يدخلوا في الخلاف الذى حدث بين علي ومعاوية بل لازموا الجهاد في سنوات الفتنة والرباط في مسالحي المسلمين أمام العدو دون أن يأهبوا لما يقع وراءهم أو يشاركوا بالقول أو بالفعل ، وكان ذلك الموقف من أبي لبابة إتماماً لتوبته النصوح ٥

أين مات أبو لبابة ؟

هنا يمسك المؤرخون عن الجواب مكتفين بقولهم إنه مات سنة ٤٠ هـ في خلافة علي بن أبي طالب ولم يتعرضوا بكلمة إلى مكان وفاته وهل مات شهيداً أو على فراشه ؟ وفي أية جهة ؟ وفي أى مكان ؟ على أننا وجدنا الجواب - إن شاء الله - عند أهل قابس الدين عرفوا قبر أبي لبابة من من قديم - وروا خبره كإبراهيم عن كابر ، وبنوا عليه مسجداً ومزاراً مشهوراً جدد عدة مرات وذكر مؤرخو القرن السابع أنه كان عليه مسجد وأن مزاره مشهور في تلك الجهة تلمس عنده البركة والدعاء الصالح .

بني الأمر الوحيد الذى لا نعلمه هو متى عرف أهل قابس قبره وجعلوا

منه مزارا ؟ وهل إن رواية وجوده تتصل بأهل القرن الأول أو اشتهرت
يعد ذلك ؟ هذا ما لا يمكن الوصول إليه .

ويحدد أهل قابس المكان الذى مات فيه أبو لبابة فيذكرون أنه مات
(بوادى الغيران) غربى (كنانة) على بعد نحو ١٨ كم من قابس ، ونقلت
جثته إلى حيث ضريحه الآن ، وهذا لا يستغرب حدوثه فقد يموت الإنسان
في مكان ويدفن في آخر كما وقع لأبي زمعة البلوى رضى الله عنه فقد مات
في (جلولا) ونقلت جثته إلى القيروان ، ولكن أهل قابس لا يذكرون
لنا هل مات أبو لبابة شهيدا ؟ أو مريضا ؟ .

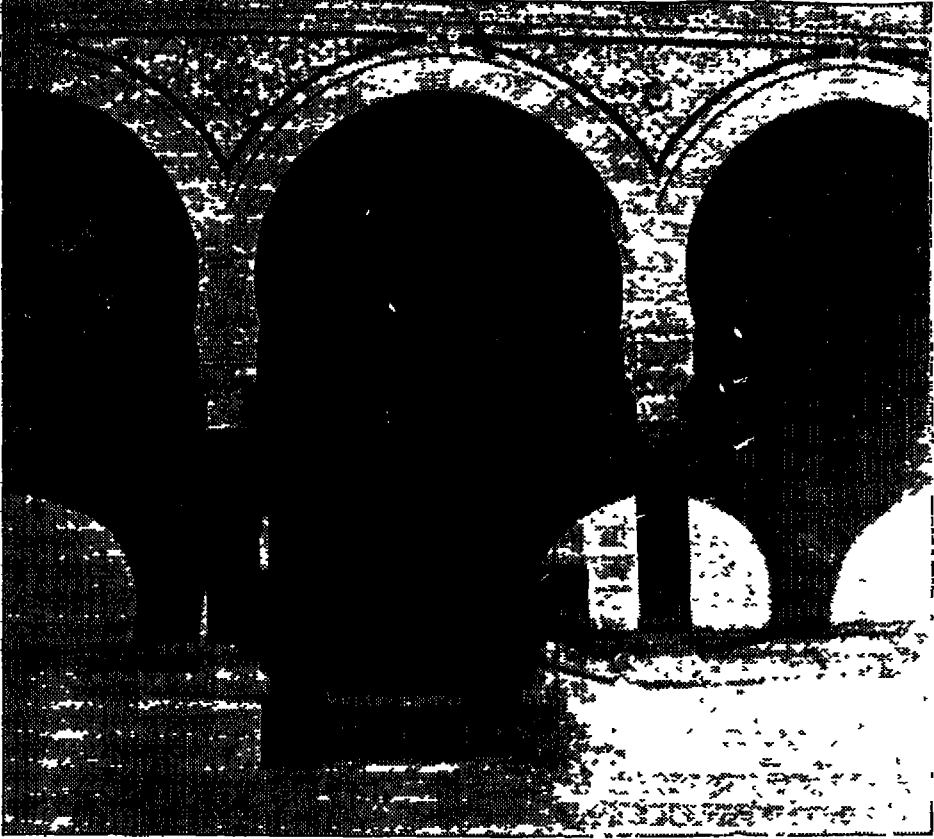
وعلى كل فالراجح عندي أن أبا لبابة قدم لإفريقية في إحدى السرايا
التي كانت تتوارد إلى إفريقية ، بصفة مستمرة ، والظاهر أن قابس كانت
مفلوحة سنة ٤٠ هـ ، وأن المسلمين الذين كانوا بها هم الذين نقلوا جثته
إلى قابس على فرض موته بـ (وادى الغيران) وهم الذين جعلوا قبره
مزارا وتبعهم من بعدهم من المسلمين وبذلك حصل التواتر الذى تحدث
عنه مؤرخو القرن السابع وما بعده .

الضريح :

يقع ضريح أبي لبابة على ربوة تطل على قرية المنزل من الجنوب ،
وهـ بالنسبة للمدينة في الجنوب الغربي .

وقد كما أثبتنا وصف ابن ناحي لهذا الضريح في أول القرن التاسع كما
ذكرنا أن الدين كتبوا عنه في القرن السابع قالوا إنه كان عليه مسجد ،
ومما لاشك فيه أن هذا البناء قد جدد مرات آخرها التجديد الذى أجراه
حمودة باشا المرادى الذى بنى الضريح من أساسه بصفة لائقة لم يضيف إليه
شئ بعده إلا البرطال الموجود الآن أمام الضريح فهو من بناء جمعية
الأوقاف كما سيأتى .

وقد وُصف العياشي الضريح في القرن الحادي عشر بالعظمة حيث قال ،
 « وقد بنى عليه أمير تونس حمودة بنيانا عظيما أثابه الله على قصده الجميل » (١) .
 وردد هذه العبارة نفسها الورثاني الذي زاره في أواخر القرن الثاني عشر .



واجهة ضريح أبي لبابة .

والضريح الآن عبارة عن مسجد بسقفة قبة يفتح للشرق ، وأمام مدخل
 المسجد برطال يرتكز على شطر من السواري والأقواس حسبما تراه
 في الصورة .

(١) رحله العياشي ج ٢ (مخطوط) .

وهذا البرطال من بناء جمعية الأوقاف .

وفى واجهته العليا عثرنا على كتابة أسدها الجير استطعنا أن نقرأ منها
« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويلزائها اسم
البناء الذى تولى بناء البرطال حسب الظن (وهو عمر بن حسن بن الطيب
التونسى سنة ١٢٩١ هـ) ، وعلى يمين الداخل للمسجد يوجد بيت يصعد
لمدخله بدرجتين - وبالبيت التابوت الموصوع فوق القبر ، وعند رأس
التابوت رخامة مكتوب فيها ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد » .

« هذا مسجد أنى لبابة صاحب رسول »

« الله صلى الله عليه وسلم واسمه رفاعة »

« وبشير ، هكذا سماه مسلم وأبو القاسم »

« البغوى ، وهو أنصارى أوسى »

« بدرى ، عقى ، وقبره فى هذا البيت »

« غفر الله لمن كتب ولمن قرأ »

« تاريخه لى ٤٠ »

وكلمة التاريخ (لى) أى اللام والباء بحساب (الأبيجدى) المعروف ،

فاللام (٣٠) والباء (١٠) الجملة (٤٠) وهى ستة وفاته رضى الله عنه .

ولا تزال الحالة على ما وصفها ابن ناجى من وجود شيخ يتلقى النور
والوعدات ومنها يعيش ، وبجانب الضريح من الجهة الشمالية مدرسة لطلبة
القرآن بناها محمد باى المرادى تشتمل على عدة بيوت لسكنى الطلبة
لا تزال شاهدة على أنها فى حاجة إلى الإصلاح والترميم ، وقد زارها الوريثان
أواخر القرن الثانى عشر فقال عنها : « ويلزاء الضريح مدرسة بناها محمد
باى فى غاية الجودة والإتقان والحسن . . وجعل لهذه المدرسة أحباسا

ورتب فيها عشرين طالبا يعطى كل واحد منهم ريالاً على رأس كل شهر واستأجر فقيها يعلمهم ويصلى الصلوات الخمس بالمسجد المذكور (مسجد أبي لبابة) إماماً به . فالله تعالى يرحمه ويعفو عنه (١) .

مدائح وتوسلات :

نقل التجاني عن كتاب (متهى السؤل ، فى امتداح الرسول) ، لأبي الحكم الحسن بن عبد الرحمان بن عنبرة قصيدة لأبي المطرف بن عميرة ، وقد انصرف من قبر أبي لبابة جاء فيها (٢) :

وجنى القطيعة ما أمر مذاقه	حبر الأحبة ما ألد مساقه
سبقت بناطق حالها استنطاقه	وهوى القلوب لها عليها شواهد
فتهيج من كلف بها أشواقه	أى (٣) المنارل إن ذكرت عهدا
والصدر رقرق دمه وأراقه	يعتاده منها جوى بين الحشا
راق (٤) إذا مد الظلام رواقه	وبيت منها كالسليم وماله
قبل النوى فالآن كيف أطاقه	حمل الغرام وما أستقل لحمه
لم تاله بلحماها إغراقه	ورمت به الأقدار كل تنوفة
أشهى لنا أن لا نسلم (٥) فراقه	قبر (٥) تشاكيئا الفراق لديه والـ
يلقى بها طعم النوى من ذاقه	وموارد حملت أجنة آجن
أفصى إليه مع الصدى إخفاقه	خفق الجوانح دونه ويرد من
بالصبر حتى مزقت (٧) أخلاقه	مازلت أقطعها مهامه لم تنزل

(١) انظر نزهة الأنظار ص ١٢٨ - ١٢٩ - ٦٥٥ .

(٢) عن الرحلة ص ٩٢ ، والحلل السنعية ص ١٥١ .

(٣) عن الحلل ، وفى التجاني : وأى .

(٤) عن الحلل ، وفى التجاني : أرق .

(٥) عن التجاني ، وفى الحلل : قمر .

(٦) عن التجاني ، وفى الحلل . أن نستديم .

(٧) عن التجاني ، وفى الحلل : خرفت .

حتى وقفت وما أفقت بمنزل
وقبست من شوقى (لقابس) جنوة
من بلدة فى العين أظلم جوها
قد كان منظرها يروق بعين من
لكن (بقبر أبى لبابة) لى هوى
أمل بنفسى لو ظفرت بتربه
وتمثل القبر الكريم بمقلتى
فوثاق ذنبى أرتجى لفكاكه
صلى الإله على النبى محمد
وعلى صحابته وعترته التى
وقضى لنا من بطئنا فى سيرنا

وقال الورثلاثى فى رحلته : أنشدنا لنفسه صهرنا أبو العباس البرنسى

الشفشاونى :

نزلنا بقابس فشفينا فيه
وزرنا به ضريح إمام بر
هو البحر المعين لواردية
وأيقنا بنيل القصد حقا
أنلنايا إلهى كل خير
وعاملنا فإننا قد أسأنا
وامددنا بوافر م العطايا(٢)
ونور قابنا واملأه حبا

غليل القلب من شوق أصابه
وبجر فى السخاء (أبى لبابه)
فرد ماشئت من بحر الصحابه
وصدقنا بإسراع الإجابة
وإحسان وزودنا الإنايه
بفضل لا تغلق عنا بابيه
أدر علينا من در السحابه
وحبا وتزل عنا حجابيه

(١) عن التجانى ، وفى الحلال : إحدائه .

(٢) يشير إلى حادثة ربط أبى لبابة نفسه بسارية المسجد وفك النبى لوثاقه . وجاء هذا

الشرط فى الحلال هكذا (عن إفك قول العالمين وثاقه) وهو تصحيف طاهر .

الإمام أبو الحسن القاسمي^(٢)

هو الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بالقاسمي أو ابن القاسمي وهو وأبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني صاحب (الرسالة) المشهورة في الفقه ، وسيدي محرز بن خلف ، صالح تونس وقطب أولياها ، أبناء خالات ، والمعافري يطن ابن ناجي إذا صح أنه قاسمي ، نسبة إلى قرية المعافرين جوار مدينة قابس .

وقد اختلف في أصل بلده ، ففي نكت الهميان^(٣) « قال أبو بكر الصقلي ، قال أبو الحسن القاسمي كلب عليّ وعليك فسموني القاسمي ، وما أنا قاسيا ، وأنت دخل أبوك مسافرا إلى صقلية فنسب إليها » . وذكر عياض في (المدارك) إنه قيرواني البلد — وكلمة القاسمي أطلقها أهل القيروان على عائلته معللا ذلك بأن (عمه كان يشد عمامته بشد أهل قابس) وعلق ابن ناجي في المعالم على هذا التعليل بقوله : بل فيه نظر ، وذلك أن قولهم ابن القاسمي يقتضي أن والده كان من أهل قابس أتى للقيروان وتزوج بها وولد أولاده فيها أو أنه أتى به صغيرا . ثم ساق ابن ناجي حكاية (قرية المعافرين) التي مر ذكرها في الباب الثالث من هذا الكتاب . ولعل ابن ناجي على صواب بالرغم من إنكار أبي الحسن نفسه لهذه النسبة إن صححت رواية (نكت الهميان) ويمكن تعليل هذا الإنكار بأن أبا الحسن ولد بالقيروان ووجد عائلته في القيروان وأن نسبتهم إلى قابس بعيدة ، إذ لا يعقل أن ينسب إلى قابس

(١) أصلها . من العطايا ، فحلفت نون (من) وهو جائز في الشعر ، على أن المقطوع كله بهلhel ظاهر التكلف وهو من نوع ما يسميه الأدباء بشعر الفقهاء .

(٢) انظر عنه المدارك لعياض (مخطوط) ، ومعالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٨

(٣) ص ٢١٨ .

لمجرد تكوير عمه لعمامته على هيئة العمامة القابسية كما علل ذلك عياض ،
وعلى كل فلا نرى بأسا من ذكره في أعلام قابس ما دام منسوبا إليها .

حياته :

ولد الإمام أبو الحسن بالقيروان سنة ٣٢٤ هـ (١) ، وكان ضريرا .
قبيل ولد أعمى وقيل بل عمى في صغره ، وبهمهم من روايات بعضهم إنه عمى
في كبره وعلى كل فالمعروف إنه كان أعمى لا يرى شيئا . وقرأ بإفريقية على
مشاهير علماء ذلك العصر في الفقه والحديث والتفسير والعلوم العربية والقراءات
وعبرها ورحل إلى الشرق سنة ٣٥٢ هـ وحج سنة ٣٥٣ هـ ، وسمع بمكة وبمصر
من أعلام الحديث والفقه العربية في تلك البلدان حتى ملأ وطابه وعاد للقيروان
سنة ٣٥٧ هـ ، وشمر للدرس والتعليم والتأليف والعبادة - فتخرج على يديه
علماء أعلام مثل أبي عمران الفاسي وأبي القاسم الليدي وأبي عبد الله المالكي
وأبي علي بن حلدون وابن الكاتب وابن مناس وأبي عمرو الداني وغيرهم واشتغل
في آخر عمره بالعبادة والتهجد وزيارة الأولياء والرباطات وتوفي بالقيروان
في ٣ ربيع الثاني سنة ٤٠٣ هـ ، ودفن بمقبرته المعروفة عند باب تونس ، وقد
ألقيت عند قبره بعد وفاته نحو المائة من المراتي واجتمع في جنازته خلق
لا يحصى ولازم بعض تلاميذه قبره ليل نهار نحو سنة بعد وفاته .

علمه وزهده :

نقل ابن ناجي أنه كان « عالما عاملا جمع العلم والعبادة والورع والزهد
والإشفاق والحشية ورقة القلب ونزاهة النفس ومحبة الفقراء حافظا لكتاب
الله ومعانيه وأحكامه حافظا للسنة عالما بعلوم الحديث والفقه واختلاف

(١) مجلة (الجامعة) التونسية عدد ٥ نوفمبر ١٩٣٧ ، مقال لأستاذنا

ح . ح . عبد الوهاب .

الناس سلم له أهل عصره ونظراؤه في العلم والدين والفضل ، كثير الصيام
والتهجد بالليل .

روى أنه طلب للفتوى فسد بابه دون الناس فقيل : اكسروا عليه
الباب لأنه قد وجب عليه فرض الفتيا ، هو أعلم من بقي بالقيروان ، فلما
رأى الجلد منهم خرج عليهم وهو يتشد .

لعمر أيبك مانسب الملقى إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم
وكان كثير الزيارة لأبي إسحاق الجبتياني وغيره من الصالحين والرباطات
حيث يتهدد ويتعبد وكان يكره الاتصال بالحكام ويتنزه عن مخاطبتهم وحتى
عن السير حيث يجلون حتى قيل إنه لا يأكل ولا يشرب ما جرى به من
(صبرة) مدينة الأمراء والملوك :

تأليفه :

ترك أبو الحسن تأليف عديدة منها :

- كتاب المهد في الفقه والأحكام بلغ ستين جزءا ومات ولم يتمه .
- كتاب الملخص والظاهر إنه في نفس الموضوع وأنه مختصر لما في المهد .
- كتاب المنبه للفتن ، والمبعد من شبه التأويل .
- رسالة في الاعتقادات .
- الرسالة الناصرة .
- رسالة في الذكر والدعاء .
- رسالة أحمية الحصون والظاهر من اسمه أنه يتعلق بموضوع الرباطات .
- كتاب المناسك .
- الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين الخ .

أدب :

كان أبو الحسن بالرغم من تغلب علوم الشريعة عليه واضطلاعه بها درساً وتأليفاً - عارفاً بالعربية متفنناً في أساليبها وله شعر رقيق متين الأسلوب نقل لنا منه بعض الأبيات وكلها في الحكمة والزهد ، فمن ذلك قوله :

أنست بوحدتي فلزمت بيتي وطاب العيش واتصل السرور
ولست بسائل أحدا أراه أسار الجندي أم ركب الأمير
وأدبني الزمان فليت أني تركت فلا أزار ولا أزور
وقوله (١) :

إذا أنا عاتبت المسكولَ فإنما أنخط باقلامي على الماء أحرفاً
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن مودته طبعاً فصارت تكلفاً
وذكر ابن ناجي من أولاد أبي الحسن القاسم (٢) .

عبد الواهد بن أبي الحسن القاسم :

كان دارساً حافظاً القرآن والفقهاء ، توفي في حياة والده في ربيع الثاني .

سنة ٣٩٠ هـ

- ٣ -

أبو إسحاق الورقاني (٣)

أبو إسحاق الورقاني كما في عنوان الدراية - والزنتاني أو الزناني - كما في نفع الطيب ، والكتابة التي على قبره غير واضحة غير أن الكلمة إلى (الزناني)

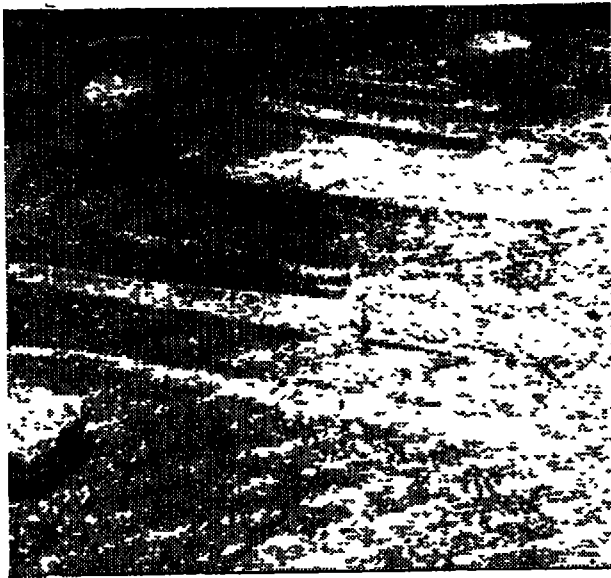
(١) عن المستطرف ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦١ .

(٣) ذكره القبريني في عنوان الدراية ص ١٤١ عند تعرضه لترجمة الششتري ، والمقرئ

في نفع الطيب ج ٢ ص ٣٨٤ في ترجمة الششتري أيضاً .

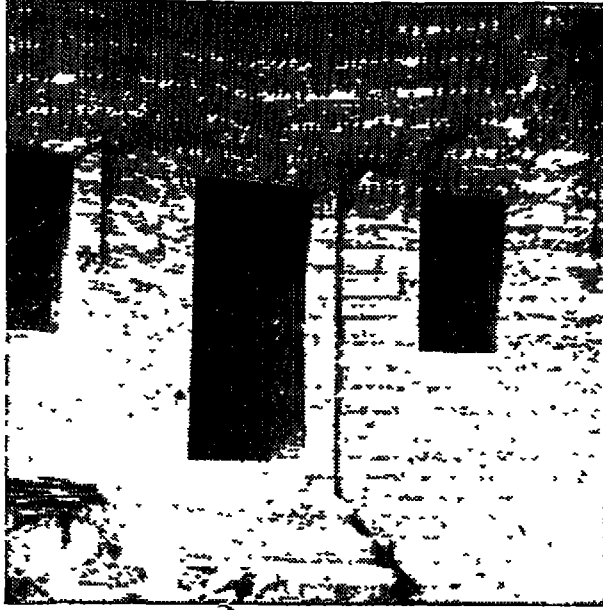
أقرب من الوراقاني . كان موجودا بقايس في منتصف القرن السابع مشهورا
 بالعبادة والزهد - واتصل بأبي الحسن الششتري وابن سعين الأندلسيين عند
 نزولهما برباط قايس المعروف بمسجد البحر ، ودفن أبو إسحاق بقايس وضريحه
 مرار معروف بزاوية سيدي أبي إسحاق علي (ظهرة قراوش) تترقى سوق
 جارة الآن وقبره ظاهر وعليه اسمه ، بالمقبرة عرفة صغيرة وبخارجها عدة



قبر أبي إسحاق الوراقاني يظهر وسط القبور وعند رأسه كور ماء صغير

قبور عليها لوحات بها كتابات منها الظاهر ومنها المطموس ، وهذه الغرفة
 مستعملة مسجدا بنته جمعية الأوقاف في الأعوام الأخيرة في مكان القبة القديمة
 التي كانت القبور في ساحتها الداخلية .

هذا كل ما عرفناه عن أبي إسحاق رضي الله عنه .



مسجد أبي إسحاق الذي بنته جمعية الأوقاف

— ٤ —

عبد الله الصنهاجي

كان رفيقا لأبي إسحاق الورقاني وزميلا له في التصوف والزهد والعبادة وقد اجتمع بالششتري وابن سبعين أيام نزولها بقابس ونجهل تاريخ ومكان وفاته إلا أننا نرجح أنه دفن قابس كصاحبه أبي إسحاق ولم نعثر في الكتب التي بين أيدينا على ذكره سوى إشارة عابرة في مقدمه ديوان أبي الحسن الششتري^(١).

— ٥ —

ابن مشكان

أبو القاسم محمد بن خلف المعروف بابن مشكان ذكره أستاذنا حسن حسني عبد الوهاب في كتابه (الإمام المازري)^(٢) وقال إنه من تلاميذ

(١) بتحقيق الدكتور علي ساي النشار ص ١٠ .

(٢) الإمام المازري ص ٥٢ ط دار الكتب الشرقية بتونس .

الإمام المازري دفين (المستير) وإنه تولى قضاء قابس ، هذا ما ذكره أستاذنا . وذكر ابن الأبار في التكملة أنه آخر من روى عن المازري^(١) ولا نشك أنه تتلمذ عن الإمام بعد ٥٣٠ هـ . وكان ابن مشكان ينتصب لتدريس الشريعة ورواية الحديث مع القضاء ، وقصده الطلبة من كل مكان وقد عرفنا من تلاميذه في آخر عمره :

أحمد بن عبد الرحمن بن عطية الربيعي التونسي :

ذكره ابن الأبار وقال عنه . كان يدرس بخرناطة سنة ٥٩٨ هـ^(٢) . ومنهم محمد بن منداس الجزائري ، ذكره ابن الأبار أيضا وقال إنه توفي سنة ٦٤٣ هـ^(٣) .

ومنهم محمد بن عبد الله بن عمر بن علي بن إسماعيل الأنصاري الأومى الضرير من أهل قرطبة يعرف بابن الصفاء ، أخذ من ابن مشكان بقابس ورجع إلى مراکش فانتصب للتدريس بها ثم رجع إلى تونس ، قال ابن الأبار^(٤) لقيته بها سنة (٦٣٦ هـ) وصحبته طويلا وكان يقرئ العربية والآداب وله حظ من الشعر ومن النثر وتوفى في جمادى الثانية سنة ٦٣٩ هـ ودفن قرب المصلى بظاهر تونس (باب القرجاني) وقد نيف عن السبعين .

- ٦ -

ابن زيادة الله القابسي

أبو عبد الله محمد بن زيادة الله القابسي ذكره أستاذنا عبد الوهاب في تلامذة الإمام المازري^(٥) ولا نعرف عن حياته شيئا .

(١) تكملة الصلة ج ٢ ص ٧٥٤ ط مجريط .

(٢) ملحق التكملة ص ١٥٧ ط الحرائر

(٣) تكملة الصلة ج ٢ ص ٧٥٤ ط مجريط .

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٥٣

(٥) الإمام المازري ص ٥٢ .

عبد الله بن محمد القابسي

ذكره ياقوت في معجم البلدان^(١) من جملة علماء قابس وقال إنه من مشائخ يحيى بن عمر ، هذا كل ما ذكره ياقوت .

وإذا كان يحيى بن عمر دفين سوسة والفقير والمحدث الشهير من تلاميذه والمعروف أن يحيى توفي في أواخر القرن الثالث فإن ذلك يعني أن عبد الله القابسي كان موجوداً في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة وإذا كنا لانعرف شيئاً عن علمه وآثاره فيمكن أن نستنتج أنه كان من علماء الشريعة المتقدمين وأن رجلاً تتلمذ عليه مثل يحيى بن عمر لا يمكن أن تجهل مكانته بين العلماء .

أبو محمد خلف بن محمد القابسي

ذكره أبو العرب في طبقات علماء إفريقية^(٢) وقال عنه : « كان رجلاً صالحاً ثقة ، له سماع من ابن عام القاضى ومن بهلول ابن راشد » قال أبو العرب : « سمعت محمد بن أبي الهيثم يقول : سمعت سخون بن سعيد يقول في خلف القابسي : إنه لم يبدل ولم يغير » ولم يجد له ذكراً في غير الطبقات ويطهر أنه من أبناء قابس الذين سكنوا القيروان وأخذوا عن علماءها ولا شك أنه كان من طبقة شيوخه ورملائه كسخون بن سعيد في العلم - ومن أبناء أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع للهجرة .

محمد بن رجاء القابسي

ذكره ياقوت في المعجم^(٣) من علماء قابس ، وقال إن من تلاميذه أبا زكرياء البخارى ولم نجد له ذكراً في كتب التراجم التي بين أيدينا .

(١) الجزء ٤ ص ٢٩٠ ط بيروت .

(٢) ص ١١٦ .

(٣) ج ٤ ص ٢٩٠ .

- ١٠ -

عيسى بن أبي عيسى القابسي

أبو موسى عيسى بن أبي عيسى (موسى) بن نزار بن يحيى القابسي ، وصفه ياقوت في المعجم^(١) بأنه الفقيه المالكي الحافظ تتلمذ في المغرب على أبي عبد الله الأجدابي وأبي علي بن حمود التونسي ورحل إلى المشرق فسمع بمكة من أبي ذر الهروي وبيغداد من أبي الحسن العتيق وأبي القاسم التنوخي وأبي الحسين الحراني وأبي محمد الجوهري وأبي الحسن القزويني وغيرهم ، وانتصب للتدريس بدمشق فقرأ عليه عبد العزيز الكناني أبو بكر الخطيب ونصر المقدسي الخ . قال ياقوت . وكان ثقة ومات بمصر سنة ٤٤٧ هـ

وهذا أيضاً ممن تخصص بذكره ياقوت ، والظاهر أنه قضى أكثر حياته في الشرق .

- ١١ -

الوزير سلام بن فرحان^(٢)

سلام بن أبي بكر بن فرحان الهلالي ، من بني هلال الزاحفين على إفريقية سنة ٤٤٣ هـ ، وعاش ابن فرحان بقابس في بلاط بني جامع أمراءها وتقدم عندهم حتى أصبح وزيراً لآخر بني جامع الأمير أبي الحملات مدافع ابن رشيد ، فلما هرب مدافع من جيوش عبد الله بن عبد المؤمن الكومي سنة ٥٥٥ هـ ، حمى ابن فرحان ساقته ودافع عن مخلدومه حتى قتل في المعركة

(١) نفس الجزء والصفحة .

(٢) انظر عنه الخريدة للأصفهاني ورقة رقم ١٠٥ (مخطوطة الأحمديّة) والمنتخب

المدرسي من الأدب التونسي لأستاذنا ح . ص ٩٦ - ط مصر :

بعد ما أبلى البلاء الحسن وأفلت بسبب دفاعه الأمير مدافع من مخالب
اللاحقين - كما ذكرنا ذلك في الباب الخامس .

ولا بن فرحان القابسي شعر متين ينحو فيه منحى شعراء البادية
في تراكيبه ومعانيه ، فن شعره يمدح أميره مدافع بن رشيد^(١) :

بربع رامة رام الركب المساما
وقل إلى الركب منا أن يلم به
سقيا لعصر الصبا لو كان متصلا
وكم كتمت الهوى جهدى فم به
فاخلع عذارك في راح وفي رشا
لله رثم رى قلى فأقصده
بخصره هَيْبَهْ أهدي النحول إلى
ومنها :

ذرى اكف عن الاطلاق راحلتى
مازلت أفرى أديم اليد منفردا
حتى حططت رحالى في ذرى ملك
في من أدهم ما ينفك يقحمه
في عصابة كأسود الغاب قد جعلت
يبنى (المدافع) أن الله خوله
إذا رآه العدى في يوم ملحمة
وقبلوا الترب تعظيما لطلعته
يا أيها الملك الموهوب جانبه
ملت بجيادى أسراجا وألجاما
أطوى المغاوز غيطانا وآكاما
نمر المواهب للقصاد بساما
على أعاديه يوم الروح إقحاما
سمر الرماح ويبيض الهند آجاما
عزاً ينال به كل الذى راما
غشى عيونهم نورا وإظلاما
كما رأت فارس كسرى وبهراما
شملت هذا الورى فضلا وإنعاما

(١) حكى الأصمغاني في الحريرة أن هذا القصيد في تهنئة الأمير مدافع بشهر رمضان -

سست الرعايا وصفت الملك فامتعا بصارم ذكر تفرى به الهاما
ومنها :

قم فافتح الأرض فالأملاك كلهم سواك أضحوا عن العلياء نواما

- ١٢ -

أبو ساكن عامر بن محمد الهلالي^(١)

هو أبو ساكن عامر بن محمد بن عسكر الهلالي ، هكذا جاء نسبه في الخريدة
للإصفهاني ، وفي التجاني والخلل : عامر بن محمد بن مكى بن كامل بن جامع
أبو ساكن .

تربى في بلاط آبائه وأجداده بنى جامع أمراء قابس ، حتى كانت
نكبتهم على يد الموحدين سنة الأحماس فصر مع ابن عمه الأمير مدافع ،
ورجع مدافع للموحدين ومات بقابس كما أسلفنا خبره ، أما أبو ساكن
هذا فقد فارق وطنه مع أهله وأبنائه إلى المشرق وسكن دمشق وتوفى
هناك ، والظاهر أن وفاته كانت بعد نزوله بدمشق بزمن يسير ، فقد روى
صاحب الخريدة عن الشريف الإدريسي أنه اجتمع بولده الآتى بعده سنة
٥٧١ هـ ، وروى عنه شيئا من شعره وشعر والده ، ومعنى هذا أن أبا ساكن
توفى قبل ذلك .

ووصفه صاحب الخريدة بأنه « كان بدويا وأميراً سوريا » وكان شاعرا
من مقدمى شعراء بنى جامع ، وشعره عليه مسحة من صفات الإمارة يغلب
عليه الحماس وبساطة العبارة ، فن شعره يذكر أيامهم نقابس :

يا جبار طرفى غير هاجع والدمع من عيني هاجع
ولقد أرقت مسامرا نجما بدا في الشرق طالع

(١) انظر الخريدة ورحلة التجاني ص ١٠٢ - والخلل السندسية ج ١ ص ١٥٨ .

متذكرا بصروف دهر أصبحت فينا قواطع
 إلى من الشم الألى شادوا العُلا (أبناء جامع)
 أهل المراتب والكتائب والمواهب والصنائع
 يتسابقون إلى المعالي كلهم فيها مسارع
 ولقد ملكنا قابسا بالمشرفيات القواطع
 تسعين عاما لم يكن فيها لنا أحد منازع
 كم من عزيز كان يأتي نحونا بالرعم خاصع
 كم قاصد أو طالب لنوالنا يأتيه طامع
 وجانبنا للمعتفين بزهرة المعروف يانع
 وإذا شهدنا مجمعا يومي إلينا بالأصابع
 عبثت بنا أيدي الزمان وأحدثت فينا البدائع

- ١٣ -

أبو عامر ساكن بن عامر الهلالي (١)

هو ابن عامر بن محمد المتقدم قبله ، ولد بقابس وتربى في حجر أبيه في بلاط بني جامع وهرب مع والده للمشرق إثر كارتهم على أيدي الموحدين سنة الأحماس وسكن دمشق ، روى صاحب الخريدة عن الشريف الإدريسي أنه التقى به في دمشق سنة ٥٧١ هـ وأنشده من شعره ومن شعر والده ، وقال الأصفهاني ، إنه كان موجودا بدمشق إلى سنة ٥٩١ هـ ، ولم يذكر سنة وفاته ، أتبت له في الخريدة المقطوع الآتي الذي يدل على رقة في الطبع وعمق في المعنى :

(١) انظر الخريدة ورقة رقم ١٠٦ (مخطوطة الأحمدية) ورحلة التحاني ص ١٠٢ والحلل

إذا مر^(١) من أهوى أغض له طرفي وأحنى الذي بي من سقام ومن ضعف
وأكتم عن سرى هواه صباية ولو كان في كمانه أبدا حتى
مخافة أن يشكو فوادي تحرق^(٢) إلى مقلتي يوما فأبلى الذي أنحنى

- ١٤ -

ابو الفضل بن عبدالله بن نزار الهواري^(٣)

أبو الفضل ، ابن الفقيه عبد الله بن نزار الهواري القابسي ، هكذا ذكره
صاحب الخريدة وقال إنه حي إلى الآن (أى ما بين ٥٨٩ و ٥٩٧ ،
وهي المدة التي يظن أنه ألف فيها كتاب الخريدة) يخدم ولد عبد المؤمن
أصحاب مراكتس ، ثم لا نعرف شيئا عن حياته أكثر من هذا .

وهو من قبيلة هواة البربرية ذات القوة والعديد وفروعها منتشرة
في كامل المغرب العربي من قديم الزمان .

ويظهر أن الهواري هنا عاش في بلاط بني جامع بقابس زمنا وكان من
شعرائهم ومادحيهم ، وقد أورد له صاحب الخريدة شعرا في مدح محمد بن
رشيد (من بني جامع) المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وهذا معناه أن الهواري كان
موجودا بقابس قبل تلك المدة ، ولا ندرى إذا كان من أبنائها أو الوافدين
عليها زمن بني جامع ، وقد بقي الهواري بقابس حتى جاءها الموحدون
٥٥٥ هـ ، فتقرب إليهم بشعره ومدحهم واختص بأولاد عبد المؤمن من الملوك
والأمراء ، وإنه بقي إلى زمن تأليف الخريدة ما بين ٥٨٩ و ٥٩٧ هـ ،
ولا ندرى إذا كان عاش بعد ذلك كثيرا أو قليلا

(١) في التحاني (عز)

(٢) في التحاني (صانئ) .

(٣) ذكره صاحب الخريدة .

روى له صاحب الحريدة قطعة غرلية من مقدمة قصيدة قال إنه مدح بها الأمير محمد بن رشيد اللاللى صاحب قابس يقول فيها :

لم يبق لى بعد الرحيل عزاء بان الخليط وشتت أهواء
فاصرف عنان اللوم عن قلق الحشا معرى فإن ملامه إغراء
فعلت به أحبابه يوم النوى والبين ما لم يفعل الأعداء
ساروا ولما يسمحوا بوداعه فكان خالص وده شحنةاء
أترأهم حالوا الوداع محرما ؟ أم أجمعوا أن لا يكون لقاء ؟
رقت مياه الحسن فوق خدودهم وقست قلوبهم بان جفء
ومنها .

ياويح من عت الهوى بهواده وتحكمت وقضت عليه ظباء
من كل مزنى (؟) القلب من لحظاتها نفتات سحر ما لهن دواء
. . . الخ .

- ١٥ -

بجي التيفاشى القفصى

أعطى صاحب الحريدة نسبة ، بجي بن التيفاشى القفصى والنسبة إلى قصر تيفاشى من تراب الجزائر اليوم ، وعائلة التيفاشى هذه من العائلات التى برلت قفصة ومدت إفريقية بعلماء أعلام وأدباء وشعراء نابغين منهم العلامة شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبى بكر التيفاشى أحد أحفاد بجي المذكور وأحمد هذا مؤلف أول موسوعة عربية ضخمة تشتمل على أكثر من أربعين جزءا كل جزء خاص بعن أو علم تسمى (فصل الخطاب فى مدارك الخواص الخمس لأولى الألباب) .

« وتتناول مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والشمس والقمر والنور والظلمة والسماء والكواكب والنجوم والبروج والماء والنار الخ ، ثم العالم الحيوانى

بما فيه من أصناف المخلوقات وكذا عالم النبات ثم عالم الأحجار والمعادن وما إلى ذلك .

وكانت ولادة أحمد هذا سنة ٥٨٠ ووفاته بمصر سنة ٦٥١ هـ (١) .

والتحق يحيى هذا ببلاط بني جامع بقابس وعاش في ظل نعمتهم زمانا يمدحهم وينال جوائزهم وحوالى ٥٥٠ هـ ، انتقل إلى صقلية ، ولا نعرف سبب هذه الرحلة ، فصادف إحدى المجازر التي كان يقوم بها الإفرنج من زمن إلى آخر فيوسعون فيها المسلمين الباقين هناك قتلًا وذبحًا وتشريدًا فقتل أثناءها رحمه الله ، قال صاحب الحريرة (قتل الإفرنج بعد سنة ٥٥٠ هـ عند فتحهم بالمسلمين) .

ومن شعره يمدح الأمير مدافع بن رشيد صاحب قابس :

رأى البرق فازدادت جوانجه جمرًا وبات يراعى النجم يرتقب الفجرًا
وما البرق مما هاجه غير أنه تذكر من يهوى فما ملك الصبرًا
خليلى عوجا نندب الربرب الذى غدا بعدهم من بعد سكانه قفرا
ديار لها قدما ملأت (٢) جوانحى عيون المها جمرًا كما ملئت سحرا
ومنها :

هـ . ٥ . (٢) ذات الوشاح إذا بدت

كشمس الضحى وجها وجنح اللجى شعرا
تميس لنا غضنا وترنو غزالة وتعبق كافورا وتبدو لنا بدرا الخ
وترك يحيى ولدا يسمى (محمدًا) كان شاعرا مبدعا أشهر في المغرب

(١) ترجم له أستاذنا ح . عبد الوهاب في صدور الأفرقة (خط) وفي مجلة الفكر عدد ٩ من السنة الرابعة الصادر في جوان ١٩٥٩ .

(٢) كلمة في الأصل غير واضحة

العربي بقصيدته التي مدح بها عبد المؤمن بن علي في إحدى وفداته عليه
والتي طالها :

ماهر عطفه بين البيص والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي
ويروى مؤرخو الأدب أن عبد المؤمن لما سمع هذا البيت أمر صاحبه
محمد بن يحيى التيفاسي بالوقوف عنده وأن لا يزيد في الإنشاد ونفحه بألف
دينار. والقصة مشهورة معروفة بين الأدباء .

- ١٦ -

السكندلي القفصي

وهذا أيضا من الذين احتضت الخريدة بذكرهم ورواية شيء من شعرهم
ولم نعر على اسمه كاملا ، وهو من الذين انتقلوا إلى سكنى قابس انتجاعا
لصلات بنى جامع وعاش في بلاطهم الذي كان يخلص بالشعراء ومدحهم
وأخذ جوائزهم ولا ندرى بعد ذلك ما فعل الله به ولا أين ومتى مات ؟
ومن شعره الوارد في الخريدة (مخطوطة الأحمدية) يمدح الأمير مدافع
ابن رشيد صاحب قابس :

خليلي عوجا بي لتلك المربع لنسبح بالسفحين در المدامع
ومنها :

منازل ساداتي ومغني أحبتي وموضع اطرابي وخير مواضع
بها قد جنيت العز غضا وملبسي وشبابي ومن أهواه غير ممانع
ألا قاتل الله اللوى من محلة وقاتل دهرا باللوى غير راجع
يكاد فوادي من تذكره الحمي وأهل الحمي ينقد بين الأضالع
ومنها متخلصا للمدح :

لقد ملكت روحي كما ملك العدى وجاز الندى جود المليك (المدافع)

القاضي عبد الله ابن أبي مسلم^(١)

هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبي مسلم القابسي ، ذكره التجاني أثناء سرده لشيوخ شيخه أبي فارس عبد العزيز بن عبيد عالم طرابلس وفقهها .
 وإذا كان ابن عبيد شيخ التجاني كان موجودا بطرابلس سنة ٧٠٨ هـ .
 وهي السنة التي قرأ عليه فيها التجاني نصيبا من الصحيحين فن المعقول أن يكون ابن أبي مسلم القابسي موجودا بطرابلس في أواخر القرن السابع .
 وذكر التجاني أن ابن أبي مسلم هذا كان وصل إلى طرابلس قاضيا وله رحلة إلى العراق ودخل فيها بغداد وأن ابن عبيد قرأ عليه بطرابلس أكثر من نصف البخاري .

ولا نشك أن توليته للقضاء بطرابلس كانت من قبل أحد سلاطين بني حفص الأول في النصف الثاني من القرن السابع - ولم نعر على سنة وفاته ولا مكانها .

الفقيه الورفلي

من أبناء قابس ومشاهير فقهاء القرن الثامن للهجرة تولى القضاء في مدينة القيروان وكان تقيا ورعا صلبا في أحكامه وهذه الصلابة عرضته لخصومة مع قائد القيروان كانت نتيجتها قتل القائد وعزله هو من القضاء ، ثم لا نعلم عن حياته شيئا سوى ما ورد في هذه الواقعة التي ذكرها صاحب المعالم (ج ٤ ص ١٢٥) في ترجمة أبي الحسن العيلى وعنه نقل الشيخ الجودي

(١) ذكره التجاني في رحلته ص ٢٥٧ .

في تاريخ قضاء القيروان (مخطوطة المعهد القومي للآثار ص ٤٨) وكلاهما وصف صاحبنا بالفقيه .

وخلاصة الواقعة ، أن الورفلي هذا كان صديقا مقربا للشيخ الصالح أبي الحس العبيدلي ، وكان العبيدلي كلما مر بمدينة قابس في طريقه إلى الحج أو منه ينزل عنده ، ولما ولي الورفلي قضاء القيروان حاول الاتصال بالعبيدلي فامتنع عنه لأنه قبل القضاء فاعتذر إليه بأنه وليه مكرها فأرسل إليه يقول : اعدل تعزل فتشدد في نصرة الحق وضرب يوما أحد أتباع القائد الحفصي ابن أبي الربيع فأرسل القائد أعوانه للقاضي الذي فر عنه أعوانه أمام قوة أعوان القائد وهرب القاضي إلى الجامع وأغلق عنه بابه .

وسمع العبيدلي بالأمر فخرج بأتباعه من الفقراء إلى مقابر القيروان يدعو على القائد وعلى من كان سببا في الفتنة ، وعلم السلطان أبو يحيى أبو بكر الحفصي (٧١٨ - ٧٤٧) بالأمر فاستدعى القائد لحاضرة تونس حيث قتله قائد الأعتة بمجرد وصوله لتسبيه في هذه الفتنة ، وعزل الورفلي وغادر القيروان إلى بلده قابس مشيعا من طرف صديقه العبيدلي .

والمستنتج من هذه القصة أن الورفلي كان قاضيا بالقيروان في النصف الأول من القرن الثامن أي ما بين ٧١٨ و ٧٤٧ وهي مدة ولاية السلطان أبي يحيى أبو بكر ثم لانعلم عن الورفلي شيئا بعد عزله ورجوعه إلى قابس .

- ١٩ -

أحمد الطياري القابسي

قال عنه أستاذا ح . ح . عبد الوهاب (١) أحمد بن عبد الله الطياري من أبناء مدينة قابس وكان يعيش خلال القرن الثاني عشر هـ .

(١) صدور الأفاقة (مخطوط) .

وكل ما نعرف عنه أنه كان عالما بالفرائض والحسابيات وأنه اختصر شرح محمد سبط المارديني على متن الرجبية في الفرائض أتم تحريره سنة ١١١٧ هـ . ولا نعرف إذا كان عاش كثيرا أو قليلا بعد هذا العهد .

- ٢٠ -

محمد بن نصر القابسي

ذكره ابن أبي الضياف في تاريخه (١) فقال : أصله من قابس وترى بالعاصمة وبها تعلم ثم تصدر للتدريس بجامع الزيتونة وأصابه مرض أقعده عن التنقل فجعل من سقيفة داره بزقاق الأندلس بتونس محلا للتدريس وتزاحم عليه الطلبة وكان مشهوراً بقدرته على إفهام الطلبة بأيسر الطرق وذاعت شهرته في المنقول والمعقول وفي العمه وكرم الأخلاق وله أدب وشعر مثنى ، لم ينقل لنا المؤرخون نماذج منه ، توفي في ١٨ ربيع الثاني ١٢٣٣ هـ .

(١) ج ٤ ؛ (مخطوط) .

الفصل الثاني

أعلام عابرون

ووفد على قابس كثير من العلماء والأدباء والشعراء والزهاد ، وسكنوا بها كثيراً ، أو قليلاً . ثم غادروها إلى غيرها ، فهؤلاء في الواقع ليسوا من أعلامها المحليين ولكنهم من العابرين الذين اتصلت حياتهم بها في فترة من الزمن قضوها فيها ، إما مشتغلين بالقضاء كأبي المطرف بن عميرة أو بالرباط والعبادة كالخيمري ، أو بالكتابة للأمرأه كابن فرسان ، أو بمصاحبة الملوك وتقييد أعمالهم شعراً ونثراً كابن مجبر . . الخ

على أن بعض هؤلاء العابرين رأينا إثبات شيء من ترجمته في تعاليفنا على الكتاب في الأبواب السالفة كابن ناجي وابن العطار وغيرهما ، والسبب في ذلك أن ما عثرنا عليه بعد الانتهاء من الكتاب ألحقناه بهذا الباب تعميماً للفائدة والله المستعان .

- ١ -

أبو بكر ابن مجبر^(١)

أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر ، نشأ وتعلم بالأندلس ، واتصل بالأمير أبي عبد الله محمد بن مردنيش ، وله فيه

(١) ابن (مجبر) نالباء الموحدة في رحلة التجاني وفي إحدى نسخ فتح الطيب وفي الاستقصاء ونسخة ثانية من فتح الطيب ، ابن (مجبر) بالياء المنناة ، وأثبتناه بالياء لأن ذلك هو المشهور على الألسن .

مدائح ، ثم اتصل بيوسف بن عبد المؤمن الموحدى صاحب مراکش ثم
يا بنه يعقوب المنصور ، وله فيهما مدائح سارت بذكرها الركبان .

ودخل قابس مع يعقوب المنصور حين استولى عليها وأطرد منها
قراقوش الأرمنى سنة ٥٨٣ هـ . وفي هذه الواقعة قال قصيدته التي نقل لنا
منها التجانى البيتين الآتين ذاكرا أنهما من قصيدة طويلة (١) :

لقد بررت إلى هول المنايا وجوه كان حججها اللثام
وما أغنت قسى الغز عنها وليست تدفع القدر السهام

وتنقل ابن مجبر مع أميره في البلاد التونسية ثم رجع معه للمغرب مات
بمراكش في عهد المنصور سنة ٥٨٨ هـ وعمره ٥٣ سنة .

قال المقرئ في نفع الطيب (٢) : « كان في وقته شاعر المغرب ، ويشهد
له بقوة عارضته وسلامة طبعه قصائده التي صارت مثالا ، وبعدت على
قربها مالا ، وشعره كثير يشتمل على أكثر من تسعة آلاف
وأربعمائة بيت » .

ومن شعره يصف نخيل المنصور الموحدى :

له حلية الخيل العناق كأنها نشاوى تهاوت تطلب العزف والقصما
عرائس أغنتها الحجول عن الخلى فلم تبع نخلخالا ولا التمسث وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب أنه وان جردوه في ملاءته التفا
وأبلى أعطى الليل نصف أهابه وغار عليه الصبح فاحتبس النسفا
وورد تغشى جلده شفق الدجى فإد حازه دلى له الذيل والعرفا

(١) الرحلة ص ١٢٧ .

(٢) ح ٤ ص ٢٢٢ .

وأشقر مج الرياح صرفا أديمه
وأشهب فصى الأديم مدندر
كما خطر الزاهى بمهرق كاتب
تهب على الأعداء منها عواصف
ترى كل طرف كالغزال فتمترى
وقد كان فى البيداء يألف سربه
تناوله لفظ الجواد لأنه
وأصفر لم يمسخها جلده صرفا
عليه خطوط غير مفهومة حرفا
وجر عليه ذيله وهو ما حما
ستسفف أرض المشركين بها نسفا
أطيا ترى تحت العجاجة أم طرفا ؟
فربته مهرا وهى تحسه حشعا
على ما أردت الجرى أعطاكه صعفا

- ٢ -

أبو المطرف ابن عميرة^(١)

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة الخزومي من فحول العلماء والكتاب أصله من شقورة (Segura de la Lierea) ، نشأ فى نلسية بالأندلس وتنقل بين غرناطة والمغرب وتونس ، وتولى القضاء فى أريولة وشاطبة بالأندلس ، وفى مكناس وسلا ومليانة بالمغرب ، وفى قسنطينة وقابس وغيرهما بتونس .

أخذ تعليمه بالأندلس ثم وفد على المغرب الأوسط وسكن بجاية زمانا درس بها أصول الفقه ، وبرع فى الأدب واتصل بالخليفة المستنصر الحفصى فقدمه إلى وظيفة القضاء .

تولى القضاء بقابس زمانا فى عهد المستنصر حوالى منتصف القرن السابع وفىها كتب رسائله عنها ، وفى آخر أيامه رجع إلى تونس العاصمة واستقر بها ملازما للبلاط الحفصى حتى وافاه أجله فى ٢٠ ذى الحجة سنة

(١) انظر عنه التجانى ص ٩٠ والإحاطة ح ١ ص ٦٠ - وبغية الوعاة ص ١٢٧ - وعنوان الدراية ص ١٧٨ وصور الأفاقة (حط) والحلل السندية ص ١٥٠ - ١٥١ .

٦٥٨ هـ ، وعمره نحو ٧٦ سنة قرية إداد كان مولده بالأندلس في رمضان سنة ٥٨٢ هـ .

قال عنه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة أنه « اشتغل في الحديث والتاريخ والأخبار وبرع في جميعها » .

وقد ترك آثاراً أدبية نفيسة ، تتمثل في رسائل بديعة تنوع فيها طريقة السجع المعروف في عصره وشعراً كثيراً أثبتنا منه في الفصل الأول من هذا الباب قصيداً قاله عند زيارته لأبي ليابة مفارقاً لقابس ومن هذه الآثار :

- ١ - فاجعة المرية وتغلب الروم عليها ، في التاريخ .
 - ٢ - التنبيه ، على المغالطة والتنويه ، في الأدب .
 - ٣ - تقييد الرسائل (مجموع رسائله) .
 - ٤ - ديوان شعره في جزئين يحمل عنوان (بعية المستطرف ، وغنية المستطرف ، من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف) .
- ومن العنوان الأخير الذي وضعه له حسب الظاهر - جامع الديوان ، يفهم أن الرجل كان مشهوراً بالكتابة النثرية أكثر من الشعر .
- وهذا نموذج من نثره من رسالة يصف فيها واحة قابس التي عاش فيها زمناً متولياً لقضاها^(١) : « بلد غوطى البساتين ، طورى الزيتون والتين ، فأما النخل فجمع عظيم ، وطلع هضيم ، وسكك مأبورة ، ونواعم في الحدور مقصورة ، وأن بقعته لوارفة الظل ، آمنة الحرم والحل ، جنة لوززع ما في صلور أهلها من غل . وبالجملة فهو تام الغرابة ،

(١) نقلاً عن التجاني ص ٩٠ - ٩١ .

مدهام الغابة ، مستأثر بسيد من سادات الصحابة ، ولا عيب بتربته
إلا وخامة مائها ، وحيات قلما يعرى من عدوائها .

وله من رسالة ثانية يصف هواء قابس وماءها وعقاربها :

« وهذه البلدة الآن في ضلال من شرح الشباب ، وظلال من ثمرات
التحليل والأعاب ، فهي بحال يقر بيجالها الأندلسي ، ويجارى بين خلخالها
الدبسي (؟) ولا عيب فيها إلا هواء وخامته تخاف ، وماء غير من خالصه
الماء المضاف ، ولبيوت المدينة دواجن سيئة الجوار ، سريعة إلى القطان
والزوار ، كراها تنفيه ، وسرها تخفيه ، وصلحها لا يطمع أحد فيه ،
فقيحت شائلة الأذنان ، شاملة بالعداب ، كامنة بارزة ، هامزة لامرة ،
تطرق بالبلية ، وتقسم شرها بين البر والفاجر بالسوية ، دبت عندنا ليلة إلى
من كان يرمق ديبها ، ويحاول قبل أن نصيبه أن يصيبها ، فأوقعت به
لدغا في القدم ، ولقى أشد الألم ، ويات ويتنا معه في لية أخى ذبيان ،
وتعالى الله ما أطول ما كانت وأهول ما كان . »

- ٣ -

عبد البر بن فرسان^(١)

أبو محمد عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الرحمان الغساني الوادي
آشئ ، من أهل (وادي آش) بالأندلس .

نشأ بالأندلس وبها أخذ العلم ، وبرع في الشعر وكتابة النثر ، وانتقل
إلى إفريقية فاتصل بيجي بن غانية الميورقي المغامر الشهير فجعله كاتبه
الخاص ومستشاره وسفيره إلى الخلفاء والملوك ، وكان ابن فرسان فارساً

(١) انظر التحافي من ص ١٠٧ إلى ١١٠ - والأعلام للزركلي ح ٤ ص ٤٦ - ط - ثانية -

ونفع الطيب ح ٣ ص ٣٦٧ .

معلوداً وشجاعاً له غناء في الحرب فضلاً عن جودة شعره ونثره وبراعته السياسية ، ولاندرى ما الذى جعله يعضل الميورقى المغامر على غيره من ملوك ذلك العهد إذ لا نشك أن أدبه الزاخر يضمن له المكانة السامية عندهم ، اللهم إلا أن يكون الرجل من محبي المغامرات وعشاق التنقل وربما كانت هذه النفسية هي التي دفعته لخدمة الميورقى الذى قضى نصف قرن في مغامرات وحروب متصلة .

وفي أثناء أجلاب الميورقى على إفريقية والمغرب ، وكان يدعو إلى الخليفة العباسى ببغداد . أرسل ابن فرسان كاتبه إلى بغداد للاتصال بالخليفة وربط الصلة معه فقدم ببغداد واتصل بالخليفة وأتم سفارته على أحسن وجه ثم رجع إلى إفريقية حيث حضر عدة وقائع وحروب مع الميورقى فأصيب بجراحة في آخر أيام الميورقى فمات منها كما مات بعده بنفس العلة صاحبه الميورقى ، وكان اتصاله بقابس عند دخول صاحبه الميورقى إليها سنة ٥٩١ هـ ، واستقر بها تحت حكم الميورقى عشر سنوات كان يصاحب أثناءها مخدمه في حروبه ويرجع إليها إلى أن حررها الناصر الموحدى سنة ٦٠١ هـ ، وهرب ابن فرسان مع صاحبه منها .

قال المقرئ : « كان آية في بعد الهمة والدهاب بنفسه والغناء في مواقف الحرب » .

ثم أورد المقرئ حكاية عن همته العالية فقال : « تخاصم له ولد صغير مع ولد يحيى الميورقى فاستتراه هذا قائلاً : وما قدر أهلك ؟ فسمع عبد البر وحرح مغضبا والتقى بولد الأمير فقال له حفظك الله لست أشك في أنى خديم أهلك ولكنى أحب أن أعرفك بنفسى ومقدارى ومقدار أهلك : اعلم أن أباك وجهنى رسولا إلى دار الخلافة ببغداد بكتاب منه فأنزلت في دار اكترت لى بسبعة دراهم في الشهر وأجرى على سبعة دارهم في اليوم ، وقيل

من الميورقي الذي وجهه ؟ ثم استدعيت للخليفة فلما تكلمت اعتذروا إلى وقالوا هذا رجل جهل مقداره ، فأعدت إلى محل بسبعين درهما في الشهر ، وأجرى على متلها في اليوم . ثم ودعت الخليفة وصدى لي شيء له حط من صلته وانصرفت ، فالمعاملة الأولى كانت على قدر أريك عند من يعرف الأقدار والثانية كانت على قدرى .

وابن فرسان جمع الصناعتين الشعر والنثر . وقد أثبتنا له سابقا نموذجاً من نثره من الرسالة التي وجهها الميورقي إلى أهل طرابلس إثر احتلاله لقابس . كما أثبتنا له هناك القصيدة التي مدح بها الميورقي إثر الانتصار :
ومن شعره يمدح الميورقي ، وقد تعمم بعمامة بيضاء ، ولبس غفارة حمراء على حبة خضراء :

فديتك بالنفس التي قد ملكتها	فما أنت موليا من الكرم الغمض
ترديت للحسن الحقيقي بهجة	فصار لها الكلي في ذلك البعض
ولما تلالاً نُورُ عرتك التي	تقسم في طول البلاد وفي عرض
تلفعتها خضراء أحسن ناظر	نبت عنك لإجلالا وذاك من الفرض
وأسدلت حمراء الملباس فوقها	بمفرق تاج المجد والشرف المحض
فأصبحت بدرا طالعا في نغامة	على شفق دان إلى خضرة الأرض

وقال متحمسا .

أجيباً . ورحمى ناصري وحسامي ؟ وعجزاً وعزمي قائدي وإمامي ؟
ولى منك بطاش اليدى غضنفر يجارب عن أشباله ويحامي
وقال يستأذن أميره في الحج لما كبرت سنه :

امن بتسريح على وفعله	سبب الزيارة للحطيم ويثرب-
ولئن تقول كاشح ان الهوى	درست معاملة وأنكر مذهبي
فقالتي ما إن مللت وإعما	عمرى أبي حمل النجاد ومنكبي.

وعجزت عن أن أستثير كمينها وأشق بالصمصام صدر الموكب
وقال يخاطب طائراً يتغنى فوق غصن ويتشوق إلى أطفاله وهى فى
غاية الرقة :

ندى مخضلاً ذاك الجناح المنمنا وسقيا وإن لم تشكُ ياساجعاً ظمأ
أعدهن ألحانا على سمع معرب يطارح مرتاحا على القضب معجبا
وطر عير مقصوص الجناح مرفها مسوغ أشتات الحبيب منعما
مخلى وأفراخا بوكرك نوما ألا ليت أفراخى معى كن نوما

— ٤ —

أبو الحسن النيرى^(١)

أبو الحسن على النيرى الششتري ، من أهل قرية (ششتري) من عمل
(وادي آش) بالأندلس وهناك تلقى تعليمه وأتصل بالعالم الصوفي ابن سبعين
الأندلسي فقراً عليه طريقة الصوفيين ، ومال إلى هذا الطريق وزهد وتعبد
وحج حججات وآثر التجرد والعبادات ، وتنقل بين الأضرحة والرباطات
وصار له أتباع عدليون فكان يتبعه فى أسفاره نحو من أربعائة فقير ، وحين
مات أستاذه ابن سبعين انفرد بعده بالرئاسة والإمامة على الفقراء والمتجردين^(٢) .
وانتهت تنقلاته إلى قرية من قرى الشام تسمى (طيبة) فمات بها وحمله
تلاميذه إلى مدينة (دمياط) ودفنوه هناك سنة ٦٦٨ هـ .
وقد كما أشرنا إلى نزوله بقابس وملازمته للمادة والرباط برباط البحر

(١) ترجم له النيرى فى عنوان الدراية ص ١٤١ ونجح الطيج ٢ ص ٣٨٤

(٢) هذا كلام النيرى ، وهو مشكل إذ نجده يقول إن النيرى مات سنة ٦٦٨ هـ ،
ويقول المقرئ إن ابن سبعين مات سنة ٦٦٩ هـ أى بعد السميرى بسنة فكيف يصح قول المقرئ
أن النيرى انفرد بالرئاسة بعد موت ابن سبعين مع أنه مات بعده ، ولعل المقرئ مخطئ فى
قوله وأن أحدهما مخطئ فى سنة الوفاة .

المسمى بمسجد الصهريرج، وإلى زيارة الشيخ الصالح أبي إسحاق الوراقاني دفين قابس إليه في ذلك الرباط وانتظاره إياه - إذ وجدته متغيّبا - ودخول العمري على أبي إسحاق بالمسجد وطلبه للممداد وكتب في اللوح :

لا تلتفت بالله يا ناظري لا هيف كالغصن الناضر

إلى آخر المقطوع الذي أثبتناه هناك في حديثنا عن مسجد الصهريرج .

وصفه الغبريني بأنه « كتاب شاعر له شعر مطوع وتواشيع وزجل في غاية الحسن » . وذكر المقرئ من تأليفه :

١ - المقاليد الوجودية ، في أسرار الصوفية ،

٢ - الرسالة القدسية ، في توحيد العامة والخاصة .

٣ - المراتب الإيمانية ، والإسلامية ، والإحسانية .

٤ - الرسالة العلمية .

٥ - العروة الوثقى في بيان السنن وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده .

وكان العمري نزل بقاس وربط مدة بمسجد الصهريرج يتعبد ويعلم الطرق الصوفية وفي هذا المكان كان يزوره أبو إسحاق الوراقاني ، وهناك وفد عليه أستاذه ابن سبعين مع فقرائه في طريقه إلى المشرق واستراح عنده أياما . وجميع كتاباته وأشعاره وأزحاله في التصوف ومن شعره النونية التي اشتهرت عند الصوفية شرقا وغربا وشرحها الشيخ الصالح سيدي أحمد زروق شرحا وافيا ، وأولها

أرى طالبا منا الزيادة والحسى بعكر رمى سهما فعدى به عدنا
وطالبنا مطلوبنا من وحوودنا تغيب به عنا لدى الصعق أن عما
ومن شعره أيضا :

لقد تهت عجبا بالتجرد والفقر فلم ألتجئ تحت الزمان ولا الدهر
بوجدت لقلبي نعمة قدسية فغبت بها عن عالم الخلق والأمر

طويت بساط الكون والطنى نشره
وعمضت عين القلب غير مطلق
وصلت لمن لم تنفصل عنه لحظة
وما الوصف إلا دونه غير أننى
وذلك مثل الصوت أيقظ نائماً
فقلت له الأسماء تبغى بيانه
وما القصد إلا الترك للطنى والنشر
فألفيتنى ذاك الملقب بالغير
ونزهت من أعنى عن الوصل والمحر
أريد به التشبيب عن بعض ما أدرى
فأبصر أمرا جل عن ضابط الحصر
فكانت له الألفاظ ستر على ستر

- ٥ -

قطب الدين ابن سبعين^(١)

أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين الملقب بقطب الدين.
المرسى الأندلسى من أهل مرسية تعلم بالأندلس ثم انتقل إلى سبتة وانتحل
طريقة التصوف وعكف على مطالعة كتبه فقالت إليه العامة وتبعه خلق كثير
ورحل إلى المشرق فر بتونس وقابس وفيها استراح مدة عند تلميذه
الميرى برياط البحر المسمى بمسجد الصهريج ثم انتقل إلى الشرق فحج
مرات وشاع ذكره وكثر أتباعه .

ولما بايع أهل مكة المستنصر الحفصى صاحب تونس بالخلافة سنة ٦٥٧ هـ ،
كان المتولى لكتابة البيعة هو ابن سبعين .

وتوفى ابن سبعين - على قول المقرئ - سنة ٦٦٩ بمكة المكرمة .

وكان كاتباً بليغاً وشاعراً على الطريقة الصوفية ، ومن شعره :

كم ذا تموه بالشعبين والعلم والأمر أوضح من نار على علم
وكم تعبر عن سلع وكاظمة وعن زرود وجيران بدى سلم
ظلت تسأل عن نجد وأنت بها وعن نهامة هذا فعل منهم

(١) ترجم له نفع الطيب ج ٢ ص ٢٩٥ .

في الحى حى سوى لىلى فتسأله عنها ؟ سؤالك وهم جر للعدم
وللناس في ابن سبعين أقوال بين قادح لطريقته مكفر له ، وبين مادح
لها ومشيد بها حسب آرائهم في التصوف والمتصوفين وما يطهر في كلامهم
من شحطات يوؤها المادح ويستنكرها القادح وللناس فيما يعشقون، مذاهب .

- ٦ -

أبو الفضل التجاني^(١)

أبو الفضل محمد بن أبي الحسن على التجاني اس عم عبد الله التجاني
صاحب الرحلة .

كان من جملة كتاب ديوان الإشاء في الدولة الحفصية في أيام السلطان
محمد الحمصي الثاني الملقب بأبي عصيدة (٦٩٤ - ٧٠٩ هـ) ثم في أيام السلطان
أبي يحيى زكرياء اللحياني (٧١١ - ٧١٧ هـ) وأيام ابنه محمد الثالث الملقب
بأبي صربة (٧١٧ - ٧١٨ هـ) فكان أبو الفضل كاتب سره ومدبر أمره .
ولما زحف السلطان أبو بكر الثاني من المغرب الأوسط على تونس وأوقع
بأبي صربة في فحص معوج من تراب سايانة اليوم - سنة ٧١٨ هـ قتل
أبو الفضل في المعركة مع سلطانه أبي صربة .

ولأبي الفضل هذا مؤلفات ذكر منها أستاذنا ح . ح . عبد الوهاب
في ترجمته له كتاب (الناسم) جمع فيه تراجم ومختارات لشعراء عصره ،
وكتاب (الحلى التيجانية ، والحلل التحانية) في أخبار النابغين من عائلة
التجاني .

وأورد التجاني في رحلته لأبي الفضل مقطوعات من الشعر والنثر^(٢)

(١) ترجم له أستاذنا ح . ح . عبد الوهاب في مقدمته لرحلة التجاني ص ١٥ - م .

(٢) انظر الرحلة ص ٢٢١ - ٢٨١ - ٢٨٨ .

تدل على مشاركته الحسنة في هذا الباب ويصفه دائماً بقوله (الفقيه البليغ)
 مما يدل على أنه كان فقيهاً إلى جانب أدبه ، وقد أثبتنا له في الباب الأول قصيدته
 في وصف (ساحة عنبر) .

ومن شعره أيضاً يخاطب ابن عمه عبد الله صاحب الرحلة جواباً عن
 رسالة وردت إليه منه :

لمع البرق فشمته وبدا سر كتمته
 وسرى نحوى بسر وبمعى ما فهمته
 معلما خلعة ود من و داد قد علمته
 كاشفا عنى قناعا بدموعى قلدر قتمته
 همل الدمع لبرق بلظى نارى وسمته
 وأطار القلب منى وبودى لو رسمته
 فهو للوجد مضيعف وعلى الشوق ضمتمته
 أفرد التركيب بالتحليل لما أن قسمته
 فلدى الجسم والقلب لدى نحل عدمته
 سار شرقا فلدحت الشرق من غرب ذمته
 ثم حيانى بروح وبريحان شمته
 بكتاب صح فى الود دديلا فأقتته
 كم سرحت الطرف مر تاحا إليه ولثمته
 رسمت أحرفه فيه خلوصا قد رسمته
 يعلم الله اعتقادا واتحادا ما حرمته
 وانتسابا وانتسابا لهوى منى أدمته
 وبعين القرب فى سن الهوى بالنفس سمته
 فإذا صح بشيء فهو ما بينت رسمته

وبعد هذا الشعر رسالة نثرية مسجوعة على الأسلوب المتبع في ذلك العصر .

ومن شعره ما أجاب به عن رسالة من ابن عمه المذكور أولها :

أهدى سلام الود خير رفيق من عد أوجد أسرتي ورفيقي
ومقام عبد الله نجل محمد في قومه سام على العيوق
ومن شعره يحاطبه أيضا .

من المشغوف معنى ذكر العهد فحنا
راعاه الدهر بين بعد ما كان اطمأنا
أبصر الربح قواء فكى سوقا وأنا
وتمشى مشى ولها ن به يقرع سنا
وشجاه هاتف فو ق الرب غنى فعنى
إلهه دان فلو فا رق إلفا ما تغنى
أطرب الروح وأبرد ت شجونى حين ثنى
فهى من فرط ارتياح دون راح تنثنى
وتدكرت زمانا بالتداني مر عنا
وحديثا ما أحسلا ه وسرا منه صننا الخ

ودخل أبو الفضل قابس وأقام بها مدة - لا تعلم - مداها وتزده في رياضها ووصف لنا منتزه (ساحة عنبر) بالواحة وصفا عزيزا في قصيدته الرائعة متغنيا بجمالها شاديا بنخضرتها ومائها وظلالها إلا أننا لانعلم متى كان اتصاله بقابس؟ ولأى سبب كان هذا الاتصال؟ أكان مجيئه لها في مأمورية حكومية؟ أم كان لمجرد الاستراحة والتزده؟

أبو الروح ابن مسعود

ذكره ابن فرحون في الدباج المذهب^(١) بقوله : « أبو الروح عيسى ابن مسعود بن مصور بن يحيى بن يونس بن يُونُس^(٢) بن عبد الله بن أبي حاج المنكلاقي^(٣) الحميرى الزاوى المالكي المولود في سنة ٦٦٤ هـ تفقه ببجاية على أبي يوسف يعقوب ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأخذ بها كثيراً عن أعلام الشريعة ثم التحق بقابس حيث أقام مدة ييٲ العلم وولى بها القضاء ثم رجع إلى مصر حيث انتصب لتدريس العلوم بالأزهر ومنها تحول إلى دمشق ليشغل منصب نيابة القضاء نحو سنتين ومنها رجع إلى مصر ليشغل نفس الخطة مع قاضى القضاة زين الدين بن مخلوف المالكي ومع خلفه ثم ترك القضاء ليتولى التدريس بزواية المالكية وأقبل على بث العلم والتأليف فيه .

وكان متفننا في الفقه وأصوله والعربية والمرايض وحكى عن نفسه أنه حفظ مختصر ابن الحاجب في ثلاثة أشهر ونصف وحفظ موطأ مالك وإليه انتهت رئاسة الفتوى على مذهب مالك في مصر والشام وتوفى رحمه الله بالقاهرة سنة ٧٤٣ .

وله من المؤلفات .

- شرح صحيح مسلم في ١٢ جزءاً وسماه (إكمال الإكمال) .
- شرح مختصر ابن الحاجب وصل فيه إلى كتاب الصيد في ٧ مجلدات

(١) ص ١٨٢ .

(٢) يوينو بضم الياء الأولى وفتح الثانية والنون مصبومة مشددة .

(٣) المنكلاقي بفتح الميم والكاف وسكون النون بينهما وتشديد لام الألف نسبة إلى قبيلة

منكلاة يقول ابن فرحون أنها قبيلة من العرب .

- مختصر جامع ابن يونس على المدونة .
 - تأليف الوثائق والمناسك وعلم المساحة .
 - رد على ابن تيمية في مسألة الطلاق .
 - مناقب الإمام مالك .
 - تاريخ جامع من بدء الدنيا إلى زمانه .
- هذا ولم نعر على نص يبين لنا المدة التي قضها بقابس مدرسا وقاضيا ،

* * *

هذه هي قابس ، دمشق الصغرى ، وجنة الدنيا ، والواحة الخالدة التي تطل على تخوم العمران من جهة ، والصحراء الرهية من جهة ثانية .

قابس الخالدة التي صارت الأحداث ، وقاومت أعاصير الدهر وصمدت لتيارات السياسة وتطاحن الدول ، وحافظت على جمالها وروعها . رغم وجودها في طريق الفاتحين والمغامرين من الشرق والغرب ، مرت عليها آلاف السنين وهي هادئة ساكنة مبتسمة ضاحكة — يتطرح البحر على عتبتها من الشرق وتستوحى الصحراء الممتدة جنوبا وغربا من جمالها ونضارتها جمالا وسحرا .

قابس الواحة التي اشترك البربر والفينيقيون والرومان والوندال — والبيزنطيون والعرب في غراسة أرضها واستغلال مياهها وبناء دورها وقصورها ، ومعالمها ومصانعها .

قابس التي عدت الأبدان بغلالها وفواكهها وحيراتها ، والأرواح بسحرها وجمالها وفتنتها أعطت لسكانها أحلى وأعذب الغلال ، وألبستهم أرقى وأجمل أنواع الأكسية والثياب بما تدر واحتها من موز وعنب وتمر وسكر ورومان ومن حرير يصنع في شتى الأشكال والألوان .

هذه هي مدينتكم (قابس) وواحتكم الطليعة يا أبناء قابس .
 فن واجبكم أن تستمدوا العزم والقوة من صراعها للدهر ، والرقعة-
 والفصل من جمالها وسحرها وبضرتها وأن تسخروا بالأحداث كما سخرت-
 بها ، وأن تحافظوا عليها وتعملوا من أجلها كما حافظت على روعتها ودرت
 عليكم من حيراتها .

فليتكم تنتهبون إلى وجوب أحياء غلاتها وصناعاتها وخدمة أرضها.
 وتجميل بناءاتها .

إن أرضها تدعوكم للتفكير في إعادة ما اضمحل من أشجارها إلى
 الوجود ، فاسألوا أين ذهب توتها الذي استغل منه أجدادكم الحرير قدر
 عليهم الخير الكثير . وإن مرفأها المعطل الآن ، يدعوكم إلى إعادته للحياة-
 حتى يصبح ملجأ للجوارى المنشئات .

والله يوفقنا ويوفقكم لما فيه السداد ، وخير العباد والبلاد .

تونس في أكتوبر ١٩٥٩

المصادر والمراجع

عربية :

- تاريخ ابن خلدون - طبعات : بولاق ، الجزائر ، وبيروت
- رحلة التيجاني - ط ثانية تونس
- الحلل السندسية - ط تونس
- ابن حوقل (المسالك) - ط ليدن ١٨٧٣ .
- البكري (المسالك) - ط الجزائر
- المقدسي (أحسن التقاسيم)
- الورثاني (نزهة الأنظار) - ط الجزائر ١٩٠٨
- الإدريسي (نزهة المشتاق)
- معالم الإيمان - ط تونس
- الكامل لابن الأثير
- البلدان لليعقوبي - ط بغداد
- السير للشماخي - ط حجرية
- رحلة العبدري - مخطوطة الأستاذ ح ح عبد الوهاب
- رحلة العياشي ج ٢ » » » »
- التاريخ الباشي - » » » »
- بسط الأرض لابن سعيد - ط المغرب
- عنوان الدراية - ط الجزائر
- نفح الطيب
- وفيات الأعيان
- خلاصة تاريخ تونس - ط ثالثة

- تاريخ ابن أبي الضياف - مخطوطة المعهد القومي للآثار
- الأعلام للرركلى - ط ثانية
- معجم قبائل العرب - ط دمشق
- الإمام المازرى - ط تونس
- صلور الأفاقة - مخطوطة ح عيد الوهاب
- ابن عبد الحكيم (فتوح مصر وإفريقيا) - ط كربونال
- الاستقصاء - المغرب
- المنتخب المدرسى - ط ثانية
- خريدة القصر (قسم المغرب والأندلس) - مخطوطة الأحمديّة تونس
- البيان المغرب لابن عذارى - ط بيروت
- ابن خردادبة (المسالك)
- المؤنس لابن أبي دينار - ط تونس
- إفريقيا الشمالية في العصر القديم - محمد محيي الدين المشرفى -
ط المغرب
- الخلاصة النفية - ط تونس
- الفتح العربى للمغرب - ط مصر
- المعجب فى أحبار المغرب
- فتوح البلدان للبلاذرى - ط مصر
- الإصابة فى معرفة الصحابة - ط مصر
- الاستيعاب فى أسماء الأصحاب ط مصر
- القلح المعلى لابن سعيد - ط مصر
- الصحراء الكبرى - ترجمة خيرى حماد - ط بيروت

فرنسية :

- Encyclopédie musulmane
- Atlas archéologique de Tunisie
- L'histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Gsell
- Les Tribus tunisiennes, Roy
- La Berbérie orientale sous les Hafsides, Brunschvig
- Le Golfe de Gabés en 1888, J. Servonnet et doct, F. Lafitte

لاتينية :

- Histoire naturelle, Plin le Ancien

الفهرس

فهرس الأعلام

ابن الشاط ٢٣ ، ١١٩
 ابن شرف . ١٢٤
 ابن الصعير . ٨١
 ابن عبد البر ٢٣٧
 ابن عبد الحكيم ١١٩ ، ١٤٨
 ابن عذارى ٤٣ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ،
 ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٧٥
 ابن عرفة ٦٩
 ابن عيشون ٨٤
 ابن عيينة ٦٧
 ابن عافية ١١ ، ١٨٢ ، ٢٦٩
 ابن الفرحاني ٣٥
 ابن فرسان ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ،
 ٢٦٥ ، ٢٦٩
 ابن الكاتب ٢٤٧
 ابن لقمان ١٥٧
 ابن مردنيش . ٢٦٥
 ابن مشكان ٢٥١
 ابن مناس ٢٤٧
 ابن فاجي ٦٩ ، ١٢٧ ، ٢٣٥ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥
 ابن نجيل ٧٦
 ابن وانمو ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦
 أبو إسحاق إبراهيم الحفصي (١) = ١٩٨
 أبو إسحاق إبراهيم الحفصي (٢) = ٢٠٣
 أبو إسحاق الحبيني ٢٤٨
 أبو إسحاق الوراقاني ٨٤ ، ٨٥ ، ٢٤٩ ،
 ٢٧٣ ، ٢٥١
 أبو بكر بن أبي العباس أحمد . ٢٠٢
 أبو بكر الحفصي (٢) . ٢٠١ ، ٢٧٥
 أبو بكر الخطيب ٢٠٢

(١)

آدم . ١٥٠
 إبراهيم بن أحمد الأعلى (٢) . ٨٤ ، ١٥٦
 إبراهيم بن الأعلب (١) ١٥٦
 إبراهيم الشريف ٢١٦
 إبراهيم بن قراتكين ١٨٦
 إبراهيم بن محمد بن ولويه : ١٦٣ ، ١٦٦
 إبراهيم بن يوسف بن ريري ١٥٩ ، ١٦٦
 ابن أبي دينار ١٠٦
 ابن أبي سرح ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ،
 ٢٣٧
 ابن أبي الصياف ٢٦٤
 ابن أبي عمارة ١٨٧
 ابن الأثير ٤٢ ، ٧٧ ، ١٦٥ ،
 ١٦٩ ، ١٧٤
 ابن أعقف ٩٨
 ابن تاهر احس ٤٣ ، ١٩١ ، ١٩٤ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٣
 ابن ثابت ٢٠٧
 ابن الجارود ١٥٣
 ابن حمديس ١٧٣ ، ١٧٦
 ابن حوقل . ٧ ، ١٠ ، ١٩ ، ٦٦ ،
 ٨٨ ، ٩٠ ، ١٣١
 ابن خرداذبة ٩٨
 ابن حلدون ٦٧ ، ٧٦ ، ١٠٥ ، ١٧٠ ،
 ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٨
 ابن دريد . ٧٦
 ابن رشيقي ١٢٤
 ابن الزبير ١٤٤
 ابن سعيد ١٣ ، ٢٣ ، ٥٣

أبو عمرو عثمان ٢١١
 أبو عنان المري ٢٠٣ ، ٢٠٥
 أبو فارس عروز ٢٠٨ ، ٢١٠
 أبو الفصل التيجاني ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
 ٣٠
 أبو القاسم البعوى ٢٤٣
 أبو القاسم السنوخي ٢٥٤
 أبو القاسم القائم ١٥٧
 أبو القاسم اللبدي ٢٤٧
 أبو قرّة الصفري ١٥٢
 أبو لسانة الأنصاري ١١ ، ١٤٧ ،
 ١٤٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤١
 أبو محمد بن أبي حفص . ١٨٤
 أبو محمد الحوهري ٢٥٤
 أبو محمد رشيد : ٢٢١
 أبو المطرف عميرة . ٨٠ ، ٧٤ ، ٢٣٤ ،
 ٢٤٤ ، ٢٦٥
 أبو يزيد الخارجي ١٥٨
 الأبي . ٦٩
 أحمد (رسول الله) ١٢١
 أحمد بابي الأول ٢٢١
 أحمد بن الحسن الحفصي . ٢١٣
 أحمد بن دباب ١٢٩
 أحمد زروق (الشيخ) . ٢٧٣
 أحمد زروق (اللواء) : ٢٢١
 أحمد الصغير ٢١٦
 أحمد الطياري ٢٦٣
 أحمد بن عبد الله بن عميرة : ٢٦٧
 أحمد بن عبد الملك بن مكى ١٦٩ ، ٢٠١
 أحمد بن ليدان . ٢٠٠ ، ٢٠١
 أحمد بن مكى بن عبد الملك ٢٠٠ ، ٢٠٢
 أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر : ٢٥٩
 إدريس بن أبي حفص : ١٩٧
 الإدريسي . ٨٠ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ،
 ١٩ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ٩٠ ،
 ١٠٢ ، ٢٥٦

أبو بكر بن مجبر ٢٦٥
 أبو جعفر المنصور . ١٥٢
 أبو الحسن العتيق ٢٥٤
 أبو الحسن القابسي . ٦٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩
 أبو الحسن القزويني ٢٥٤
 أبو الحسن المري ٢٠٢ ، ٢٠٣
 أبو الحسن الحسيني الحفصي . ٢٥٤
 أبو الحسين حيدر . ٢٢٢
 أبو حفص عمر بن أبي ركرياه ٤٤ ، ١٩٩
 أبو حفص عمر الحفصي (٢) ٤٤ ، ٢٠٣
 أبو الخطاب عيد المريز الأعلى ٤٤ ، ١٥١
 أبو ذوالهروي ٢٥٤
 أبو ركرياه الأول ١٠٠ ، ١٨٥ ،
 ١٩٦ ، ١٩٨
 أبو زكرياه البخاري ٢٥٣
 أبو رمة البلوي . ٢٣٤ ، ٢٤١
 أبو زيد الحفصي . ١٨٧ ، ٢٠٤
 أبو زيد الموحدي ١٨٤
 أبو سعيد بن أبي حفص . ١٩١
 أبو صيرة مسعد ١٨٧
 أبو ضربة محمد ٢٠٠ ، ٢٧٥
 أبو العباس أحمد بن أبي بكر الحفصي
 (١) : ٢٠٢
 أبو العباس أحمد (٢) : ٤٤ ، ٢٠٥ ،
 ٢٠٨ ، ٢٠٩
 أبو العباس الترمذي : ٢٣٥
 أبو العباس الفضل الحفصي ٢٠٢ ، ٢٠٣
 أبو عبد الله الأجدابي . ٢٥٤
 أبو عبد الله المالكي ٢٤٧
 أبو عصيدة الحفصي : ٢٧٥
 أبو علي بن حمود التونسي . ٢٥٤
 أبو علي بن خلدون ٢٤٧
 أبو علي النفتي ٦٩
 أبو عمران الفاسي . ٢٤٧
 أبو عمرو الداني . ٢٤٧

جعفر بن حبيب : ١٦١ ، ١٦٢
 جعفر بن يوسف الكلبي : ١٦٠
 جورج عيرستر : ٥٦

(ح)

حبيب بن عبد الرحمان بن حبيب : ١٥١
 حسان بن النعمان : ١٢٠ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩

الحسن بن إسحاق الميوقى : ١٨٢

الحسن بن حرب : ١٥٢
 الحسن الحفصى : ٢١١ ، ٢١٣
 الحسن بن سرحان : ٤١ ، ١٢٢
 الحسن بن عبد الرحمن بن عطرفة : ٢٤٤
 حسن عبد الوهاب : ٨٠ ، ١٧٦ ، ٢٣٥
 ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٥

حسن بن علي بن يحيى : ١٧٧ ، ١٨٠
 حسين بن علي بن تركي : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧

حسين مؤنس : ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦
 حماد بن بلقين : ٧٥
 حران بن حابر : ١١٠

حمو بن مليل : ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠
 حمودة باشا المرادي : ١٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٤١

حمودة بن علي بن حبيب : ٢١٩
 حميد بن جارية : ١٨٧

حنظلة بن صفوان : ١٥٠
 حيدر باشا : ٢١٤

(خ)

الحليل بن أحمد : ٦٧
 خير الدين ترويس : ٢١١ ، ٢١٣
 خيرى حماد : ٥٧

(١٩ - قابس)

إسحاق بن محمد الميوقى : ١٨٢
 إسحاق كاهية : ٢١٩
 إسحاق بن يونس بن علي باشا : ٢١٩
 الأعلب بن سالم التميمي : ١١٥٣
 إلياس بن حبيب : ١٥١
 أم حبيبة بنت العباس : ٢٣٨
 أمية بن عبد العزيز : ١٧٣
 إيفر (Iver) : ٢٢٤

(ب)

عاديس بن المصور : ١٥٩ ، ١٦١
 البخارى (المحدث) : ١٧٣
 البشير بن سديرة : ٢٢٥
 مرانثفخ : ٦٤ ، ٦٩
 البرزلى : ٦٩ ، ٢٢٥
 البكرى : ٧ ، ١٠ ، ١٦ ، ١٩ ، ٥٢ ، ١٦٣ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ١٦٠ ، ١٦٣
 اللادري : ٢٣٦
 بلقاسم الأقرح : ٢٢٥
 بلقاسم بن محمد بوغلاق : ٢٢٥
 بلقين بن ريرى : ١٥٩
 بيلين (Pline) : ٢٥ ، ١١٣

(ت)

قاسم بن إسحاق الميوقى : ١٨٢
 التيجان (عبد الله) : ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ١٠٢ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٩٩
 تقي الدين بن شاهنشاه : ١٨٦
 تميم بن المعز : ٤٢ ، ٤٣ ، ١٦٤
 توران شاه : ١٨٦

(ج)

جبارة بن إسحاق الميوقى : ١٥٢
 جرجير : ١٤٢ ، ١٣٥ ، ٢٣٧

سلمة بن قطفة . ١٥٣
 سليم الثاني (السلطان) : ٢٢٣
 سليم بن منصور : ١٢٢
 سليمان بن أحمد الخافعي . ٢١٨
 سليمان بن رافع بن دباب : ١١٠
 سليمان بن علي باشا : ٢١٨
 سنان باشا ٢١٤
 سيدي إدريس ٣٧
 سيدي بشار . ٦٣
 سيدي التواتي : ١٠١
 سيدي الحربي : ٣٤
 سيدي عبد السلام : ٣٤ ، ٥٢
 سيدي علي : ٦٩
 سيدي علي الفرجاني ٣٥
 سيدي علي النوري . ٣٩
 سيدي قنار ١١ ، ٨٧
 سيدي مبارك : ٩٦
 سيدي مرزوق : ٧٠
 سيدي مهذب . ٩٥ ، ٩٧
 سيدي هريش ٢١
 سيدي يحيى . ١٠٢
 سير بن إسحاق الميورقي : ١٨٢

(ش)

شاه ملك : ١٦٩
 الشيبيني : ٦٩
 شرلكان : ٢١١
 الشماخي : ١٢٢ ، ١٥٣
 شمام (القاضي) . ٢٥٠ ، ٦٣٠

(ص)

الصادق باي . ٢٢١ ، ٢٢٢
 الصادق بن محمد بن خليفة . ٢٢٦
 صلاح الدين الأيوبي : ١٨٦
 صهيب بن جابر بن عائذ : ١٠٩

(د)

درغوث باشا : ٢١٣
 الذهبي بن أبي عمارة . ١٨٧ ، ١٩٩
 الذعاجي : ١٠٩
 ديل (Diehl) ١٤١

(ذ)

دياب بن غانم . ٤١

(ر)

رافع بن مكى : ٥٢ ، ٧٦ ، ١٧٠
 رجب بن ماضي . ٢١٧
 رحومة بن الهيمية : ٢٢٨
 رشيد بن كامل ٧٦ ، ١٧٥
 روا (Roy) ٩٥
 روحار : ٥٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧
 رويغ بن ثابت . ١٤٦

(ز)

الزعبى . ٦٩
 زكرياه السيفاني (أبو يحيى) . ٩٩ ،
 ٢٧٥ ، ٢٠٠ ، ١٩٩
 زيادة الله الأغلبى الأول : ١٥٥ ، ٢٥٢

(س)

سالم بن عبد الله بن عمر . ٢٣٩
 السائب بن أبي ليابة : ٢٣٩
 سمعون (الإمام) . ١٥٦ ، ٢٥٣
 سديرة (شيخ الهامة) : ٢٢٥
 سرفوني (Sevounet) . ٦١
 سعد بن معاذ . ٢٣٩
 السكندلي . ٢٦١
 سلام بن فرحان : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٥٤

عد الله بن عمر بن الخطاب . ٢٣٩
 عد الله بن كعب بن مالك ٢٣٩
 عد الله بن محمد القابسي - ٢٥٣
 عد الله بن محمد المهلسي ٦٧
 عد الله بن محمد الميورقي - ١٨٢
 عد الله بن نزار الهواري ٢٥٨
 عد الله بن يعمور . ١٩٩
 عد الملك بن عثمان بن مكي ١٩٩ ، ٢٠١
 عد الملك بن مروان . ١٥١
 عد الملك بن مكي : ٢٠١
 عبد المؤمن بن علي : ١٢٩ ، ١٧٦ ،
 ١٨٠ ، ٢٦١
 عبد الواحد بن أبي الحسن القابسي . ٢٤٩
 عبد الواحد بن زكرياء الحبياني ٢٠٢
 عبد الواحد المراكشي ١٨٦
 عبد الوارث بن حبيب . ١٥١
 عبد الوهاب بن رستم ١٥٣
 عبد الوهاب بن مكي بن عبد الملك . ٤٤ ،
 ٧٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 عبيد الله بن العباس : ٢٢٨
 عبيد الله المهدي ١٥٧ ، ١٥٨
 عثمان بن أبي القاسم بن مكي ١٩٨
 عثمان بن عفان (رض) : ١٤٦ ، ٢٣٦
 عروح (أخو حير الدين) ٢١١
 عطية بن جعفر ١٦٣ ، ١٦٦
 عقبة بن نافع ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠
 عكاشة الصمري ١٥٠
 علي بن أبي طالب ١٤٦ ، ٢٤٠
 علي بن إسحاق الميورقي : ٤٥ ، ١٨٢
 علي ناشا (والى الجزائر) . ٢١٣ ، ٢١٦
 علي باشا انقرمانلي : ٢٢٠
 علي باي بن حسين بن علي : ٢١٩
 علي برعل . ٢٢٠ ، ٣ ، ٢٢٥
 علي الحضري ٢٢٤
 علي بن حليمة النعالي : ٣٥ ، ٢٢٥
 علي بن رزق الرياحي . ١٢٣

صولة بن عد اللطيف ٢٢٨

(ط)

طلحة بن إسحاق الميورقي ١٨٢

(ع)

عاصم بن جميل ١٥١
 عامر بن محمد بن عسكر بن جامع . ١٨١ ،
 ٢٥٦
 العباس بن عبد المطلب ٢٣٨
 عبد البر بن فرسان ١٨٦ ، ١٨٨ ،
 ١٩١ ، ٢٦٩
 عبد الحارث بن حمديس ١٧٣
 عبد الحق بن سعين . ٢٧٤
 عبد الرحمن بن أبي لسانة ٢٣٩
 عبد الرحمن بن حبيب . ١٥٠
 عبد الرحمن بن رستم ١٥٢
 عبد الرحمن بن العباس : ٢٣٨
 عبد الرحمان بن عبد الواحد ١٩٧
 عبد الرحمان بن محمد بوعلاق : ٢٢٥
 العسري : ٧٤
 عبد العزيز الجلولي . ٢٢٨
 عبد العزيز عبد العظيم . ١٩٢
 عبد العزيز الكعبي ٢٥٤
 عبد الله بن أباص ١٥١
 عبد الله بن أبي سرح . ١١٩ ، ١٤٢ ،
 ١٤٨
 عد الله بن أبي مسلم ٢٦٢
 عد الله بن إسحاق الميورقي ١٨٢
 عد الله بن الزبير ١٤٦
 عبد الله الصنهاجي . ٢٥١
 عبد الله بن العباس ٢٣٨
 عبد الله بن عبد العزيز ١٠٠ ، ١٠٢
 عد الله بن عبد المؤمن . ١٨٠ ، ٢٥٤
 عبد الله عبر الحفصي ١٩٧

فلفل بن سعيد . ١٦١ ، ١٦٢

(ق)

قاسم بن عيسى بن ناجي . ٦٩
القائم بأمر الله الفاطمي . ١٥٧
قاضي بن محمد بن ولويه . ١٦٣ ، ١٦٦
القبطان رودبير . ٥٥
قثم بن العباس . ٢٤٨
قراقوش . ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٦٦
قزال (Osell) : ٩٠
قطمان بن سلمة . ١٥٣
قيرين (Guérin) . ٦٢

(ك)

الكاهنة : ١٤٦ ، ١٤٧
كسيلا . ١٤٦ ، ١٤٩

(ل)

لافيت (Lafitte) . ٦١ ، ١٣٧
ليابة بنت الحارث . ٢٣٨
لسان الدين بن الخطيب . ٢٦٨
لويس كيرمران . ٥٧

(م)

المثنى بن تميم : ١٦٨ ، ١٧٠
محرور بن خلف . ٢٤٦
محمد (رسول الله) . ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
٢٤٣
محمد أبو عبيدة . ٢٠٠
محمد بن أبي الحسن التيجاني (أبو الفضل) :
٢٧ ، ٢٧٥
محمد بن أبي العرب . ٨١
محمد بن أبي الميوس : ٢٠٦
محمد بن إسحاق الميوزقي . ١٨٢

علي بن سالم : ١٠٦

علي السعي . ٢١٦٠

علي بن سليمان الداعي . ١٥٧

علي بن غلام . ٢٢٢

علي بن مراد بن خودة باشا المرادي : ١٠٨

علي النهيري . ٢٧٢٠

علي بن يحيى بن تميم : ١٧١

علي بن يوسف بن قاشقين . ١٨٢

الهاد الأصماني . ١٧٣

عمر بن أبي العباس أحمد الثاني . ٢٠٦

عمر بن إسحاق الميوزقي . ١٨٢

عمر بن حسن بن الطيب . ٢٤٣

عمر بن المعز بن ياديس : ٤٣ ، ١٦٥

عمر بن العاص : ١١٩ ، ١٤٨

عمرو بن عوف : ٢٣٩

عمون (إله صيني) : ١١٧

العمياشي . ١٠٢ ، ٢٤٢

عياض (القاضي) : ٢٤٦

عيسى (مولي بني جامع) : ١٧٨

عيسى بن أبي عيسى بن نزار : ٢٥٤

عيسى بن جعفر . ٦٧

عيسى بن مسعود (أبو الروح) : ٢٧٨

(غ)

الغبريني . ٦٩ ، ٨٤

عومة الحمودي . ١٠٨ ، ٢٢١

(ف)

فراجات المأمي : ٢١٥

فرديناند دي ليسبس . ٥٥

الفريق سليم . ٢٢١

الفضل الحفصي . (أبو العباس) : ٢٠٣

٢٣٨

الفضل بن روح المهلبسي . ١٥٣

الفضل بن العباس : ٢٥٤

مرسى (Mercier) : ١٤٠
 المستنصر بن أبي ركرياه الحفصي : ١٩٨
 ٢٦٧ ، ٢٧٤
 المستنصر بن الناصر الموحدى ١٩٧
 مسعد بن الأورق الضريسي : ١٨٧
 مسلم (المحدث) : ٢٤٣
 مسلم بن أبي كريمة . ٤٤
 مصطفي باشا : ٢١٤
 مصطفي رئيس . ٧١
 مصطفي بن متيشة . ٢١٧ ، ٢١٨
 معاوية بن أبي سفيان : ١٣٦ ، ٢٣٧
 ٢٤٠
 معاوية بن حديج : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧
 ٢٣٧
 معد بن العباس . ٢٣٦
 المعتمد بن عباد . ١٧٣
 المعز بن باديس : ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٣
 المعز بن محمد بن ولويه : ١٦٣ ، ١٦٦
 معمر بن رشيد بن جامع : ١٧٧
 المقدسي : ٧ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ١٢٦
 مكى بن أحمد بن عبد الملك : ١٩٩ ، ٢٠٠
 مكى بن فرح بن ريادة الله : ١٩٧
 مكي بن كامل بن جامع : ١٦٨ ، ١٧١
 الملك المعظم (أخو صلاح الدين) . ١٨٦
 المنصور بن إسحاق الميوقى . ١٨٢
 منصور الطنبجى . ١٥٥
 المنصور بن القائم العاطمى : ١٥٨
 منصور بن ماواس : ١٥٩ ، ١٦٦
 المنصور بن الناصر الحادى : ٧٥
 منصور الهوش : ٢٢٦
 مؤنس بن يحيى . ٤٣ ، ١٢٢ ، ١٦٠
 ١٦٣ ، ١٦٧
 ميمون بن زياد الصخرى : ١٧٥
 ميمونة (أم المؤمنين) : ٢٣٨
 الميوقى : ١٠٠ ، ١٨٢ ، ١٩٦

محمد بن الأشعث : ١٥٢
 محمد بن الأعلب الأول : ١٥٦
 محمد بن الأمين : ٢٢٩
 محمد بنى الثاني . ٢٢١
 محمد بنى بن مراد بن حمودة ناشا : ٣٥
 ١٠٨ ، ١١٥ ، ٢٤٣
 محمد بنوعلاق : ٢٢٥
 محمد الحبيب . ٢٢٩
 محمد بن الحسن الحفصي : ٢١١ ، ٢١٤
 محمد حرقة دار : ١٠٨ ، ٢٢١
 محمد بن حلف (ابن مشكان) . ٢٥٢
 محمد بن خليفة : ٢٢٥ ، ٢٢٧
 محمد بن رعاء القاسى : ٢٥٣
 محمد بن رشيد بن جامع . ١٧٧ ، ٢٥٨
 محمد بن ريادة الله القاسى : ٢٥٢
 محمد سبط الماردينى : ٢٦٤
 محمد بن شكر : ٣٥ ، ٣٦
 محمد بن عبد الصمد بن بشير : ١٧٣ ، ١٧٥
 محمد بن عبد الكريم (القاسى) : ٢١٩
 ٢٢٠
 محمد بن عبد الكريم (المهدي) : ١٨٤
 محمد بن عبد الله الكاتب . ١٧٢
 محمد بن الطاهر : ٧٩
 محمد بن علي (ابن الشاطى) : ٢٣
 محمد بن علي باشا . ٢١٩
 محمد بن علي بن حاد : ٧٥
 محمد بن علي بن يحيى المسوق : ١٨٢
 محمد المرالى : ٢١٦
 محمد المكئى الشافى . ٢١٤
 محمد بن نصر القاسى : ٢٦٤
 محمد بن يحيى التيماشى . ٢٦٠ ، ٢٦١
 محمود بن طوق بن نقيه : ١٨٧
 مخلوف بن الكناد . ٢٠٢ ، ٢٠٥
 مدافع بن رشيد بن جامع : ١٢٩ ، ١٧٨
 ١٧٩ ، ١٨٢ ، ٢٥٤
 مراد أبو بالة : ٥٢١

يحيى بن إسحاق الميورقي . ٤٣٠ ، ١٨٢ ،

١٨٥ ، ١٩٠

يحيى بن تميم . ١٦٨ ، ١٧٣ ،

يحيى التيماشي . ٢٥٩

يحيى بن عبد الملك بن مكي . ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،

يحيى بن علي الأندلسي . ١٦٢

يحيى بن عمر . ٢٥٣

اليقوي . ٧ ، ١٩ ، ٦٦ ،

يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن : ٤٥ ،

١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٦٦

يوسف (مولي أبي جامع) . ١٧٧

يوسف بن الأبار . ٢٠٧

يوسف بن إسحاق الميورقي : ١٨٢

يوسف الجلي . ٢٢٩

يوسف بن حسن . ٢٠٠

يوسف بن زبيري . ١٦٢ ، ١٧٨

يوسف بن عامر . ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٦

يوسف بن عبد المؤمن : ٢٦٦

يوسف اليقوي . ٢٢٦ ، ٢٢٧

يوسف بن محمد بن أبي العرب

يونس باي بن علي باشا : ٢١٧ ، ٢١٩

(ن)

الناصر بن عتاس الحمادي . ٧٥

نافع (بولي سالم بن عبد الله) . ٢٣٩

نائل بن عامر بن دياب . ١٢٩

نصر المقدسي . ٢٥٤

نور الدين زنكي . ١٨٦٠

الهادي العمري . ٨٠

(هـ)

الهادي العمري . ٨٠

الهادي المبروك . ٢٢٨

هلال بن عامر بن صمصمة : ١٢٢

(و)

الواثق بن المستنصر الحفصي . ١٩٨

الواثقي . ٦٩

الورثاني . ٨ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ١٠٢ ،

٢٤٢ ، ١٠٧

(ي)

ياقوت (صاحب المعجم) . ١٤٣ ، ٢٥٣

يانيب الصقلي : ١٦١ ، ١٦٢

فهرس القبائل والفرق

أولاد سعيد ٢١٨
 أولاد ضو ١١٠
 أولاد عبد الرحيم . ٩٧
 أولاد عبد القادر : ٩٧
 أولاد عبد اللطيف . ١٠١ ، ١٠٢
 أولاد عمر ١١٠
 أولاد عون : ٢١٧
 أولاد عيار ٢١٧
 أولاد غريب ١١٠
 أولاد مبارك . ٩٧
 أولاد محمد : ١٠١ ، ١٠٢
 أولاد معمر : ٢١٨
 أولاد مناع : ٢١٨
 أولاد يحيى : ٩٧
 أولاد يعقوب : ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥

(يب)

الرائية : ١٣٠
 البربر : ٦٥٥ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١١٣ ،
 ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ،
 ١٤٩ ، ١٨٦ ، ٤٧٩
 برغواطة : ١٥٩
 القلة : ١١٠
 البكاكشة : ٩٦
 بنو أحمد . ١٢٩
 بنو حارية : ٢٠٧
 بنو جامع : ٧٦ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،
 ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ،
 ٢٥٤
 بنو خطاب : ١٨٧
 بنو دياب : ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٨٧
 بنو الرند : ١٨٦

(١)

آل التجاني : ٢٦ ، ١٠٠
 الأماضية - الأباضيون : ١٢٦ ، ١٥٠ ،
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٧
 الأتراك : ٣٧ ، ١٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 الأتيج . ١٢٢ ، ١٦٤
 الأحدين . ٩٦
 الأوربيون : ٦٢
 الأراقة . ١٥٠
 الاسان : ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤
 الأصابع . ١١٠
 الأعراب . ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٤
 الأعالة . ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٠
 الافرنج : ١٨٠ ، ٢١١ ، ٢٦٠
 الأمويون : ١٥٠
 الأوس . ٢٣٩ ، ٢٤٣
 أولاد ابن خود . ١١٠
 أولاد بوسعادة : ٩٧
 أولاد بوعسيد . ١٥١
 أولاد بيدان : ١٣٠
 أولاد التوحى : ٩٧
 أولاد الجبالي : ٧٣
 أولاد الحاج : ٣٤
 أولاد جامد : ١٠١
 أولاد حديدان : ١٠٢
 أولاد حكيم . ٢٠٤
 أولاد حميد : ٩٧
 أولاد حليقة : ٩٩
 أولاد رجب . ٩٦

الحزم . ٩٥٠ ، ٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣
 الحسينيون . ٢١٦ ، ٢٢٣
 الحفصيون . ١٢٨ ، ١٨٥ ، ١٩٩
 ٢٠٩ ، ٢٠٩
 الحجارة : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦
 إحناشة . ٩٧ ، ٩٩
 الحوازم : ١١٠
 الحوامد . ٩٧

(خ)

الخرجة : ١١٠
 الخوارج . ١٥١

(د)

دياب . ١٨٨ ، ٢٠٧
 دريد : ١٢٢ ، ٢١٨
 الدهامة . ٩٧
 دهان : ١٦٧ ، ١٧٥

(ذ)

الذواودة . ٢٠٤

(ر)

الرتيمات . ١١٠
 الرستميون . ١٥٢ ، ١٥٣
 الروم : ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٧٢
 الرومان : ٦١ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ٢٧٩
 رياح - الرياحيون : ١٢٢ ، ١٦٣ ، ١٦٧

(ز)

زغبة : ١٢٢ ، ١٦٤
 الزمازمة : ١١٠

نوسليم . ١٢٠ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٩٠
 نواعمر (الصنهاجيون) : ١٥٨ ، ١٦٦
 سو عمريز عوف : ٢٣٩
 بوقرة . ١٧٧
 بنو قريظة . ٢٣٩
 بنو لقمان : ١٥٧
 بنو مرين : ١٩٨ ، ٢١٠
 بنو مكى : ١٢٩ ، ١٤٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
 ٢١٠ ، ٢٠٠

بنو هلال : ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٦٠ ، ٢٥٤
 بيوورتاجين . ١٠٥
 بوشاح (الوشاحيون) : ١٢٩ ، ٢٧٦
 بوزيد . ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٠
 ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦

بنو يعرب . ١٥٨
 البينيات . ٩٧
 البيزنطيون . ٦ ، ١٠٥ ، ١٣٩
 ١٤٥٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧

(ت)

التبائية . ٩٧
 للتراحة : ١١٠
 التمامة : ٩٧
 توجين . ١٠٥

(ج)

الجزائريون . ٧٣
 الجلائلة . ١٠١
 الجماعة : ١٢٩ ، ١٥٧ ، ١٧٠
 الجنويون : ٢٠٥ ، ٢٢١

(ح)

الحداية : ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧
 الحرشان : ١١٠

العتايدة ٩٧
 المعجم ١١٧
 العدناية ١٢٢ ، ١٩٠
 عدى (قبيلة) ١٦٤
 العرب ٩٥ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٦٣
 ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ، ٢٧٩
 المرايرة ١٠١
 المصايدة ١٠٢
 علاق (قبيلة) . ٢٠٤
 الملاية ١٠٢
 العيايدة ٩٧ ، ٩٩

(غ)

العنادر : ١٠١
 العانشة : ٩٥
 العياليف : ١١٠

(ف)

الفاطميون . ١٢١ ، ١٥٧ ، ١٥٩
 الفراشيش : ٢١٧
 الفرسيون ٣٩ ، ٥٥ ، ٨٦ ، ٩٨
 ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
 الفيقيون ٦ ، ٦٥ ، ١١٣ ، ١٣٦
 ٢٧٩
 المهريون ١٥٠

(ق)

القرطاحيون ١١٦٠
 قريش ٤١
 قريظة (سوقريظة) ٢٣٩
 القواسم ٩٩٠

(ك)

كتامة (الكتاميون) ١٥٧
 الكرايمة ١٠١

زناتة - الزناتيون . ١٠٥ ، ١١٣ ،
 ١٥٨
 زواوة (قبيلة) : ٢٢٠

(س)

سلم (بنو سلم) : ١٠٥ ، ١٨٨
 السانحة : ١١٠
 السواصي : (قبيلة) : ٢١٨
 السوالم : ٩٦ ، ١٠١

(ش)

الشاتوية : ٩٧
 شداد (حزب) : ٢١٧
 الشرائكة : ٩٩
 الشرفاء : ٩٧
 الشمارة : ١٠١
 الشمل : ١١٠
 الشلاخشة : ١١٠
 الشلالية : ١٠٠
 الشمامة : ١٣٠
 الشواشين : ١١٠
 الشوامخ : ٩٦
 الشياب : ١١٠
 الشيمة : ١٢٠ ، ١٥٧

(ض)

صنهاجة - الصنهاجيون : ٧٦ - ٧٧ ،
 ١٢٢ ، ١٥٩ ، ١٦٣
 الصبية : ١٠٩

(ط)

الطواليبة : ١٠١

(ع)

المبيد (فرقة) : ٦

المكرب : ٢٠٤

الكواكبية : ١٠١

(ل)

اللاتينيون : ١٣٨ ، ١١٥٠

لواتة - اللواتيون : ١١٣ ، ١٣٠ ، ١٩٧

(م)

ماجرج : ٢١٧

المائة : ٩٧ ، ١١٣

المذاليت : ٢١٧ ، ٢٢٠

المحاميد : ١٠٨ ، ١٨٧

المراديون : ٢١٥

المرازيق : ٢١٧ ، ٢٢٦

المراشدة : ٩٧

المسلمون : ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ،

١٥٣ ، ١٧٣

مطاطة (قبيلة) : ١١٣

المهاذبة : ٩٥ ، ٩٧

المهالبة : ١٥٣

الموادسية : ١٠٠

الموامنة : ١٠١

الموحلون : ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ،

١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٥٦

(ن)

النصارى : ١٧٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٥

النكار : ١٥٨

نعات : ٣٥٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٥

نفاوة (قبيلة) : ١٨٤ ، ٢٢٥

نفوسة (قبيلة) : ١٤١ ، ١٤٩ ، ١٩٣

النوائل (بنو نائل)

(هـ)

الهلاليون : ٤٠ ، ٤١ ، ٧٨ ، ١٢٩ ،

١٦٣

الهاماة : ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥

هواراة : ١٤١ ، ٢٥٨

(و)

الودارئة : ١١٠

ورثاك : ٢١٧

ورعمة : ١٣٨ ، ٢١٨

ورفحومة : ١٥١

الوندال : ١١٥ ، ١٣٨ ، ٢٧٩

(ي)

يوسف (حزب) : ٢١٧

اليوفانيون : ١١٤

فهرس السدان والأماكن

البهاير ٤٩	(١)
ندر ٢٣٩	الأحدية (مكتبة) ٢٦١ ، ٢٥٤ ، ١٧٢
برقة ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٦٢	الأريس ٦٩٠
بسكرة ١٨٤	أريولة - ٢٦٧
بشيمة ١١٠	أسبانيا ١٦ ، ١٧٦
الصرة ٤٤	الاستانة ١٠٨ ، ٢١٤
الطحاء . ٧٩	الإسكندرية ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٧ ، ٢٧٨
عداد ١٩٢ ، ٢٥٤ ، ٢٧٠	الأعراض . ٣٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٧
لدا لخصر ٣٧	إفريقيا الشمالية : ١١٤ ، ١١٤ ، ٢١٠
بلنسية ٢٦٧	إفريقية : ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٣٧ ، ٢١٠ ، ١٨٦ ، ١٦١
بذرت ١٥٤ ، ٢١٣	الأماقس ٤٩
بنقردان ٩٣ ، ٢٢٦	أم الشاه ٤١
برشمة : ٩ ، ٣٦	الأندلس ٤٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٥
بو عبد الله . ٣٤	أوجلة ١٨٧
بو عطرش ١١٠	أوذنة . ١٥٥
يوقرفة ١١٠	أوراس ١٥٨ ، ١٥١
بولاق . ١٦٣	(ب)
بيروت ٥٧	باب البحر . ٩١
بزنطة ١٤٥	باب السات . ١٨٥
(ت)	باب تونس : ٢١٩
تاحرة . ١٨٤ ، ١٩٦	باب الشرق : ٧١
تاملات ٦٥	باحة ٦٩
تاكروت . ٤٩	باثاما (فقال) : ٥٥
تالة ١٦١	بحاية . ٧٥ ، ١٨٣ ، ٢١٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨
تاهرت . ٦٥ ، ١٥٢	
تاوجوت ٦٥	
تاووديني : ٥٧	
تبسة : ٦٩	
تيليو ١٤ ، ٤٦ ، ٩٥	
تجفت : ٦٥	

حرف الصحابة . ٢٣٨
 الحريرد . ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٨٤ ، ١٩٨ ،
 ٢١١
 الجزائر ٧٦ ، ١٨٣ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ،
 ٢١٣
 الجريرة (العربية) : ٧٣
 الحفارة ٢٢٥
 خلاص ٢١٧
 حلولا ٢٤١
 جمال ٢٢٠
 جسوة : ١٦٥
 الحواولة (قرية) : ٣٤

(ح)

الحامة : ٤٩ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٥٤ ،
 ١٨٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٣
 حامة الحريرد ١٠٤
 الحس (سجين) ٣٨٠
 الحصر (بلد) . ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
 ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢١١
 حمام الحامة ١٠٦ ، ١٠٧
 حمزة (قرية) ٧٥٠
 حيدران (حل) : ١٦٣

(خ)

الخريفة (بالصرة) : ٦٧
 حرة الماء ٧١ ، ٨٢
 حط مارث ١٠١
 خليج سرت ٤٩
 خليج قابس ٤٩ ، ٩٠
 الخندق (بالحامة) . ١٠٦
 الخندق (بقابس) : ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٣
 حنقة عائشة ٨٧

تطاوين ٦٥٠ ، ٩٣ ، ٢٢٦
 تلمسان : ٤٤ ، ٧٦
 تمكتو ٥٧
 تمزوط ٦٥
 تامة ٢٧٤
 توزر . ٢٣ ، ١٥٤ ، ١٨٣
 تونس . ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
 ١٨٢ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ،
 ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٦٧

(ث)

الثانوية الزيتونية (بالحامة) ١٠٦
 الثانوية الزيتونية (بقابس) ٩٣
 ثكنة الجيش : ٩١
 ثكنة العويات . ٩٨

(ج)

حارة . ٧٠ ، ٩١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
 جارة القديمة ٣٧٠ ، ٢١٥
 الجامع الأعظم ٧٠
 جامع جارة : ٧١
 جامع الحامة : ١٠٦
 جامع الزيتونة ٢٤ ، ١٧٣ ، ٢١٣ ،
 ٢٦٤
 جامع سيلى إدريس . ٣٧
 جامع الشياب ١٠٦
 جامع القصر : ٢٤
 جامع المنزل ٧٠ ، ٨١
 حياة سيلى مرزوق : ٧٠
 حل نفوسة ١٨٤٠
 جبل وسلات ١٧٥٠
 جربة ٩٣ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ٢٠٢ ،
 ٢١١ ، ٢١٤
 جرجيس ٩٣ ، ١٤١ ، ٢١١ ، ٢٣٨
 الجرسين ١٠٩

إريق الدخلاية : ٨١ ، ٩٩

زلة : ١٨٧

رحلة الطواهرية ٢١

ذفرور . ١٦٢٠ ، ٢٠٧

زويلة نبي خطاب ١٨٧

(س)

ساحة عنبر . ٢٦٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٧٧

الساحل ١٤٠ ، ١٥٥

ساقية الحبي ٢٤

ستة ٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٧٤-

سيطة . ١٤٢ ، ٢٣٧

سحلماسة ١٨٤ ، ١٩٨

السق (جل) : ٤٩ ، ٨٧

سلا . ٢٦٧

سلع (حل) ٢٧٤

السماط ١١٠

سترية ١٨٧

سور الحامة ١٠٦

سور قابس . ٧١ ، ١٠٠

سوسة : ٦٩ ، ١٤٦ ، ٢٢١ ، ٢٥٣-

سوق حارة : ٩٢ ، ١٨٩ ، ٢٥٠

سوق الحامة ١٠٦ ، ١٠٩

سوق الحريريين ٧٠٠

سوق الحصر ١٨

سوق الطارين ١٦

سوق المنزل . ٧٨ ، ٩٢

السويس (قال) . ٥٥

سيدي أوليانة . ٧٠ ، ١٣٥ ، ١٨٩

٢٤٠

سيدي الحرق : ٣٤

سيدي عبد السلام . ٣٤ ، ٩٢

سيدي قاو . ١١

سيدي مهذب . ٩٥ ، ٩٧

سيدي هريش : ٢١

(د)

دار ابن مكي ٤٥٠ ، ١٩٩

دار الكتب الشرقية : ٢٥١

دار الوالي : ٣٨

الدندنة ١٠١

دحر ١٣٨ ، ١٥٠-

دمشق . ١٨١ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦

دمياط . ٢٧٢

حوز : ٩٣

(ر)

راس الوادي ٣٢ ، ٨٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤

رباط الفتح ٤٥

الرحا . ٢٣ ، ٢٩

رقادة : ١٥٦

رومة . ١١٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧

رؤوس البيوت ٢١ ، ٢٢

(ز)

الزاب ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٨٥

المرارات ١٠١٠ ، ١٠٢

زاوية سيدي أبي إسحاق : ٨٥ ، ١٨٩

٢٥٠

زاوية سيدي أبي علي النقطي . ٦٩٠

زاوية سيدي أبي لباية ١١ ، ٢٤٢

زاوية سيدي عبد الله بن عبد العزير

زاوية سيدي علي المرحاني ٣٥

زاوية سيدي علي النوري . ٣٩

زاوية سيدي مبارك . ٩٦

الزركين ١٠١

زرود . ٢٧٤

زريق البرانية : ٩٩

طنبلة ١٥٥

طنحة : ١٩٨

طينة (بالشام) ٢٧٢٠

(ظ)

الطاهر (جهة) . ١٨٨

طهرة قرارش ٢٧٠ ، ٧١ ، ٨٥ ، ٩١

٢٥٠ ، ١٨٩

(ع)

العاسية ١٥٥

عرام . ١٠١ ، ١٠٢

العقة ٥٦

عمره : ١٨٣

عانة ٢٠٣ ، ٢١٣

العوينات ٩٦٠ ، ٩٨

عين الأمير : ٢٥ ، ٨٠ ، ٨٣

العين البيضاء . ٢١

عين الترايكة ٢١

عين تمولة . ٩٩

عين حامد : ٢١

عين رايد . ٢١

عين الريتونة ٩٨

عين سعد ٢١٠

عين سلام : ٢٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٥ ،

٨٠ ، ٨٢ ، ٩١ ، ٩٢

عين سيلى هريش . ٢١٠

عين صالح ٥٣٠

عين المطرية ٩٦

عين المهشومة : ٢١

عيون وذرف . ٩٧ ، ٩٨

(غ)

عابة قابس ٩ ، ١٠ ، ٨٧ ، ١٩٥ ،

٢٠٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٣

(ش)

شاطة . ٢٦٧

الشام . ١٨٦ ، ٢١٩ ، ٢٣٧

شانشو : ٨٧ ، ٤٩

الششارة : ٣٠ ، ٣١

شط الجريد . ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠٤

شط الحامة ٤٩ ، ١٠٤

شط الصحيح : ٤٩ ، ١٠٤

شط ملنج : ٥٧

شقورة . ٢٦٧

شنتش ٥٠ ، ٩١

شنتى : ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٤

(ص)

صبرة (بترابلس) . ١٤١

صبرة (بالقيروان) ٢٤٨

الصعيد : ١١٨ ، ١٤٢

صفاقس : ٦٥ ، ٨٦ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ،

٢٢٦ ، ٢١٣

صقلية . ١٧٢ ، ١٧٩ ، ٢١٣ ، ٢٤٦

(ض)

ضريح سيلى أبى لبانة : ١١ ، ٩١ ،

٢١٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠

(ط)

الطباقة (جبل) : ٤٩

طبة : ١٥٤ ، ١٦١

طوابلس : ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٥٤ ،

١٥٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٣ ،

٢١٩ ، ٢٢٦

الطريق رقم (١) : ٢٣ ، ٣٥ ، ١٠٠

قصر عيسى بن جعفر : ٦٧
 قصور الماركة : ١٢٩
 قطيس . ١٨٨
 قفصة : ١٥٤ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ،
 ٢٢٥ ، ٢١١
 قلعة بي حاد . ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢
 قلعة سان ١٩٩
 قلعة فلاترر . ٥٧
 القنطرة - ٦٨ ، ١٤١
 القهانة - ٦٨ ، ٩١
 القيروان . ٧ ، ١٠ ، ١١٩ ، ١٤٦ ،
 ١٤٩ ، ١٦٣ ، ١٥١ ، ١٧٤ ،
 ١٩٨ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٣٤
 قيطون ٣٤

(ك)

كاظمة : ٢٧٤
 الكاف . ٣٥٠ ، ٢١٦
 كنانة - ١٤ ، ١٠٠ ، ١٩٦ ،
 كدية مانع ٢١٨

(ل)

لالة : ١٩٦

(م)

مارث : ٩٤ ، ١٠١ ، ٢١٩
 مالطة . ٢١٣
 محسن ١٨٨
 محطة القطارات - ٧١ ، ٩١
 المحمدية . ١٥٥ ، ٢١٤
 المحيط الأطلسي ٥٧ ، ١٤٨
 مدرسة أني لانة : ٧١ ، ٢١٥ ، ٢٤٣ ،
 مدرسة المنزل . ٨٠ ، ٢٢٤ ،
 مدنين . ٩٣ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٨
 المدور : ٩٩

غارماني : ٧٥
 عدامس : ١٤٨
 الغرايات : ٢٣٨
 عرناطة : ٢٥٢ ، ٢٦٧
 الفندري : ٢٠١
 غنوش : ٩٠ ، ٩٠

(ف)

الفجيج : ١١٠
 فرنسا : ٣٥ ، ٨٦ ، ١٠٨
 قران : ١٤٧ ، ١٨٧

(ق)

القاهرة : ٢٣ ، ٢٢٤
 قبلي : ٤٩ ، ٩٣ ، ١٠٨ ، ٢٣١
 قرطاجنة : ٦ ، ١١٤ ، ١٣٦
 قرعة الزركين : ٩٩
 القسطنطينية - ٢٤ ، ٢١٩ ، ٢٣٧
 قسطنطينية : ١٥٤ ، ١٨٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢٦٧
 القشتيل : ٢٠٥
 القصة (بالهامة) : ١٠٦
 القصة (بقابس) : ٢١٧
 القصر (بالهامة) : ١٠٦
 قصر ابن عيشون : ٨٤
 قصر أولاد الجالي ٧٣ ، ٩١
 قصر الثنائت (تونس) ١٨٥
 قصر تيماش : ٢٥٩
 قصر زوجونة - ٨٤
 قصر سجة : ١٩ ، ٨٥
 قصر العروسين (بقابس) : ٧٢ ، ٧٥ ،
 ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ،
 ٢٠٧
 قصر العروسين (بالقلمة) : ٧٥ ، ٧٦ ،
 ١٧٦

المنار (بالقلمة) : ٨٣ ، ٧٥
 المنارة : ٨٣
 المنزل : ٢٢ ، ٧١ ، ٩١ ، ٢٢٣ ، ٢٤١
 المنتير : ٢١٣ ، ٦٩
 المهديّة : ١٥٨ ، ١٦٣ ، ٢٠٣ ، ٢١١
 موريطانيا : ٥٧
 الميعة : ٩٧
 ميورقة : ١٨٢

(٥٠)

مجد : ٧٣ ، ٢٧٤
 النحال : ٣٤
 درل الاتلاقتيك : ٩١
 نغراوة : ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٤
 نفضة : ٦٩
 نفوسة (حل) : ١٥٠ ، ١٥٧
 نوات الشط : ٥٧
 النيجر (نهر) : ٥٧

(٥١)

هنشير الرومان : ٦٣
 هنشير سيلى هريش : ٢١٠

(٥٢)

واحة قايس : ٢٨ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٢٢٤
 وادى آش : ٢٦٩ ، ٢٧٢
 وادى ابن يحد : ١٢ ، ٢٢
 وادى عرعر : ٥٧
 وادى بوشاعة : ٢٩ ، ٧٣
 وادى جراوة : ٨٢
 وادى الجمال : ٢٤
 وادى الجوا : ٨٢
 وادى الخروبة : ٢١

المدينة : ٥٧ ، ٦٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٩
 مراکش : ١٨٢ ، ٢٥٢
 حرسى قايس : ٦ ، ٨٩ ، ٢٨٠
 مرسية - ٢٧٤
 المرطبة : ١١٠
 مرقب دياب : ٤١
 مركز التكوين الصناعى : ٨٩٠
 مرماجة : ١٦١
 مسجد سيلى بو على : ٨٠
 مسجد سيلى على : ٦٩
 مسجد سيلى قناوى : ٢١٥

مسجد الصهريج : ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤
 المشرق : ٢٧٤

مصبت الوادى : ٨٥٠
 مصر : ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ٢٣٧
 ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٧٨

الموصل : ٧٠

مطرش : ٩٩

سطاطة : ٨٢ ، ٩٣ ، ١٢٥ ، ٢٢٦
 المطلوية : ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٣ ، ٨٩

المغافرين : ٦٩ ، ٢٤٦

الممايطة : ٢٩ ، ٣٤

المغرب : ١٥٤ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٥
 ٢١٠ ، ٢٦٧

المغرب الأقصى : ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٧٩
 ٢٠٢

المغرب الأوسط : ١٥٩ ، ١٧٩ ، ١٨٣
 ٢٠٢ ، ٢٦٧

المغرب العربى : ١٣٨ ، ١٨١ ، ١٩٨
 ٢١٠ ، ٢٥٨

مغنداس : ١١٤

مقبرة سيلى مرزوق : ٨٠

مكة : ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٧٤
 مكناس : ١٦٧ ، ١٩٨

الملايين : ٣٦

مليانة : ١٨٣ ، ٢٦٧

وادی المالح : ۹۵۰	وادی الزاس : ۱۰۲
ودان : ۱۸۵ ، ۱۸۸	وادی سوف : ۲۱۸۰
ودران : ۸۸	وادی السیل : ۱۲۰ ، ۲۱ ، ۲۳ ، ۳۲ ،
وذرف : ۸۹ ، ۹۷	۷۳
وسلات (جبل) : ۲۲۰	وادی النیران : ۲۴۱
(ى)	وادی قاس : ۲۰ ، ۲۳ ، ۵۰ ، ۷۳
ایمن : ۱۸۶	وادی القصر : ۶۶

فهرس الكتب

التاريخ الباشى ١٠٨ ، ١٩٧ ، ٢١٦ ،

٢٢٠ ، ٢١٨

تاريخ الطبرى ٧٦

التاريخ القديم (لبلين) ١١٣

تقييد الرسائل ٢٦٨

تكلة الصلة ١٧٣ ، ٢٥٢

تلخيص تاريخ الطبرى ٧٦

التنبيه على المغالطة والتمويه ٢٦٨

(ج)

الجامعة (مجلة) ٢٤٧

(ح)

الحديقة (لأبى الصلت) ١٧٣

الحلل السنسية (للودير) ٢٨ ، ١١٩ ،

١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

٢٤٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧ ،

الحلى التيجاهيه (لأبى الفضل التيمحاني) . ١٧٦ ،

٢٧٥

(خ)

حريدة القصر (للأصماني) . ١٧٢ ،

٢٥٤ ، ٢٥٧ ،

خلاصة تاريخ تونس ١٥٠ ، ١٥٣ ،

١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٨٥ ،

١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،

الخلاصة النقيه : ١٢٣ ، ١٤٧ ،

خليج قابس في عام ١٨٨٨ . ٦١

(د)

دائرة المعارف الإسلامية . ١٤ ، ٤٩ ،

(١)

الاباضيون بتونس في القرون الوسطى - ١٥١

الاحاطة : ٢٦٧ ، ٢٦٨

أحسن التقاسم ١٩ ، ٧٢

أهمية الحصون - ٢٤٨

الاستجماب . ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩

الإصابة - ٢٣٨ ، ٢٣٩

الأطلس الأثرى . ٦

الاعلام (للزركلى) ١٧٣ ، ٢٦٩

إفريقيا الشمالية الفرنسية : ٢٢٤

إفريقيا الشمالية في العصر القديم ٩٠ ، ١١٦

١٣٥

الإمام المازرى (لعبد الوهاب) : ٢٥١ ،

٢٥٢

(ب)

البربر (كتاب) : ١٤٠

البربرية الشرقية (لبرنشفينغ) : ٦٩

بسط الأرض (لابن سعيد) . ١٣ ، ٢٣ ،

٥٣

بغية المستطرف (دبوان) . ٢٦٨

بغية الوعاة . ٢٦٧

البلدان (لليحقوي) - ١٩ ، ١٢٦

البيان المغرب : ٤٣ ، ١٢٣ ، ١٥١ ،

١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٣

(ت)

تاريخ ابن أبي الضياف ٢٢١

تاريخ ابن حلقون - ١٥٩ ، ١٦٣ ،

١٨٢ ، ١٩٧

(ع)

- العروة الوثقى ٢٧٣
العروش التوسية ٩٥
عنوان الدراية ٧٦ ، ٨٤ ، ٢٤٩ ،
٢٧٢ ، ٢٦٧

(ف)

- فاجعة المرية ٢٦٨
فتح العرب للمعرب ١٤٠ ، ١٤١ ،
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧
فتوح البلدان ٢٣٦ ، ٢٣٨
فتوح مصر وإفريقية . ١١٩ ، ١٤٨
فصل الخطاب ٢٥٩
الفكر (مجلة) ٢٦٠

(ق)

- القلح الممل (لأس سعيد) ٧٩٠

(ك)

- الكامل (لابن الأثير) ١٦٤ ، ١٦٩ ،
١٧٤ ، ٢٣٧

(م)

- المدارك (لمياص) ٢٤٦
المراتب الإيمانية ٢٧٣
المسالك (لابن حونل) ١٠ ، ١٢٧
المسالك (لابن خرداذبة) ٩٨
المسالك (للكرى) ١٦ ، ٥٢ ، ٧٣ ،
٩٨ ، ١٦٠
المستطرف ٢٤٩
معالم الإيمان ٦٩ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ،
٢٤٦ ، ٢٣٥

٢٢٤ ، ١٩٧ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٥٣

(ر)

- الرحبية (في الفرائض) ٢٦٤
رحله أثرية (Voyage Archeologique)
٦٢
رحلة السجاني ١٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩٧ ،
٩٩ ، ١٢٩ ، ١٥٧ ، ١٦٩ ،
١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،
١٩٧ ، ٢٥٧
رحلة العبدري ١١ ، ٧٤ ، ٢٣٣
رحلة الساشي . ١٠٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢
الرسالة (لابن أبي ريد) ٦٩ ، ٢٤٦
الرسالة العلمية ٢٧٣
رسالة في الاعنفادات : ٢٤٨
رسالة في الذكروالدعاء : ٢٤٨
الرسالة الهندسية . ٢٧٣
الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين : ٢٤٨
الرسالة الناصرة ٢٤٨

(س)

- السبر (للتياخي) . ١٢٢ ، ١٥٣

(ش)

- شرح الرسالة . ٢٤٨
شرح المونة . ٦٩
شرح مفصورة ابن دويد . ٧٦
الشقراطسية (قصيدة) . ٢٤

(ص)

- الصحراء الكبرى (كتاب) ٥٦ ، ٥٦٠
الصحيحان (في الحديث) : ٢٦٢
صدور الأفاارقة : ٢٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ،
٢٦٧

المعجم في أخبار المغرب : ١٨٦

معجم البلدان : ٧٥ ، ١١٩ ، ١٤٣ ،

٢٥٣

معجم قائل العرب ١٢٢

المقالات الوحدوية : ٢٧٣

مقصورة ابن دريد ٧٦

الملخص ٢٤٨

المعهد ٢٤٨

المتاسك ٢٤٨

المنه للمظن ٢٤٨

المنتخب المدرسي ٢٥٤

متجى السول ٢٤٤

مؤنس الأحمة ١٢٦ ، ١٤١ ، ١٥١ ،

١٥٨ ، ١٦١ ، ٢١١ ، ٢٢٠

(ن)

الاسم . ٢٧٥٠

النبد المحتاجة ٧٦

نزهة الأقطار (لورتلاني) : ١٠٢ ، ١٢٨ ،

٢٤٤

نزهة المشتاق (للإدرسي) : ٨ ، ١٠ ،

١٣ ، ٨٥ ، ١٠٢ ،

نفع الطيب (للمقري) . ٧٩٠ ، ٢٤٩ ،

٢٦٥ ، ٢٦٩

نهاية الأرب ١٤٤ ، ١٤٦ ،

النونية . ٢٧٣

(و)

وفيات الأعيان ١٧٣

فهرس الصور

صفحة	صفحة
٣٨	صورة غانة من النجيل ك
١٠٣	» غابة قانس من الجو ٣
٢٤٢	» نجيل قابس تشقه القوافل .. ١٢
٢٥٠	» شجرة المور ١٥
٢٥١	» الأحراف ٢٠
	» رأس الوادى ٢٢
	» ساحة الرحا ٣٠
	» الشرشارة ٣١
	» قنطرة شنى ٣٤
صورة دهليز محارة القديمة	
» فارس من الحارثة	
» واجهة ضريح أنى لانة.	
» قبر أنى إسحاق الوراقانى	
» مسحد أنى إسحاق	
خريطة مدينة قابس أمام ١	
» القساء المقترحة .. أمام ٥٤	
» المدينة القديمة وسورها أمام ٦١	

للمؤلف

- أبو العلا المعري : آراؤه وعقيدته ، تونس ١٩٣٥ .
- أشعة الجمال ، تونس ١٩٣٦ .
- دموع وعواطف (شعر) ١٩٤٦ .
- جزء الحائنة (قصة) ١٩٤٦ .
- عرقوب الخير (مجموعة قصص) ١٩٥٦ .
- في سبيل الحرية (مجموعة قصص) ١٩٥٦ .
- مؤنس الأحبة في أخبار حربة ١٩٦٠ .
- معركة الزلاّج بالاشتراك مع الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحيى ١٩٦١ .
- قابس حنة الدنيا ، مصر ١٩٦٣ .

تحت الطبع :

بقايا شباب (شعر) ، مصر ١٩٦٣ .

قريباً . . .



معركة الجليلية

الجزء الأول من تاريخ الحركة الوطنية التونسية

تأليف

الجيلاني بن الحاج يحيى و محمد المرزوقي

القاهرة

مؤسسة محمد السادس للدراسات والبحوث

١٩٦٢

هذا الكتاب

● يكشف عن تاريخ مدينة كانت في يوم من الأيام العاصمة الثانية لإفريقية العربية بعد القيروان ، والباب الذي ولجت منه الجيوش العربية القادمة من المشرق لتكتسح رقعة إفريقيا الشمالية حاماة لها مشعل الدين الإسلامي والحضارة العربية ، والمركز الممتاز الذي تصادمت من أجله بطولات خلقتها ظروف تاريخية خاصة .

● يلقي ضوءاً عن فترات غامضة من التاريخ العربي في إفريقية القديمة وتونس الحديثة ، وعن الصلات المتينة التي كانت ، ولا تزال ، بين المشرق العربي والمغرب العربي تصارع الأحداث ، ويحقق نقطاً بقيت محل خلاف بين المؤرخين إلى اليوم .

● يترجم لجماعة من أهل العلم والأدب والزهد كانت تراجمهم مشتتة في بطون الأسفار .

● إنه تاريخ حافل لا يقتصر على محيط مدينة قابس ولكنه يستطرد إلى جميع الأحداث التي لها صلة بهذه المدينة .